

رواية

كل شيء مباح في بيــروت



علاء مصباح

رواية

كل شيء مُباح في بيروت

تأليف

علاء مِصْبَاح

الرواية الفائزة بالمسابقة الأدبية المركزية
للهيئة العامة لقصور الثقافة 2010



العنوان:

كل شيء مُباح في بيروت

تأليف:

علاء مِصبَاح

إشراف عام:

داليا محمد إبراهيم

جميع الحقوق محفوظة © لدار نهضة مصر للنشر

يحظر طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين

أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية أو ميكانيكية

أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي صريح من الناشر.

الترقيم الدولي: 9-4549-14-977

رقم الإيداع: 9710 / 2012

الطبعة الأولى: يناير 2013

تليفون: 33466434 - 33472864 02

فاكس: 33462576 02

خدمة العملاء: 16766

Website: www.nahdetmisr.com

E-mail: publishing@nahdetmisr.com



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

21 شارع أحمد عرابي - المهندسين - الجيزة

عـــن المـــكـــان

في 8 شارع «كمال الدين صلاح»، في حي «جاردن سيتي»، يقع مقر السفارة الأمريكية بالقاهرة، وهي واحدة من أكثر المناطق المُؤمَّنة في مصر كلها؛ حيث يستطيع السائر أن يُميِّز صفَّ سيارات الأمن المركزي الواقفة خلف مُجمَّع التحرير - على بُعد خطوات من مباني السفارة - كما تنتشر المتاريس الحديدية والحواجز الأسمنتية الضخمة مُغلقةً الطرق تمامًا، فلا تسمح للسيارات بالدخول، باستثناء التابعة للسفارة، والتي تتميز بفخامتها وضخامتها، واللوحة المميزة التي تتصدرها موضحة أنها «هيئة دبلوماسية».

يشكو سكان المنطقة - لا سيّما المجاورون لمقر السفارة - من القواعد الأمنية الصارمة التي تُقيِّد حركاتهم، فمن غير المسموح للسكان الوقوف في النوافذ والشرفات المُطلَّة على السفارة، كما أنَّ هناك ملفات كاملة بجميع تفاصيل حياتهم وأقاربهم وأصدقائهم لدى مباحث أمن الدولة، بل يظن البعض منهم أن هواتفهم الأرضية مُراقَبَة من قِبَل الجهات الأمنية، ورغم ذيوع هذه الشائعة وانتشارها فإن السلطات لم تكلِّف نفسها عناء نفيها؛ ربما لأنَّها تستفيد منها أيضًا.



كما تعاني محال السوبر ماركت والصيدليات وغيرها حالةً من الكساد؛ حيث يقتصر زبائنها على سكان المنطقة؛ نظرًا لتحاشي المارة دخول المنطقة الأمنية المحيطة بالسفارة؛ حتَّى لا يُوقفهم أحد رجال الأمن المصريين المنتشرين بغزارة هنا وهناك، وسلطاتهم تسمح لهم بإيقاف أي سائر وسؤاله عن اسمه ومهنته والغرض الذي أتى به إلى هنا، كما قد يطلبون رؤية بطاقته الشخصية وتفتيش حقيبته، وأحيانًا يمنعون مروره من أمام السفارة، ويطلبون منه اتخاذ أي طريق آخر، دون إبداء أسباب.. اعتاد زائرو «جاردن سيتي» هذه الإجراءات التعسُّفية وصاروا يتقبَّلونها ببساطة، لكنَّ بعض الزوار الجُدد - الذين لم يألفوا هذه الإجراءات - يعترضون، ويجاهرون بحقِّهم في السير أينما شاءوا، فهذا بلدهم، وليس بلد الأمريكان، وقد اعتاد ضباط الحراسة أيضًا هذه الاحتجاجات، ويعرفون أنَّها عادة ما تصدر عن المثقّفين وأبناء الطبقة الأرستقراطية؛ لذلك فهم يتعاملون معهم برفق، ويسمحون لهم بالمرور، لو ثبت حقًّا أنهم من الفئتين المذكورتين، أما لو كان المعترض واحدًا من العامة فيعرف الضباط كيفية التعامل معه جيدًا!

الذي لا يعرفه الكثيرون أن المقر الحالي للسفارة يعود تاريخ بنائه إلى عام 1929؛ حيث اتخذت أسرة ثريّة مصريّة القصرَ بيتًا لها على بُعد خُطوات من قصر الدُّوبارة - مقر الحماية البريطانية وقتها ومقر السفارة البريطانية حاليًّا - وقصر الوالدة - حيث كانت تقيم الملكة نازلي أم الملك فاروق -

ونهر النيل، وفي عام 1946 اشترى الجيش الأمريكي القصر، وحوَّله لمنطقة عسكرية، وفي العام التالي صار اسمه السفارة الأمريكية.

لكن القصر القديم لم يُرضِ طموح الأمريكان مع مرور الزمن، وأصبحت فكرة التجديد أمرًا مُلحًّا على الحكومة الأمريكية، لا سيّما بعد التفجيرات الإرهابية التي طالت سفاراتها في بيروت والكويت في بدايات الثمانينيات، ولم تعد المباني الدبلوماسية القديمة مناسبة للعصر الجديد حين صارت السيارات المفخّخة والهجمات الانتحارية خطرًا دائمًا يهدد الدبلوماسيين الأمريكيين حول العالم.

في الوقت نفسه، راحت العلاقات المصرية - الأمريكية تزداد متانة، ومعها تضخَّم حجم التمثيل الدبلوماسي الأمريكي في القاهرة، حتَّى قفز عدد العاملين في السفارة من أربعين أمريكيًّا - في عهد السفير آرثر لويري في منتصف السبعينيات - إلى أكثر من 600 موظف - منهم 480 أمريكيًّا - في بداية التسعينيات.

هنا جاء القرار الحاسم، وشهد حي «جاردن سيتي» تحوُّلًا خطيرًا؛ إذ فوجئ سكان الحي بعشرات العمّال المصريين يتوافدون على موقع السفارة الأمريكية؛ ليهدموا واجهته الحجرية العتيدة، ويُحيلوا مبناه القديم أنقاضًا، وتتبّع الجيران مجهوداتهم الخرافية وهم يوسعون من نطاق المنطقة التي تحتلها السفارة، ويزرعون مزيدًا من أشجار النخيل العالية، ويعملون ليل

نهـار، حتَّـى اكتمل المقر الحالي الـذي يحتل قرابة الثلاثة أفدنة - واكتسـب هيئة المجمّع الأمني الكامل كما هو معروف الآن.

وهكـذا اختفى القصر الفخيم، وظهر مكانه مبنيان شـديدا الضخامة، يـكادان يختفيان عن أنظار المارة، خلف سـتار كثيف من الأشـجار العالية التـي تعزل السـفارة تمامًا عن وسـط القاهـرة، بضوضائهـا وزحامها، كما ذهبـت البوابـات الحديديـة القديمـة وحلَّـت محلها الأسـوار الأسـمنتية الضخمـة التـي ترتفع لأكثـر من ثمانية أمتـار، ويمكنهـا أن تحتمل تفجيرًا قويًّـا، وتراقبها عشرات الكاميرات الخفيّـة، بل يُشرف على حمايتها صفٌّ دائمٌ من العساكر المصريين، من الخارج بالطبع.

اليوم يسـتطيع السـائر أمـام السـفارة أن يتبيَّن صفـوف المزدحمين أمام مدخلهـا الأمامي، الواقفين منذ الصبـاح الباكر، حاملين أوراقهم، حالمين بالهجـرة إلى الولايـات المتحدة، كـما لا بد أن يلفت نظـره العَلَمُ الأمريكي الضخم الذي يرتفع خلف الأسـوار، مرفرفًا في سـماء القاهرة، وقد يُلقي نظرةً سريعةً - خوفًا من أن يلاحظ الضبّاط الواقفون اهتمامه - على النوافذ الزجاجيـة المُعتمة التي تملأ جدران السـفارة، وهو ما قد يدفعه لأن يطرح سؤالًا عادة ما يبقى في قرارة نفسه بلا إجابة:

«ماذا يدور خلف هذه النوافذ المغلقة؟».

1

كانــت أول مــرة أدخــل فيهــا الســفارة الأمريكيــة، ولم أتصــوَّر أن الإجراءات الأمنية بكل هذا التعقيد.. عند باب المدخل الخلفي للســفارة، ســألني الضابط عن السبب الذي جاء بي إلى هنا، فأجبتــه أن لديَّ مقابلة شــخصية بعــد دقائــق.. ســمح لي بعبور بــاب المدخل لأقف عنــد مكتب الأمــن.. كان هنــاك رجــلا أمن مصريَّــان، ألقيــت عليهما الســلام بحذر، فــرد أحدهما التحية كاملة، وســألني من جديد عما أريــده.. أخبرته، فأخذ اســمي، وأجرى مكالمــة هاتفية سريعة قبل أن يطلــب مني إخراج بطاقتي الشــخصية وهاتفي المحمــول وأي أجهزة معدنية بحــوزتي.. أخرجتُ ما لــديَّ فأخــذه مني وأعطاني بطاقــة تحمل رقم ثلاثة عــشر، وطلب مني أن أُعلِّقها على صدري.. ثلاثة عشر؟ يا لها من بداية!

كنــت متوتــرًا إلى حــد مــا، وذهنــي مشــغول بتخمــين ماهية الأســئلة التي ســأواجهها بعــد قليل في المقابلة الشــخصية.. هل تكــون بالعربية أم بالإنجليزية؟ وهل يصنع ذلك فارقًا؟

بعد نحو دقيقتين من الانتظار في مكتب الاستقبال، جاءت فتاة حسناء



في نحو الخامسة والعشرين، تفوح منها رائحة عطر باريسي شهير، وسألت رجل الأمن عني.. أشار نحوي، فاستدارت لي بابتسامة عريضة، وقالت مُرحِّبة وهي تصافحني:

- **أهلًا يا مستر شادي.. لماذا تأخَّرت؟**

شعرت بيدها دافئة رقيقة في يدي، ونظرت إلى ساعتي في حيرة.. إنها الثانية والثلث.. هممت بالرد شارحًا أن موعد المقابلة في الثانية والنصف، وأنني لم أتأخر، لكنها سارعت تتقدمني قائلة:

- **أنا أمزح فحسب.. لماذا تبدو قلقًا لهذه الدرجة؟ أنا هايدي التي حادثتك في التليفون..**

حاولت أن أبتسم وقلت:

- **أهلًا وسهلًا..**

عبرت هايدي بجوار البوابة الإلكترونية، فلمَّا هممتُ أن أتبعها أشارت لي أن أمرَّ خلال البوابة الإلكترونية.. سرتُ بحذرٍ خلالها فتعالى أزيزُها.. سألتني بينما رجل الأمن الأسمر الشاب يتقدَّم نحوي بجهاز الفحص اليدوي:

- **ألم تترك الموبايل لدى الأمن؟**

أومأت برأسي أن نعم، فطلب مني رجل الأمن أن أعبر خلال البوابة من جديد.. تراجعت ومررت عبرها ثانية، فتعالى الأزيز نفسه.. تأملني

الرجـل بعين خبيرة، ثـم طلب مني أن أخلع حزامـي.. كنت أرتدي بذلة كاملـة؛ اسـتعدادًا للمقابلة الشـخصية، ونسـيت تمامًـا أن الحزام يحمل «توكـة» معدنيـة.. خلعـتُ الحـزام ومـررتُ من خـلال البوابة، فلم تُحدث صوتًا.

تجـاوزت رجـل الأمن، ورأيـت هايـدي تشير تجاهـي وهي ترفع البطاقـة الخضـراء المعلَّقـة علـى صدرها؛ ليراهـا رجل أمن آخر أشـقر الشـعر، أزرق العينين، يرتدي زيًّا عسـكريًّا، يقـف خلف حاجز زجاجي سميك.. قالت لي:

- **عندمـا تدخل معي، لا بد أن يرى ضـابط المارينـز أنك معي؛ حتَّى يسمح لك بالدخول، ما دمت لم تعمل معنا بعد.**

مضيـت خلفها، عندما انفتـح أمامنا الباب المعـدني الثقيل.. سرنا عبر سـاحة السـفارة إلى مبنى كايرو 2 -كما عرفت اسـمه فيما بعد - وأنا أتأمل جسـدها الرشـيق المتناسـق، وشـعرها الأشـقر المصبوغ الجميل المنسـدل بنعومة على كتفيها.. راقني قوامها وشـعرت برغبة عارمة أن أتحدَّث معها أكثـر، لكـن القلق والشـعور بالغربة في هـذا المكان - الـذي أدخله لأول مرة - وإحسـاسي أننـي صرتُ - كما تنصُّ القوانـين الدولية - على أرض أمريكيـة، منعني من الكلام، خاصة عندما رأيت العَلَم الأمريكي يرفرف بقوة في ساحة السفارة.



تمهّلت هايدي في مشيتها لتحاذيني وسألتني:

- **أين تسكن يا شادي؟**

كنت أعرف هذه الأسئلة التي يسألها الناس؛ كي يحددوا مستواك الاجتماعي، لا سيّما أن الكل يتوقع أن طلاب الجامعة الأمريكية من سكان الزمالك والمهندسين وغيرهما من الأحياء الراقية.. أجبتها بهدوء:

- **أنا أصلاً من المنصورة وأقطن هنا في الهرم.**

عند مدخل كايرو 2، كررت هايدي ما فعلته أمام ضابط مارينز آخر، يقف خلف حاجز آخر، وأمامه كاميرا رقمية كبيرة، عدستها مصوَّبة باتجاهنا.. ما كل هذه الإجراءات العقيمة؟ ألا يكفي ما فعلوه عند المدخل؟ فتح لنا الضابط الباب التالي لنعبر منه إلى المصعد.. سألتني هايدي عما إذا كانت هذه هي أول مرة لي في السفارة الأمريكية، فقلت لها: نعم.. ضحكت وقالت بطريقة مسرحية:

- Welcome to the American embassy.

ابتسمتُ في خجل، عاجزًا عن أن أجد شيئًا أردُّ به.. صعد بنا المصعد إلى الطابق الثالث، وسرتُ خلفها وهي تتجه يمينًا إلى باب آخر مُغلق، كُتِب بجواره «الخدمات التجارية Commercial services».. دخلنا، فإذا بنا في صالة واسعة، تتوزَّع فيها خمسة مكاتب، خلفها موظَّفون وعليها أجهزة كمبيوتر.. لم أجد الوقت الكافي للتأمل؛ لأن هايدي نادتني

لأواصل السير خلفها نحو مكتب جانبي، قرأتُ على مدخله «باهي بطرس.. مدير برامج التعاون التجارية».

استقبلني باهي مُرحِّبًا، ونهض من خلف مقعده ليصافحني.. كان ممتلئًا، في نحو الخامسة والثلاثين من العمر، أسمر البشرة، ويلمع رأسه الأصلع تمامًا تحت ضوء الغُرفة الأبيض.. جلستُ أمام مكتبه، عرَّفني بنفسه، وأشار لهايدي بالرحيل، فتمنَّت لي حظًّا سعيدًا بالإنجليزية، وانصرفتْ.. ابتلعت لعابي وتناسيتُ أنني حتَّى الآن لم أقابل أمريكيًّا واحدًا باستثناء ضابطي المارينز، على عكس ما توقَّعتُ.. لم يكن هناك وقتٌ لمزيد من الاسترسال في أفكاري؛ لأن باهي بدأ حديثه قائلًا:

- **بصراحة، أعجبتني الـCV التي أرسلتَها لنا.. متى تخرَّجت في الجامعة؟**

بنظرة سريعة على الملف الموضوع على المكتب أمامه، رأيتُ السيرة الذاتية الخاصة بي، واستمارة البيانات التي ملأتُها.. كنتُ أعرف جيدًا أن تاريخ تخرُّجي مكتوب بوضوح في صدر سيرتي الذاتية، التقطتُ نَفَسًا عميقًا وأجبتُ محاولًا أن أبدو هادئًا واثقًا بنفسي:

- **الشهر الماضي.. أنا حديث التخرُّج!**

اعتدل باهي في مقعده، وتحوَّل للحديث بالإنجليزية بطريقة رسمية:



- **هل يمكنك أن تحدّثني عن نفسك قليلًا؟**

توقّعتُ هذا السؤال، وكنتُ قد أعددت له إجابة.. التقطت نفسًا عميقًا آخر؛ لأزداد هدوءًا وأجبت:

- **اسمي شادي الحسيني.. درست الصحافة في الجامعة الأمريكية، وتخرّجت هذا العام بتقدير جيد جدًا.. كنت أمارس أنشطة كثيرة في الجامعة، وترأست نادي القدس لعام، وكنت أكتب بانتظام في جريدة الجامعة، كما كنت عضوًا في اتحاد الطلبة و...**

توقفت وقد نسيت كل ما كنت قد حضّرته.. ساد الصمت لحظات، فعرف باهي أنني انتهيت من إجابتي، فتلا سؤاله التالي.. كانت الأسئلة كلها تقليدية، واجهت مثلها من قبل، أو قرأت عنها ليلة أمس عندما كتبت في صفحة جوجل «الأسئلة المتوقعة في مقابلة شخصية لوظيفة تسويق»! السؤال الجديد كان مجموعة من القصاصات مكتوبًا عليها بيانات بالعربية والإنجليزية، أعطاني إياها باهي، وطلب مني ترتيبها وَفْق تسلسل مبتكر.. لم يكن الأمر صعبًا، وقررت ترتيب البيانات أبجديًّا، فلاحظت أن بعض البيانات متشابهة، أو هي مجرَّد ترجمة عربية لأخرى بالإنجليزية، فقررت ترتيبها جميعًا وفقًا للترتيب الأبجدي الإنجليزي، مع وضع القصاصات العربية المتشابهة مع مثيلتها الإنجليزية.. انتهيت من ترتيبي، وشرحت الطريقة التي ابتكرتها لباهي، فبدا عليه الرضا، ثم واصل أسئلته في تلقائية.

لم يعـاودني التوتر إلا عندما بدأتْ أسئلة المواقـف.. قال لي: تخيل أنك تُحدِّث عميلًا وتحاول أن تقنعه بالاشـتراك في برنامج تجاري أمريكي، فإذا به يردُّ عليك رافضًا التعاون مع أمريكا؛ لأنَّه «مقاطع».. كيف تردُّ عليه؟

كيف أردُّ عليه؟ سكتُّ للحظاتٍ وأنا أبحث عن إجابة مناسبة.. بذلت قصارى جهدي لأتحكم في انفعالي، وأبدو واثقًا من نفسي، فالتقطتُ نَفَسًا عميقًـا للمـرة العاشرة، وتوكلتُ عـلى الله.. بدأت جدالًا طويـلًا أقنع فيه عميـلي الوهمي -الذي تقمَّص مسـتر باهـي دوره- بأن أمريـكا اليوم هي القـوة الاقتصاديـة الأولى في العـالم، وأنـه لا مفـرَّ من التعـاون معها، مهما حاولـت، فأبسـط شيء القمـح الـذي يأكلـه كل مواطن مـصري، هو في الأصـل مسـتورد من أمريـكا، ومصر هي الدولـة الثانية بعـد إسرائيل في قائمة أكبر متلق للمسـاعدات الاقتصاديـة من أمريكا، والمعونة الأمريكية هي التي تبني اليوم مدارسـنا، وترصف طُرقنا، بل تشيِّد شبكاتِ الصرف الصحـي في قُرى الصعيـد، وتطبع لتلاميذنا الكتبَ الدراسـية أيضًا.. أي أن أمريـكا اليوم تُعلّمنا وتطعمنا وتسـقينا، بل تجد لنا سُـبلًا للتخلص من فضلاتنا أيضًا!

انتهيـت مـن خطبتي العصماء، وأنـا لا أصدِّق بعد أنني أنـا بالذات قد قلتُ كل هذا.. كأن شخصًا آخر، لا أعرفه ولا يعرفني، ولا يمتُّ لي بأدنى صلة- قد رَكِبني وقال ما قلته.. ويبدو أن حماسـتي قد راقت السيد باهي؛ إذ منحني ابتسـامة واسعة، أنهى بها المقابلة الشخصية، وهو يتمنى لي حظًّا

مُوفَّقًا، ويعدني بأنني سأتلقى اتصالًا من هايدي خلال أسبوع على الأكثر، سواء بالقبول أو بالرفض في الوظيفة.. ثم نهض وصافحني بقوَّة، وفي عينيه تلك النظرة الغامضة التي لا تكشف لك ما إذا كان أداؤك قد راقه حقًّا، أم أنك مجرد «غير مقبول» آخر!

جاءت هايدي من جديد بابتسامتها العذبة لتصطحبني إلى الخارج، وراحت تمازحني وتقارن بيني وبين من سبقوني في المقابلة، وأنا - كالعادة - لا أجد إجابات مناسبة لخفّة دمها، فأكتفي بالصمت وبوجهي المحمر خجلًا..

عندما خرجتُ من الباب الخلفي الذي دخلتُ منه، سرتُ في الشارع أتأمل السيارة السوداء الضخمة التي تحمل شعار «هيئة دبلوماسية»، الواقفة في عرض الشارع المُغلق، ووجدتُني أتخيَّل نفسي أملك واحدة مثلها، وأقودها في شوارع القاهرة، فلا يجرؤ أي أمين شرطة أو حتَّى لواء مرور أن يعترض طريقي، أو يمنحني مخالفة.. هل صار حلم العمل في السفارة الأمريكية قريبًا إلى هذا الحد؟ كلا، لا أعتقد أنهم قد يقبلون شخصًا مثلي.. لا بد أنهم سيتحرون عني وسيعرفون.. لا بد أنهم سيعرفون!

مضيت تحت ظلال الأشجار متشابكة الأغصان، بين الحواجز الأسمنتية الضخمة، مُستعيدًا إجاباتي خلال المقابلة، وأنا لا أصدق بعد محاضرتي عن المقاطعة وتفاهتها.. وصلتُ لشارع قصر العيني، فسرت حتَّى بلغتُ المبنى الرئيسي للجامعة الأمريكية.. دخلتُ المبنى من المدخل المقابل لقاعة

إيـوارت، وسرتُ في حديقتـه باحثًا عن أي صديق، فلـم أصادف أحدًا.. ذهبت إلى الكافتيريا وابتعتُ عصيرًا.. حانت مني التفاتة إلى علب البيبسي البـاردة في الثلاجة، وقاومتُ حنينًـا بالغًا إليها.. منذ أكثر من عام ونصف وأنا لا أذوقها.. لماذا يعاودني الحنين إليها بهذه القوة الآن؟!

جلسـتُ إلى مائـدة خاليـة، واسـتغرقتُ في أفـكاري قليـلًا، ثـم فجأة وجدتُنـي أتجه لاشـعوريًّا نحو ثلاجـة الكافتيريا.. التقطـت علبة البيبسي البـاردة، واتجهتُ نحـو موظف الكاشـير -كالمنوَّم مغناطيسـيًّا- ودفعتُ ثمنهـا، وعـدتُ للجلـوس إلى المائدة، أنظـر إلى علبة البيبـسي، و لا أجرؤ على فتحها، بينما يُلحّ سـؤال واحد في ذهني: كيف يمكن أن يصبح شادي الحسيني مُوظفًا في السفارة الأمريكية؟

■■■



2

منذ بدأ الصيف، واليوم يبدأ بالنسبة لندى في الواحدة أو الثانية ظهرًا..

تقوم ندى من فراشها بعد نحو ساعة أو أكثر من الرقود بلا نوم، تظل خلالها تستعيد لقاءها الأخير مع عماد، وتجد نفسها تتذكر حديثهما، كلمةً.. كلمة، وحرفًا.. حرفًا، تتذكر كيف استقبلها في شوق، وجلس معها في حديقة الأزهر، يتحدثان عن أخبارها، وكيف استمع لها بإنصات وهي تحكي له عن جولة التسوّق التي قامت بها مع صديقاتها منذ أيام.. كم كان جميلًا منه أن يُنصت لها بكل هذا الاهتمام!

تظل ندى تستعيد تفاصيل لقائهما، مرات ومرات، كفيلم سينمائي جديد، أنزلَته على الكمبيوتر، شاهدته فأعجبها وراحت تعيد مشاهدته مرارًا وتكرارًا، وفى كل مرة يزداد إعجابُها به!

وأخيرًا، تنهض ندى مُسرعة إلى جهاز اللاب توب لتفتحه وتدخل إلى الماسنجر، لترى ما إذا كان عماد موجودًا أم لا.. لأول مرة منذ قابلته

لآخـر مرة منذ أسـبوعين، لم يكن هناك.. حاولـت الاتصال به، فلم يرد..
مـرت الدقائـق التالية ثقيلة متباطئة، وهي تفكـر في أمر فتاها.. هي تعرف
أن (عـماد) اليـوم في القاهرة.. لقـد اتفقا على أن يتقابلا.. تُرى، هل سـافر
هذا الصباح إلى الإسكندرية دون أن يُخبرها؟ غير معقول، كان على الأقل
سيرسل لها رسالة على جوَّالها.. لماذا إذن لا يرد؟ ظل ذهنها مشغولًا بتعليل
سـبب عدم اتصالـه بها حتَّى الآن، فلا بد أنـه رأى رقمها على جوَّاله حتَّى
ولو كان مشغولًا.. قاومت رغبة عارمة في الاتصال به مرة أخرى؛ لأنها لا
تريد أن تُظهر له شوقَها الشديد.. لا بد أن يتصل هو.. لا بد أن يفعل!

كانـت هذه هـي تجربتها الأولى في الحب، ولم تكن لديها أي خبرة لكنها
قـدَّرت أن هذا هـو الصحيح.. لقد عرفت (عماد) منـذ ثلاثة أعوام، حين
كان زميلهـا في فصل مادة التفكير العلمـي بالجامعة الأمريكية، ووضعهما
البروفسـير في مجموعة واحدة ليعملا في المشروع نفسـه، وكانا يتقابلان في
مكتبة الجامعة، يجلسـان بالسـاعات يثرثران كثـيرًا، ويذاكران قليلًا، حتَّى
وجدت نفسـها تلقائيًّا تميل إليه.. هل هي وسـامته التي جذبتها إليه؟ كلا
بالطبع، هو ليس شـديد الوسـامة، وهي قد عرفت شـبابًا أكثر وسامة منه
بمراحل.. هل هو ذكاؤه الحاد ولباقته في التعامل مع الآخرين؟ ربما، وربما
أيضًا هو أسلوبه الدائم في إثارة غيظها واستفزازها بجميع الطرق.. عندما
تطلب منه طلبًا، فهو يلاوعها ويحاورها كثيرًا، حتَّى تكاد تملّ وتتركه، وقد
أدركت استحالة أن يساعدها، فإذا به يعلن لها أنه أتمَّ ما طلبته منه قبل أن

تطلبه، أو يفعل ما طلبته بشكل أفضل كثيرًا مما أرادته.. نعم، هذا بالضبط ما جعلها تُغرم به، وتتعلَّق به، وتقضي معه الساعات في شغف شديد.. هل كان يبادلها هذا الشغف؟ بالتأكيد، ألم يكن هو الذي يدعوها دائمًا للاستذكار معه؟ ألم يكن يتصل بها كثيرًا ليدعوها لمشاركته تناول الغداء في مطعم الجامعة؟ طوال عامين، لم تتجاوز لقاءاتهما أسوار الحَرَم الجامعي، وكانا يتعاملان كصديق وصديقة لا أكثر.. مثلهما مثل المئات من الطلبة حولهما، علاقتهما البريئة لا تلفت الأنظار إلا لمامًا!

متى إذن اتخذت علاقتهما منعطفًا جديدًا؟ لن تنسى ندى أبدًا هذا اليوم، منذ عام.. كان يومًا صيفيًّا حارًّا في أواخر شهر يوليو، التقى فيه الأصدقاء في ساحة الحرم اليوناني للجامعة، في آخر أيام الدراسة الصيفية.. كان عماد جالسًا معهم، صامتًا أغلب الوقت كعادته، فإذا بزميلتهما يمنى تميل على أذنه وتهمس له بشيء ما، ثم لم تلبث أن سحبت يده، وقامت معه لتنفرد به على جانب، ليتبادلا معًا حديثًا ضاحكًا! هذا كله وندى تتابعهما بعينيها وصدرها يغلي من الغيظ.. لا يمكنها أن تنكر أن يمنى تفوقها جمالًا بمراحل.. ندى تعرف جيدًا أنها ليست باهرة الحسن.. تعرف أنها لا تملك خصرًا نحيلًا وصدرًا كبيرًا متفجر الأنوثة مثل يمنى.. لثوانٍ دارتْ هذه الأفكار في ذهنها، ولم تدرِ بنفسها إلا وهي تمضي إلى حيث يقف عماد ويمنى، وتنادي على عماد قائلة إنها تريده في أمر هام وعاجل.. حاول الفتى أن يُنهي حديثه أولًا مع يمنى، لكن ندى أصرَّت وقالت بصوت عالٍ –

سـمعه الجميع مندهشـين- إن الأمر لا يحتمل التأجيـل.. مضى معها عماد مندهشًـا، والكل يتابعهما محاولًا فهم ما فعلتـه، لكن ندى تجاهلت الكل، وسـألت (عـماد) بحدة عما كان يفعلـه مع يمنى.. لوهلة ظهرت الدهشـة على وجهه، ثم لمعت عيناه بنظرة خبيثة، وقرر أن يسـتغل الموقف كعادته.. أصرَّ ألا يخبرها قائلًا إنه «موضوع سري جدًّا لا يمكنه أن يصارحها به».. زادها ذلـك إلحاحًا، فازداد هو إصرارًا على سرّية الأمر.. كانت تعرف أنه يتلاعـب بهـا كعادته، ومع ذلك راحت تواصل الإلحاح، وهو يسـألها عن سـبب اهتمامها بهذا الأمر، حتَّى وجدت نفسـها تستسلم، وتنظر إلى عينيه مباشرة، وتعترف له.. تعترف بأنها تحبه!

وقتها لم تكن تعرف حقًّا إذا كانت تحبه أم لا - ربما لم تكن تعرف أصلًا ما الحب- إلا أنها استراحتْ كثيرًا عندما أخبرته بذلك.. لم يتحدثا بعدها لأسبوع كامل، ظلَّت خلاله تلوم نفسها أنها صغَّرت من نفسها، وقالت له شيئًا كهذا - كما قالت لها صديقتها رشا في نبرة لوم وهي تندب سذاجتها- ربما لا يشاركها فيـه، حتَّـى فوجئت به يتصل بها، ويتحدث بطريقة عادية تمامًا - كأنَّ شـيئًا لم يكـن - ويدعوها للذهاب معه إلى السـينما، بصحبة بعض الأصدقاء! مضت هـذه «الخروجة» دون أن ينفردا تمامًا، أو يتبادلا حديثًا خاصًّا، وعندما التقت عيونهما للحظة، غمز لها بعينه، بنظرة ذات مغزى، فاحمرَّ وجهها خجلًا.. وفي مسـاء اليـوم التالي، كانـت خروجتهـما الأولى وحيدين.. وبـدأت قصة حب عفيفـة، شـهدتها مباني الجامعة طوال عام كامل، عـرف كلُّ من حولهما خلاله

أنهما يهيمان عشقًا ببعضهما البعض.. لم يعد أحد يراهما إلا معًا.. في المكتبة.. في الكافتيريا.. في ساحة الجامعة.. صارا قصة حب واضحة كالشمس لكل من يراهما، وتشغل جانبًا لا بأس به من أحاديث النميمة لأصدقائهما، حتَّى صار الكل يتساءل: كيف تنتهي هذه العلاقة؟!

■■■

عندما خرجتْ ندى من غرفتها، لاحظت أن شقيقها (حسام) جالس يشاهد التليفزيون في الصالة.. غابت في الحمام لنصف ساعة، قبل أن تخرج منه مسرعة إلى غرفتها، خشية أن يراها حسام بقميص النوم.. رأت على شاشة جوَّالها أن (عماد) كلَّمها مرتين دون رد.. ترددت لحظات، غمرتها فيها الفرحة؛ لأنه قد حادثها أخيرًا، ثم اتصلت به.. استمعت لصوت الرنين الطويل وقلبها يخفق بحرارة، قبل أن تسمع صوته.. صوت عماد!

- **عماد، أين أنت؟ لماذا لم ترد؟**
- **كنت في السفارة اللبنانية. أخذت التأشيرة.**
- **أمازلت مُصرًّا؟**
- **أسبوع واحد لا أكثر يا ندى.. اطمئني.. سألحقك قبل أن تموتي شوقًا!**

ابتسمت، وقد أحست بشوقها إلى مزاحه التقليدي معها.. سألها باهتمام:

- **وأنتِ؟ لماذا لم تردِّي؟ كلّمتك عشرين مرة ولم تردّي!**
- **بل مرتين فحسب.. كنتُ في الحمَّام.**
- **ماذا كنتِ تفعلين في الحمَّام؟**

عادت تبتسم من جديد، وتظاهرت بالغيظ وهي تصيح:

- **عماد.. كُف عن هذا.. متى سنتقابل اليوم؟**
- **سأمرّ عليك ونخرج معًا.. ما رأيك؟**

كانت هذه أول مرة يطرح عليها مثل هذا الاقتراح، فهو لم يزرها في بيتها سوى مرتين للاستذكار - ولم يكن حسام موجودًا- قالت بحذر:

- **أخي حسام هنا!**
- **وهل هذه مشكلة؟ فرصة أتعرَّف إليه!**
- **ليس هذا وقته.. انتظرني أمام منزلي في الخامسة مساء.. عندما تصل كلِّمني.**
- **ليكن.. لكنك ستخبرينني ماذا كنت تفعلين في الحمَّام!**

وأنهت ندى المكالمة وهي تشعر أن الكون كله قد صار ملكها.. هذا الفتى سيقتلها عشقًا.. لكم تعشق مزاحه هذا! ربما كان ذلك - رغم تظاهرها الدائم بالضيق منه- هو أكثر ما تعشقه فيه.. جلست على فراشها، وشغَّلت أغنيتها المفضلة «زيديني عشقًا» لكاظم الساهر على

اللاب توب، وراحت تستمع إليها.. في الحقيقة هي لا تسمع كاظم الساهر إلا من أجل «نزار قباني»؛ هذا الشاعر العظيم الذي تشعر أنه كتب هذه الروائع لها خاصةً.. ظلت لأعوام مُصرّة على ألا ترتبط بأحد لا يُحب «نزار»، وكان حلمها الدائم أن تجلس كالملكة على عرشها، ويجلس حبيبها أمامها أرضًا، يتلو عليها أشعار «نزار» ليلًا ونهارًا: «يا أحلى امرأة بين نساء الكون أحبيني.. يا من أحببتك حتّى احترق الحب أحبيني.. .» تنتهي «زيديني عشقًا»، لتبدأ «في مدرسة الحب»: «أدخلني حبك سيدتي مدن الأحزان، وأنا من قبلك لم أدخل مدن الأحزان».. «يا امرأة قلبت تاريخي.. إني مذبوح فيكِ.. من الشريان إلى الشريان».. كم أنت رائع يا «نزار»! لسوء الحظ لم يكن عماد يطيق «نزار» ولا كاظم، بصراحة لم يكن يطيق الشعر العربي أصلًا، والأغنية العربية الوحيدة التي يحفظها هي نشيد «بلادي بلادي»!

علا صوت كاظم، أخذت ندى تروح وتجيء في مملكتها الصغيرة - غرفتها- تُعدّ العُدّة للقاء عماد.. لم تره منذ أسبوعين! منذ ذهبا معًا إلى حديقة الأزهر؛ ليحتفلا بانتهاء الدراسة، ورحل هو إلى الإسكندرية ليقضي بعض الوقت مع أهله.. أسبوعان! يا الله! مرًّا كعامين! صحيح أنهما يتحدثان يوميًّا لساعات طوال على الماسنجر، ويتهاتفان عشرات المرات بسبب أو بدون، يحكي لها شيئًا أو تستشيره في أمر.. لكنها لم تره وجهًا لوجه.. لم تلمس يديه.. لم تشم عطره.. لم تلتق عيناها بعينيه.. تُرى،

كيف ستستقبله اليوم؟ هل بمصافحة باردة عادية، كما يحدث عندما تراه بين أصدقائه في الجامعة، أم تُلقي بنفسها في أحضانه رغم كل شيء؟ كلا بالطبع، لن تفعل ذلك.. مرَّات قليلة هي التي احتضنته فيها، وكانت كلها في مناسبات تستحق فعلًا: عيد ميلاده، يوم نجاحه في المادة التي ظن أنه سيرسب فيها، ومرة ثالثة انفردا معًا في ركن بعيد عن الأنظار بالجامعة.. ربما تأتي الفرصة لاحتضانه فيما بعد.. دع الأمور تسير كما يريد الله.

راحت ندى تمشِّط شعرها، حتَّى سمعت طرقات هادئة على الباب.. إنها أمها.. فتحت لها الباب وأخبرتها بهدوء أنها ستخرج اليوم مع عماد.. تطلّعت لها الأم للحظات دون كلام، فاستطردت ندى وهي تنظر للمرآة متحاشية عيني والدتها:

- **لم أره منذ أسبوعين يا ماما.. سنخرج معًا وسأعود مبكرًا.**

تساءلت الأم في حذر:

- **تخرجان وحدكما أم بصحبة الأصدقاء؟**

صمتت ندى لحظات وفكَّرت في أن تكذب وتطمئن والدتها بأن أصدقاءهما سيكونون معهما، ثم قررت أن تخبرها بالحقيقة.. والدتها تعرف تفاصيل قصة حبهما، وندى لا تُخفي شيئًا عنها.. أجابتها بحذر:

- **لا، وحدنا.. أنتِ تعرفين (عماد) يا ماما.. لا مشكلة إطلاقًا..**

- **لكن (حسام) قد يكون له رأي آخر.**



فاجأها الجواب.. ما شأن حسام؟ اقتربت من أمها، وعانقتها قائلة – هذه الطريقة تصلح دائمًا لإنهاء أي خلاف مع أمها لصالحها:

- **وكيف سيعرف حسام؟ دعيه يذاكر، فهو لم ينتهِ من امتحاناته بعد.**

وتطلّعت إلى عيني أمها مباشرة، وتبيّنت فيهما نظرة الموافقة كالعادة، فاحتضنتها وهي تواصل:

- **لن أتأخر.. أعدك بذلك!**

أتت لها أمها بشطيرتين، بدأت تلتهمهما على عجل وهي مشغولة بالتفكير في اختيار ما تقابل به صديقها.. أترتدي التايير الوردي الجديد؟ لا، عماد لا يحب الفساتين ولا التاييرات.. هذه الملابس كلاسيكية جدًّا، ولا تليق بفتيات العصر.. «البودي» الأزرق والبنطلون الجينز الأسود، يحبهما كثيرًا.. مهلًا، لقد ابتاعت بعض الملابس الجديدة في جولة تسوُّقها الأخيرة، فلم لا تفاجئه بها؟ شغلها التفكير في الأمر عن إكمال إفطارها البسيط، وقامت لتتأكد من إغلاق باب غرفتها، وبدأت تجرِّب الملابس الجديدة أمام المرآة.. كانت قد جربتها ليلة أن اشترتها، لكنها هذه المرة تجرِّبها وهي تنظر إليها بعيني عماد.. هو يحب اللون الأزرق.. لا بد أن تعجبه البلوزة الزرقاء الجديدة!

بعد ساعتين، اتصل بها عماد وقال إنه في التاكسي، في الطريق إلى



المعـادي.. خفق قلبها فرحًا وشـوقًا، وقررت أن تحسـم أمرها وترتدي ما وقـع اختيارهـا عليه من ملابسـها الجديـدة.. مضت إلى الحمام متحاشـية النظر إلى الصالة؛ حيث لايزال حسـام جالسًـا ينقل عينيـه بين التليفزيون وبعـض الكتـب المتناثـرة عـلى المنضدة أمامـه.. هـذا الأحمق يخدع نفسـه ويوهم نفسـه أنه يذاكر، حتَّى إنه يجتاز امتحاناته بأعجوبة كل عام.. رغم ذلـك لا بد أن نعترف بأنه لم يرسـب قـط خلال العامـين الماضيين اللذين قضاهمـا في هندسـة الجامعـة الألمانية، ربما بسـبب ذكائه وسرعـة بديهته.. لماذا لا يركِّز حسـام في دراسـته وشـئونه الخاصـة ويتركها لشـأنها؟ هكذا فكَّرت ندى وهي تبدأ في غسـل شـعرها بالشـامبو وتجفيفه بعناية.. لو أنه فقـط ابتعد عنها لعاشـت أجمـل أيام حياتهـا.. لو أنه فقط يتخـلَّى عن دور ضابط المباحث السـخيف الذي يمارسه معها.. كلما رآها يغمرها بالأسئلة بسبب أو بدون.. من تكلمين في التليفون؟ إلى أين ستذهبين مع رشا؟ من هـذا الفتـى الذي كلّمك على تليفـون المنزل؟ بل إنه يتجـرأ أحيانًا ويعبث بجوَّالهـا، باحثًا عن أرقـام الأولاد الذين اتصلوا بها.. كل مرة تخوض معه مشـاجرة حامية.. أمها تقـف بجانبها دائمًا، ورأيها أنـه مهما كان فهو الأخ الأصغـر، ولا يصـح أن يُكلِّـم أخته بهذه الطريقة.. وفى المسـاء عندما يأتي الأب منهكًا -من شركة الاستيراد التي يمتلكها- لا يحتمل سماع شكواها حتَّى النهاية، ويحكم ببسـاطة أنها هي المخطئة.. فكيف لا تستمع إلى كلام أخيها «الولد»؟



عندما عادت إلى غرفتها، قررت أن تتناسى حنقها على حسام قليلًا، وتواصل التخطيط لموعدها المُقبل.. كانت «في مدرسة الحب» لا تزال تصدح في فضاء الغرفة، ولم تُغيّرها ندى طوال الساعات الماضية.. «علّمني حبك كيف الحب يُغيّر خارطة الأزمان.. علّمني أني حين أحب تكف الأرض عن الدوران».. متى يقول لها عماد كلامًا كهذا؟

بعد قليل، سمعت جوّالها يرنُّ بلحن أغنية «الله لا يحرمني منك» التي اختارتها بعناية من ألبوم عمرو دياب الأخير؛ لتكون الرنة المميزة لعماد- نظرت من نافذة غرفتها، ورأته يلوِّح لها مبتسمًا.. رباه! كم تفتقده! لا يمكنها أن تتخيَّل أنها ستنتظر حتَّى ترتدي حذاءها وترشّ عطرها المفضّل على صدرها ووجهها، وتأخذ المصعد حتَّى تنزل إليه، وتراه وجهًا لوجه! كم أنتِ متعجلة يا ندى! لم تريه منذ أسبوعين، ولا تتحملين الانتظار لدقيقتين حتَّى تكوني أمامه مباشرة!

بعد دقيقة واحدة، كانت ندى تتسلل بهدوء نحو باب الشقة؛ حتَّى لا تلفت نظر حسام.. لحسن الحظ لم يكن موجودًا في الصالة، وهو ما جعلها تجري ملهوفة نحو الباب، وقد صار صوت خفقان قلبها مسموعًا لأذنيها، حتَّى استوقفها فجأة صوت حسام الحازم:

- **إلى أين يا ست هانم؟**



3

يشعر عماد بفخر غير عادي وهو يسير إلى جوار ندى، متأبطًا ذراعها.. فخـر عادة لا يمكنـك أن تلاحظه عليه، فهو أفضل مـن يتحكم في إخفاء مشـاعره.. هل كان يتصور منذ عام واحد فقـط أن يكون له صديقة، تحبه كل هـذا الحـب، وتخاف عليه مـن «الهوا الطايـر»، كما يقولـون؟! هو على يقين أن ندى تعشـقه حتَّى النخاع.. لا يمكنها أن تعيش يومًا واحدًا دون أن تتصل به وتسـمع صوتـه.. عندما يقابلها يرى نظـرة الحب المجنونة في عينيها.. في وجهها الجميل المستدير يرى أشعار «نزار قباني» وأغاني كاظم السـاهر وروايـات عبير وأفلام الأبيض والأسـود الرومانسـية القديمة.. كل هذه الأشـياء لا يعرف عنها عماد شـيئًا، سـوى أن ندى تهيم بها عشقًا، وكانت تفرغ فيها كل مشاعرها الرومانسية المرهفة قبل أن تقابله، ليتحول كل هـذا له.. تجاهه هو وحده.. هو الملـك المتوَّج على عرش قصرها.. هو سـلطانها الآمر الناهي في وجدانهـا.. هو الأول والأخير.. هو كل شيء في حياتها.



من كان يتوقع أن يجد أحدًا يعشقه إلى هذا الحد؟ طوال سنوات عمره الواحدة والعشرين، لم يشعر عماد بأن أحدًا يهتم به، أو يحبه، مثلما فعلت ندى.. بل إنه لم يشعر قطُّ بالحب من قبلها.. لم ير عماد أمه لأنها تُوفِّيت بمرض خبيث وهو في الرابعة من عمره، ليتنقل بين المربيات في بيته تارة، وفي بيوت عمّاته تارة أخرى.. لا أحد ينكر أن والده المهندس المرموق صلاح لبيب قد اهتم بتعليمه وأدخله أفضل المدارس، وعندما اجتاز مدرسة IG بتفوق، أرسله إلى القاهرة ليلتحق بالجامعة الأمريكية.. لم يبخل عليه قط بمصاريف تعليمه، لكنَّه أيضًا كان حريصًا على منحه مصروف يده.. المال بلا حساب يفسد الأخلاق.. هذه العبارة يحفظها الأب عن ظهر قلب، ويرددها في كل مكان، ضاربًا المثل بطريقته في التعامل مع ابنه.. وعماد بدوره يعتبر علاقته بوالده هي علاقة التاجر والزبون.. أريد مالًا! كم ولماذا؟ يخبره فيعطيه ما يريده ناقصًا، أو لا يعطيه على الإطلاق.. هذه العلاقة تشكلت منذ كان عماد في المدرسة الابتدائية، تشرف عليه الدادة فوزية القادمة من صعيد مصر، بينما الأب منهمك في أعماله ومشاريعه الهندسية التي اتسعت وانتقلت من القاهرة إلى دبي.. ينطلق الأب في رحلات عمل دائمة من الإسكندرية إلى القاهرة، ومن القاهرة إلى دبي، مع متابعة شبه يومية لحالة ابنه ودرجاته وأدائه لواجباته المدرسية، يحصل عليها في اتصاله المسائي مع الدادة، أو أحد مدرسي عماد الخصوصيين ليتلقى «التقرير اليومي»، كما كان يحب أن يسميه.. وعادة ما

يترتب على هذا التقرير زيادة في المصروف، أو تخفيضه، عقابًا على خطأ ارتكبه.. تعوَّد عماد ملامح هذه العلاقة، وارتاح لها منذ الصغر، فلمَّا حاول والده أن يتدخل في شئونه الخاصة، عندما صار مراهقًا -وبالتالي صارت له أسراره الخاصة - لم يسمح له عماد قطُّ بذلك، وظل مُصرًّا على أن تمضي الأمور على ما هي عليه.. آسف يا والدي العزيز، أنت تريد تقريرًا يوميًّا منهم، ليس مني! اسألهم إذن!

لم يعرف عماد الحب والحنان إلا في أحضان المربّيات اللائي تعاملن معه كابنٍ لهن وأكثر.. طوال عمره أصدقاؤه قليلون، يُعدّون على أصابع اليد الواحدة، أقربهم محمود زميل دراسته في الإسكندرية.. معظم وقته يقضيه في بيته، يشاهد الأفلام الأجنبية على الفيديو -أو على التليفزيون بعد انتشار الفضائيات - أو يستمع إلى الأغاني الأجنبية الصاخبة .. إيمنيم هو رفيقه الدائم الذي لا يملّ الاستماع إلى موسيقاه، والإعجاب بكلمات أغانيه عظيمة المعنى!

لم يبدأ عماد الاستمتاع بحياته إلا عندما عرف ندى.. كانت حياته في الجامعة رتيبة عاديّة، بين الفصول والمحاضرات وواجبات الأساتذة والساعات الطويلة التي يقضيها وحده في الطابق الرابع من المكتبة.. حتَّى جاءت ندى.. أعجبه فيها أنها مختلفة.. لم تكن ترتدي الحجاب كأغلب الصديقات، وهو أكثر من لا يحب المحجبات.. يشعر أنها أكثر تحررًا وأكثر تقبلًا لأفكاره.. تضحك لعباراته وتشبيهاته وتستلذّ طريقته



المعتادة في استفزاز أصدقائه.. ظل يتعامل معها كزميلة مُسلّية يسمح لها بأن تشاركه أوقات المذاكرة الثقيلة، ويمكنه أن يجدها ليجلس معها إذا لم يتوافر صديقه المقرّب شادي.. وفجأة تغيّر كل شيء.. جاءت الفتاة إليه، وأعلنت أنها تحبه.. بهذه البساطة! بهذه الجرأة! كان يحس بمشاعرها الغريبة تجاهه من تطلعها الدائم إليه، ونظراتها الجريئة المصوّبة نحوه عندما تراه يتحدث مع غيرها، وسعادتها الغامرة عندما تجلس معه، وشعورها الواضح بالفخر -أو هو الغرور- عندما يسير إلى جوارها في الجامعة.. كل هذا لمسه وأحسّه، لكنّه لم يتخيّل قط أن يصارحه شخص آخر بالحب.. لكن ندى فعلتها، وتغيّر التاريخ منذ هذه اللحظة!

حب؟ ولم لا؟ قرر أن يخوض هذه التجربة الجديدة في حياته.. عماد لبيب سيحب يا رفاق.. اشهدوا أيها الزملاء.. تقولون عني إنني وحيد منطوٍ ليس لي من الأصدقاء إلا القليل.. حسنًا، أنا أفضل منكم جميعًا.. كلكم تقضون سنوات الجامعة بحثًا عن الحب والغرام، وأنا حبيبتي جاءت لي على طبق من فضة.. لا يمكنه أن يضيع هذه الفرصة.. أخيرًا ستنتهي وحدته الدائمة وبحثه الأبدي عن الحب والحنان.. لم يكن يحبها حينها، لكنّه كان يرتاح إليها.. وكانت هذه بداية مناسبة لعلاقة عاطفية مثيرة لفضول وأقاويل الآخرين.

عام كامل مضى، منذ بدأت أحداث القصة، فهل تغيّر شعوره تجاهها؟ نعم، لقد صارت أكثر قربًا منه.. كل أسرارها معه، يعرف كل تفاصيل

حياتها.. كل حسناتها، كل سيئاتها، كل أحلامها، كل ذكرياتها.. حكت له عن كل شيء في حياتها.. صار يستريح إليها أكثر ويصارحها أحيانًا – ليست كثيرة– بما يُقلقه وما يشغله – مع أنه يُصرّ على أن يعرف عنها كل شيء أولًا بأول – لا يزال يحتفظ بطبيعته الكتوم وطابع الغموض الذي يفرضه حول نفسه، لكن لا يُضرّه أن يشارك فتاته بعضًا من أسراره.. لم يصل معها إلى درجة الحب – كما يعتقد – بعد، لكنّه في الطريق إلى ذلك.. لا شك أنه يشتهيها جنسيًّا، فهي جميلة، وقوامها لا بأس به، وفي المرَّات القليلة التي احتواها في صدره، غمرته سعادة ونشوة بالغة.. يعرف أنها تهيم حبًّا بعبارات الغزل والأشعار والهدايا، وهو قد تعلَّم مع الوقت كيف يعطيها جرعة منها من حين لآخر، وأحيانًا يختلس منها قبلة على وجنتها رغمًا عنها.. منذ شهرين ابتاع لها كتابًا لأشعار «نزار قباني»؛ لأنه يعرف أنها تحبه، وأهداها إياه دون أن يُكلِّف نفسه أن يقرأ منه بيتًا واحدًا، فإذا بها تخبره أنه تجميع للقصائد السياسية الممنوعة لـ«نزار قباني».. اكتفى هو بابتسامة ساخرة، وتساءل: هل من يكتب في الحب «يبقى فيه حيل» ليكتب في السياسة؟!

أهم شيء أنه يستمتع جدًّا بعلاقته معها.. منذ عرفها وقد عرف الاستمتاع الحق بالحياة.. تنقَّل معها بين دور السينما المختلفة، وأفخر مطاعم القاهرة، وأشهر معالمها، وأجمل حدائقها.. صار يشعر بأهميته أكثر من أي وقت مضى.. تُسعده نظرات الحسد في عيون الزملاء، ناهيك عن

العيون التي تتابعهما دائمًا كلما جلسا منفردين.. يكفيه أن هناك فتاة في هذه الدنيا لا تنام قبل أن تطمئن عليه، ولا تطمئن قبل أن تتأكد من رضائه عنها.. هل هناك ما هو أجمل من أن تُوقن مائة في المائة بأن هناك شخصًا يعشقك حتَّى الموت؟ لو طلب منها حياتها ذاتها لوهبتها له عن طيب خاطر.. هل حقًّا ندى تحبه إلى هذه الدرجة؟

متى يحبها هو إذن؟!

■■■

عندما التقاها اليوم أمام منزلها، كانت مرتبكة.. أمسكته من يده ومضت به مبتعدة في خطوات سريعة إلى أقرب شارع جانبي، سألها عما تفعله، فقالت إنها لا تريد أن يراهما حسام.

- **حسام أخوك؟ وما المشكلة؟**
- **قابلته وأنا نازلة، وسألني عمن سأخرج معه فقلت إنني سأخرج مع صديقاتي.**
- **ولماذا لم تخبريه بالحقيقة؟**

ترددت ندى لحظات، ثم تذكرت أنها حدَّثت (عماد) من قبل عن علاقتها الشائكة بأخيها فقالت:

- **أنت عارف حسام.. قد يرفض خروجي معك وحدنا.. وقد يجدها فرصة مناسبة ليفرض تحكمه ويحولها إلى مشاجرة.. تصوَّر أنه**

اعترض على أن أخرج بهذه «البلوزة»!

وتوقّفت عن سيرها، وأشارت تجاه «البلوزة» الزرقاء التي ترتديها، وقد وجدتها فرصة سانحة لأن تعرف رأي فتاها فيها، فألقى عماد نظرة سريعة عليها، ولم يعلّق فسألته:

- **ألم تعجبك يا عماد؟**

عاد عماد يرمق «البلوزة» بإمعان هذه المرة، وقد لاحظ ضيقها الشديد ووصفها لتفاصيل صدرها، فابتسم وقال:

- **بالعكس جميلة جدًا.. لماذا لا ترتدين هذه البلوزات دائمًا؟**

ابتسمت ندى في حياء، وقد أرضتها نظرة الإعجاب في عينيه.. عادت تستأنف سيرها لتبتعد عن مرمى نظراته، وقالت:

- **تصوّر.. أول أمس عاد يتشاجر معي، ويقول إنه قد حان الوقت لأرتدي الحجاب.. لا أعرف من وضع في دماغه هذه الفكرة؟!**

لم يعلّق عماد، وظل يسير بجوارها في شوارع المعادي الهادئة، وقد تأبط ذراعها.. قررت ندى أن تصمت بدورها وتترك له فرصة المبادرة.. لا يبدو الحديث عن شقيقها موضوعًا شائقًا.. وبعد دقيقتين، سألها عماد أن تقترح مكانًا لخروجهما.. ظلا يتبادلان بعض الاقتراحات، بين تجربة كافيه جديد، ودخول السينما، أو الذهاب للتجوّل في وسط البلد.. كانت ندى دائمًا تفضل الجلوس معه في كافيه ليظلا يدردشان بالساعات.. أجمل

لحظات حياتها تمضيها وهي تُفرغ كل ما في داخلها على مسامع عماد.. في الأيام الأولى لعلاقتهما، لم يكن هناك الكثير ليتبادلاه، فكانا كثيرًا ما يذهبان للسينما أو للعشاء، أما الآن فقد صار لدى ندى عشرات الموضوعات المختلفة التي تريد أن تفتحها معه.. ماضيهما وحاضرهما ومستقبلهما، ملفات ضخمة لابد أن يناقشاها معًا!

لم يستقرّا على رأي، فظلا يسيران معًا، ومضيا إلى كورنيش النيل، وأمسك عماد بيدها ليتجاوزا معًا طريق السيارات السريع، قبل أن يقفا معًا أمام سور النيل، يرمقان الشمس الغاربة.. حدّثها عماد عن خططه للتجوال في أنحاء لبنان، خلال رحلته السياحية الشهر المقبل، وظلّت ندى صامتة، تستمتع إليه في إحباط، وهي تتساءل في قرارة نفسها كيف ستقضي ثمانية أيام بدونه!

بعد قليل، أعلنت ندى أنها جائعة.. اصطحبها عماد إلى مطعم للمأكولات البحرية، وجلسا معًا على مائدة صغيرة في الطرف البعيد يتصفحان قائمة الطعام الملونة الفاخرة، وظلا يتجادلان بشأن ما سيأكلانه.. أصرت ندى أن تطلب ما سيطلبه عماد، فابتسم الفتى وقد وجدها فرصة أخرى ليمارس عبثه الأبدي.. رفض أن يطلب قبل أن يسمع طلبها هي.. جاء لهما النادل ليأخذ طلباتهما، فسألها عماد متظاهرًا بجدية عما ستأكله، فارتبكت ندى وقالت للنادل بتهذيب أن ينتظر قليلًا!

هنا لاحظ عماد أن ندى تنظر باهتمام ممزوج بالجزع تجاه المائدة المواجهة

لها، فالتفت يرمق الشـاب الوسـيم والفتاة الجميلة المحجبة.. تسـاءل عماد بهدوء:

- **لماذا تنظرين إليهما؟ هل أخذك هذا الفتى مني بهذه البساطة؟**

تحشرجـت نـدى، وبـدت عاجزة عـن النطـق، ثـم التقطـت حقيبتها ونهضت واقفة، وقالت بصوت لاهث من فرط الانفعال:

- **دعنا ننصرف من هنا يا عماد..**

نهض في حيرة، ونقل نظراته بينها وبين المائدة المجاورة، ثم تساءل:

- **ما الأمر يا ندى؟**

امتقـع وجه نـدى عندمـا التقـت عيناها بعينـي الفتى، فشـهقت بقوة وأمسـكت (عـماد) من يـده، لتسـحبه معها، ليغـادرا المطعم عـلى عجل، متجاهلـة نظرات النـادل المندَهِشـة.. وأمام بـاب المطعم وقفت تسـتعيد أنفاسها وقالت:

- **كان هذا الفتى حسام.. أخي حسام!**

■■■



4

الثاني من يوليو.. أول يوم عمل بالسفارة الأمريكية!

استيقظتُ في السادسة صباحًا، أخذتُ دُشًّا باردًا وحلقت ذقني قبل أن أصلِّي الصبح، وأرتدي قميصًا وبنطلونًا والحذاء الأسود اللامع.. كنت متشوِّقًا جدًّا لبدء العمل، لكنني لم أشعر بالراحة في الزي الرسمي الذي لم أعتده أبدًا، ولعنت الروتين الذي يُحتِّم أن يرتدي الموظفون ملابس رسمية، بينما العمل بالتيشيرت والجينز أكثر راحة مائة مرة!

تركتُ صديقي عمر نائمًا في الشقة، ونزلت للشارع، مُقررًا ألا أذهب للعمل بالسيارة.. إنه اليوم الأول، ولا أريد أن أضيع وقتي في البحث عن مكان مناسب للركن.. سرتُ إلى محطة المترو، استقللت المترو وسط الزحام، وظللت واقفًا نحو ربع الساعة، حتَّى نزلت في محطة السادات.. وفي الثامنة إلا عشر دقائق، كنت أمام المدخل الخلفي للسفارة الأمريكية.

في غرفة الاجتماعات بالقسم التجاري، التقيت بزملاء العمل للمرة الأولى.. كان ثمة شاب وفتاة تم تعيينهما معي في فترة التدريب، أما الشاب

فاسمه أسامة جلال، وهو حديث التخرج مثلي، لكن من الجامعة الألمانية، كان متأنقًا كنجوم السينما، يرتدي بذلة كاملة، وتسبح خصلات شعره في «الجيل»، والفتاة اسمها داليا واصف، شعرها مبعثر على كتفيها، وترتدي ثوبًا يصل إلى ما تحت ركبتيها، وقالت إنها خريجة قسم التسويق بالجامعة الأمريكية، وعملت من قبل عامين في إحدى شركات الإعلانات.. لم أتبادل حديثًا طويلًا معهما، وشعرت أنهما قد انسجما سريعًا معًا، وانهمكا في حديث تعارف طويل.. لم تكن داليا جميلة، أو ربما هي جميلة، لكن ليست من الطراز الذي يروق لي.. كانت طويلة، ممتلئة قليلًا، وأنا أفضل دائمًا النحيلات.. النحيلات يناسبنني أكثر!

راح أسامة يمزح كثيرًا، وفكَّرت أنه يناسب داليا كثيرًا، وأنهما قد يكونان زوجين مثاليين، خاصة بعد أن خمَّنت أنَّه أيضًا قبطي مثل داليا.. ألم تلاحظ معي ذلك الصليب الذهبي الذي يتدلى من سلسلة حول عنق داليا؟ لم أجد صليبًا مميزًا على يد أسامة، لكن الأمر يبدو واضحًا.. أنا أجيد تمييز الأقباط.. أليس اسمه بالكامل أسامة مجدي سمير جلال؟

بعد قليل، جاء باهي وجلس معنا يتحدث قليلًا عن وظيفتنا.. قال إننا في فترة تدريب، مدتها ثلاثة أشهر، بعدها يتم تعييننا بصفة رسمية.. مهمتنا التسويق لبرنامج تجاري أمريكي، يهدف لإشراك الشركات المصرية في برامج تعاون تجاري، مع شركات أمريكية مهتمة بالاستثمار في مصر.. ثم أضاف وهو ينظر في عيني أنا بالذات:



- **طبعًا المستفيد رقم واحد، هو الشركات المصرية.. نحن نمنحها فرصة ذهبية للتعاون مع شركات أمريكية متميِّزة، تسعى للعمل في مصر.. لا بد أن تقتنعوا بذلك تمامًا، حتَّى تستطيعوا إقناع أي عميل به.**

وبدأ يشرح لنا الكثير عن مهامنا الأولية، قبل أن تدخل مسز بيث الغرفة، ويتحوَّل الحديث إلى الإنجليزية.. لا أعرف ما هي وظيفتها بالضبط، لكنها تلي القنصل التجاري مباشرة في ترتيب الوظائف في القسم.. كانت نحيلة سمراء، ممن نسمِّيهم الأمريكان الأفارقة، وتتكلم بلهجتهم المميزة التي نراها في الأفلام الأمريكية.. رحَّبت بنا بحماس، وتمنَّت أن يعجبنا العمل في السفارة، ثم طلبت من مستر باهي أن «يُنهي باقي الإجراءات»، وتركتنا ومضت إلى مكتبها، بجوار غرفة القنصل.

اصطحبنا باهي في جولة سريعة داخل السفارة .. مضينا إلى مبنى كايرو 1، طلب منا باهي أن نُجري مقابلة أخرى سريعة لدواعٍ أمنية! تعرَّضت لبعض الأسئلة السريعة عن أسرتي ووظائف أقاربي على يد موظف مصري، راح يُسجِّل إجاباتي بدقة!

بعد قليل، اصطحبنا باهي من جديد إلى كايرو2، لاستخراج بطاقات الهُويَّة الخاصة بالعاملين في السفارة، ووقفنا أمام الموظفات الأمريكيات، يلتقطن لنا صورًا رقمية بكاميرا صغيرة، وفى لحظات، كان لدى كل واحد منا بطاقة حمراء صغيرة، تحمل رموزًا بحروف لاتينية، واسمه وصورته.. وقال لنا باهي إن هذه البطاقة تتيح لنا التجوال بحرية داخل السفارة،

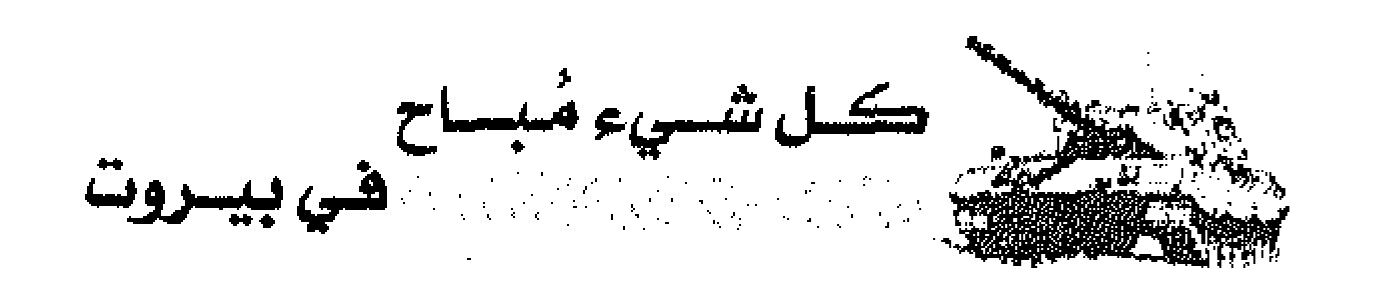
لكنها لن تسمح لنا باصطحاب أي أجهزة معنا إلى داخل السفارة، حتَّى يتم تعييننا بصفة رسمية.. حتَّى الموبايل، يجب أن نتركه في مكتب الأمن!

مضى اليوم الأول في العمل سريعًا، استلمت فيه مكتبي الصغير في غرفة تجمعني مع أسامة، وعلَّمنا فيه باهي بسرعة كيفية الدخول على برامج الكمبيوتر الخاصة بتسجيل البيانات في السفارة، وأعطى لكل منا بيانات حساب بريد إلكتروني خاص به على موقع وزارة التجارة الأمريكية.. بدا كل شيء مثيرًا، وكنت مشغوفًا بأن أبدأ بنفسي جولتي الخاصة في السفارة، وحيدًا، لأتعرَّف إلى طبيعة هذه البيئة الأمريكية في قلب القاهرة.

عند مدخل السفارة، استلمتُ موبايلي وصافحت أسامة وداليا مُودِّعًا.. تباطأتُ حتَّى أترك لهما الفرصة كي يسبقاني خارجين من مبنى السفارة، ثم مضيت في حال سبيلي..

أجريتُ اتصالًا بصديقي عماد، فأخبرني أنه يُنهي أمرًا مُهمًّا وسوف يتصل بي لاحقًا، فقررت الذهاب إلى مسكن الطلبة بالزمالك، لأجلس مع بعض الأصدقاء الذين يدرسون مواد صيفية في الجامعة.. استقللت «تاكسيًّا» من شارع قصر العيني إلى الزمالك.

في ردهة المسكن، كان أغلب الجالسين من الأجانب يتابعون نشرة أخبار الجزيرة على شاشة التليفزيون.. التقرير الإخباري يتحدث عن تصاعد الهجوم الإسرائيلي على قطاع غزَّة، وسط مطالبات دولية بأن تفرج حركة حماس عن الجندي الإسرائيلي الذي أَسَرته.. لا جديد، نفس



سيناريو الاعتداءات الإسرائيلية على الأراضي المحتلة.. السيناريو الذي أحياه منذ جئت إلى هذه الدنيا..

جاء صديقي الأمريكي جونا، وجلس جواري.. صافحته بغير حرارة، وأنا مشغول بمتابعة الأخبار.. لم تكن علاقتي بجونا قوية، عرفته قبل أربعة أشهر، في آخر فصل دراسي في الجامعة.. كان جونا أمريكيًّا يهوديًّا، أتى لدراسة اللغة العربية في الجامعة الأمريكية.. ما جذبني إليه خفةُ دمه وحماسه الشديد لتجربة أي شيء في مصر، كان اجتماعيًّا جدًّا، يصاحب الطلبة المصريين ويخرج معهم ويحاول أن يحادثهم دائمًا بالعامية المصرية، بل ويرفض أن نناديه باسم «جونا» ويفضِّل أن نسميه «يونس»!

قال مُعلِّقًا على ما نشاهده - بألفاظ أمريكية بذيئة كعادته:

- **نفس الحرب اللعينة كل يوم!**

رددت بهدوء محاولًا استفزازه:

- **أشقاؤك اليهود في إسرائيل هم من يشعلونها دائمًا.**

ابتسم ولم يُعلِّق.. أفهم جيدًا أنه يحاول تجنُّب هذه المجادلات السياسية دائمًا، خاصة أنه لا يعتبر نفسه يهوديًّا مُخلصًا.. هو أصلًا مُلحد لا يؤمن بأي شيء، لكنَّ والديه يهوديان مُتحمِّسان، اصطحباه مرتين لزيارة إسرائيل - كما حكى لي- قال محاولًا تغيير دفة الحديث:

- **تبدو متأنقًا اليوم.. لماذا ترتدي زيًا رسميًّا؟**



- **بـدأت اليـوم عملي في سـفارتكم بالقاهرة.. تخيَّـل؟ أنا موظف في السفارة الأمريكية؟!**

- **حقًّا! مبروك.. هل يروق لك العمل هناك؟**

- **إنـه اليوم الأول فحسـب.. لا أسـتطيع الحكم بعـد، وإن كان الأمر مثيرًا حقًّا.. المشـكلة أنني لم أتخيل أن أغلب من تعاملت معهم اليوم من المصريين وليس الأمريكيين كما كنت أتصوَّر.. الأمر أقرب إلى السفارة المصرية في واشنطن، منه إلى السفارة الأمريكية بالقاهرة!**

كانت الجزيرة قد انتقلت لتصريحات وزير الخارجية المصري عن جهود مصريـة مُكثَّفـة، لإقناع حماس بتسـوية ملـف الجندى الإسرائيلي الأسـير لديها.. سألني جونا وعيناه الخضراوان تلمعان بنظرة اهتمام:

- **وما الذي تفعله في السفارة؟**

- **أعمل في القسم التجاري.. الأمر ليس واضحًا تمامًا بعد، لكن يبدو أننا سنسوِّق برنامجًا تجاريًا بين الشركات المصرية والأمريكية.. يا للمهزلة!**

نظر لي مُندهشًا لحظة، ثم علَّق مبتسمًا:

- **هـل قبلـوك للعمـل في سـفارتنا وأنـت مازلـت متمسـكًا بمقاطعة المنتجات الأمريكية؟**

همـمت بالاعتراف له بما قلته خلال المقابلة الشـخصية، لكنني خجلت



مـن نفـسي، أن أبدو منافقًا أمام أجنبي مثله.. هربـت من جوابه بالنظر إلى ساعتي قائلًا:

- **معـذرة يا يونس.. أنا مضـطر للصـعود لرؤية بعض الأصـدقاء.. سأمرُ عليك لاحقًا.. هل ستكون في غرفتك؟**

أجاب وهو يشـعل سـيجارة مارلبورو - كان كعادة الطلبة الأمريكان يُفرطون في التدخين لأن السجائر أرخص كثيرًا في مصر:

- **إما هنا وإما في غرفتي.. أشتاق لألاعبك دورًا جديدًا في الشطرنج.**

قلت له مداعبًا وأنا أنهض:

- **لكي أغلبك مجددًا؟**

ودَّعتـه، واتجهت عبر الردهة إلى المصعـد.. غالبًا لن أمرَّ عليه؛ لأنني لم أعـد أميل كثـيرًا إليه.. عندما تعرَّفت إليه للمـرة الأولى، أعجبت بتلقائيته وخفة ظله، لكن شـعوري تجاهه تغيَّر تمامًا عندما عرفت من أصدقائي أنه يهودي.. تساءلت يومها لماذا لم يُخبرني؟ لِمَ أخفى عني أمرًا كهذا؟ مع الوقت أدركت أنني كنت مخطئًا.. أحيانا أنسـى كلامي المنمَّق عن العنصرية، وأن قضيَّتنا مع الإسرائيليين وليس اليهود، وأجد نفسي أشـعر بالنفور من كل اليهود، وأعتبرهـم مسئولين عن كل جرائم الصهاينة.

في الطابق السـادس، ذهبـت لغرفة عصام، وطرقت الباب.. سـمعت صوت عصام يسـأل عمن هناك، فأجبتـه.. بعد لحظات فتح الباب، الذى

كان مُغلقًا بالمفتاح على غير العادة.. عندما دخلت فهمت على الفور.. جلسة حشيش هي إذن.. كان عصام وثلاثة آخرون من أصدقائنا، مصطفين حول منضدة صغيرة، يلعبون بأوراق اللعب، وقد غرقت الغرفة في الدخان، وتفوح فيها رائحة الحشيش.. أغلق عصام الباب بالمفتاح خلفي وصاح:

- **أهلا بالعميل الأمريكاني!**

نظرت له مندهشًا وقلت:

- **هل عرفتم؟**

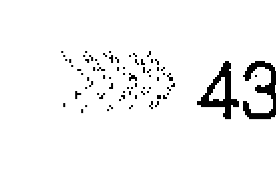
صافحتُ الأصدقاء وقبَّلتهم على وجناتهم، وانضممت إليهم حول المنضدة، وأخرج جمال كوبًا مُغطى بورقة، كان يُخفيه خلف ظهره، رأيت السيجارة مُعلَّقة داخل الكوب، وقطعة الحشيش الصغيرة في منتصفه.. سألت وأنا أشير إلى جهاز استشعار الحريق المُعلَّق في السقف:

- **ماذا عن...؟**

أشار عصام نحو كيس شفاف بلاستيكي، ملفوف حول الجهاز الصغير قائلًا:

- **عيب عليك يا شادي.**

ثم رفع الغطاء الورقي عن فُوَّهة الكوب، واستنشق نَفَسًا عميقًا من الدخان.. ناولني الكوب لأفعل مثله، فاعتذرت..



- **لَمْ أجرِّب الشيشة بعد حتَّى أجرِّب الحشيش!**
- **أنت حر.**

وناول الكوب لسامح.. قال لي محمد:

- **سمعنا أنك عملت في السفارة الأمريكية.. هل نسيت ثرثرتك عن الأمريكان ومقاطعتهم بهذه السرعة بعد التخرُّج؟**

شعرت بالضيق، وقلت محاولًا أن أهرب من سؤاله:

- **هل تلعبون استميشن؟**

تجاهلوا الرد على سؤالي، وقال عصام:

- **الدولارات تُبيح المحظورات.. أليس كذلك؟ كم ستأخذ في الليلة؟**

لم أشعر بأدنى رغبة في الحديث معهم عن العمل، فنهضت مُعلنًا أنني جئت فقط كي ألقي السلام، وأنني لا أطيق رائحة الدخان.. قال عصام:

- **يبدو أنك تضايقت.**
- **لا لا.. لماذا أتضايق؟**

وصافحتهم سريعًا، ثم تركتهم وغادرت الغرفة، بينما قام عصام يغلق الباب خلفي بالمفتاح.. كنت قد مللت كل شيء، وقررت العودة إلى المنزل، حين اتصل بي عماد.. مرحى يا صديقي! سنتقابل أخيرًا!

■■■

لا أعرف بالضبط ما الذي يجعلني صديقًا لعماد.. لا يوجد شيء واحد مشترك بيننا.. ربما كانت شخصيته الغامضة وانطواؤه عن الآخرين من الأسباب التي دفعتني للاقتراب منه.. فضول قوي يقتلني كلما رأيت شخصًا يحيط نفسه بهالة من الغموض.. الرغبة العارمة في أن أعرف عنه ما لا يعرفه الآخرون.. كان يصدُّ محاولاتي الفضولية للتودد إليه في البداية، ثم سمح لي – بحذر– أن أدخل عالمه، ورويدًا رويدًا صرنا صديقين.. ربما كنت صديقه الوحيد في الجامعة، إذا استثنينا طبعًا ندى التي لا تفارقه.. كانت آراؤه الليبرالية كثيرًا ما تستفزُّني، لأخوض معه مناقشات حامية، لكن – أعترف– أعجبني فيه أنه مختلف.. الكل يلعن الإسرائيليين، أما عماد فيعلن بصراحة أنه مع إسرائيل، ومع حق اليهود في دولتهم.. لا يمكنك أن تقابل عربيًّا يجاهر برأي كهذا بسهولة! إذا ما تجاهلنا اختلافك مع آراء عماد، فهو صديق طيِّب «جدع» يستحق حبك بلا شك.

في كافيه بالمهندسين، كان عماد جالسًا وحيدًا أمام جهاز اللاب توب، في ركن بعيد عن الضوضاء وصخب المكان.. سألته وأنا أسحب مقعدًا لأجلس جواره:

- **ما أخبارك؟**

رد باقتضاب:

- **تمام.**



ألقيت نظرة على شاشة اللاب توب، فوجدته مشغولًا بالدردشة مع ندى عبر الماسنجر..

- **ألم تكن معها منذ قليل يا بُني؟**

ابتسم وأجاب وهو يكتب لها شيئًا:

- **أوحشتني.**

ملت لأرى ما يكتبه، فرمقني بنظرة غاضبة، وحرَّك اللاب توب كي لا أرى شاشته.. عدت أسأله محاولًا أن أبدأ معه حديثًا:

- **ماذا فعلتما اليوم؟**
- **عادي.. تجولنا قليلا في مول الهيلتون، ثم دخلنا السينما.. شاهدنا «عمارة يعقوبيان».**

قالها وساد الصمت، وانهمك بكتابة شيء ما، وشبح ابتسامة يتلاعب على شفتيه، ضايقني تجاهله إياي، فقمت إلى مكتبة الكافيه، وأخذت الصحف.. جلست أتصفَّحها باهتمام، متتبعًا تطورات العدوان الإسرائيلي على غزة.. كنت قد قرأت أغلب الصحف في الصباح على الإنترنت، ولم أجد شيئًا جديدًا .. شعرت بكآبة مفاجئة، جعلتني أفكِّر جدِّيًّا في ترك المكان.. قررت أن أحاول أن أبدأ معه حوارًا:

- **بدأتُ عملي اليوم في السفارة.. السفارة الأمريكية.**

قلت «السفارة الأمريكية» بالإنجليزية، بلهجة امتزجت فيها السخرية بالمرارة.. سألني عماد وقد قرر أن يُعطيني بعض الاهتمام:

- **كيف كان اليوم الأول؟**
- **جيدًا.. أقنعت نفسي أخيرًا بأنها فرصة ذهبية ولا ينبغي أن أضيعها..**

ابتسم ونظر لي ساخرًا، وهو يقول:

- **بعت مبادئك؟**

ضحكت وقلت:

- **ليس لهذه الدرجة!**

قال وقد تذكَّر شيئًا:

- **وأنا أخذت تصريح الجيش اليوم، وصار بوسعي أن أطير إلى بيروت وقتما أشاء..**
- **مبروك.. متى ستسافر؟**
- **لا أعرف.. سأرتِّب مع صديقي..**
- **أي صديق؟**
- **واحد من الإسكندرية.. أنت لا تعرفه!**

كنت أعرف جيدًا أنه لن يخبرني على سبيل الغموض كعادته.. ساد الصمت لحظات، وهو مشغول بالكتابة على اللاب توب، قبل أن يتعالى الصوت المميز لإغلاق الويندوز، ويغلق عماد اللاب توب.. تطلَّع إلى السقف كما يفعل كلما أراد أن يصارحني بشيء مهم.. قال لي:



- **في الحقيقة لم أقابل ندى اليوم.**

صمَتُّ وانتظرت أن يواصل حديثه، خوفًا أن أسأله فيهرب من أسئلتي، ويتجاهل إجابتها كالعادة.. طال صمتنا حتَّى استطرد:

- **رآها شقيقها معي المرة السابقة، وتشاجر معها في البيت.. قال لها إنها كذبت عليه، وقالت له إنها ستخرج مع صديقاتها، بينما هي ذاهبة للقاء «عشيقها».. !**

- **ومن «عشيقها»؟ أنت؟**

لم يبد أنه لاحظ نبرة التهكم في سؤالي، وهو يستطرد كأنه يفرغ ما لديه بسرعة، قبل أن تعاوده رغبته الدائمة في الغموض:

- **هذا الأحمق نفسه «مصاحب» فتاة في جامعته، ويخرج معها، ولقد رأيناه معها عندما رأى ندى معي.. لا أعرف كيف يكون لندى أخ رجعي كهذا.. المشكلة أن والدها يؤيده على طول الخط!**

- **وماذا ستفعل؟**

- **لقد اتفقت مع ندى على كل شيء.**

تطلَّعت إلى عينيه محاولًا استشفاف ما يفكر فيه، وقلت:

- **كل شيء؟ هل تقصد الورقة والمأذون وما إلى ذلك؟ هل تريدني أن أكون شاهدًا على زواج عرفي؟**

هنا واجهني بعينيه، وقال بلهجة حاسمة:

- **الأمر أسهل من ذلك.. سأتقدم لخطبتها!**

5

بعينين لا تتابعان، جلس عماد يشاهد مباراة كرة القدم في مقهى أنيق في حي سموحة بالإسكندرية.. لا يهمه كثيرًا أنها نهائي كأس العالم بين إيطاليا وفرنسا.. لا يهمه أن يلعب زين الدين زيدان، ولا أهمية لأن تأخذ فرنسا الكأس للمرة الثانية في تاريخها.. فقط أراد أن يخرج من بيته، ولم يجد سوى صديقه الأبدي محمود، الذي كان ذاهبًا لمشاهدة المباراة.

على الشاشة الكبيرة يحرز زيدان هدف فرنسا الأول، فينهض الكل مصفقًا وهاتفًا.. وحده عماد يبقى جالسًا في مكانه يراقب ما يحدث.. هل جن هؤلاء؟ ما شأننا نحن بفرنسا؟ لم يحب أبدًا مشاهدة مباريات كرة القدم، اللهم إلا مباريات كأس الأمم الإفريقية الأخيرة التي أقيمت في مصر، ووجد نفسه مضطرًّا لمتابعة مباريات مصر؛ لأنَّه لن يكون الوحيد الذي يتجاهلها!

غدًا يسافر إلى بيروت.. الرحلة السياحية التي وعده بها والده إذا اجتاز كل امتحاناته بنجاح.. يسافر تاركًا ملفات عديدة مُعلَّقة، لا شك أن أهمها ملف ندى.. لماذا لم يُحدِّث والده حتَّى الآن عن موضوع خطبتها، وهو قد وعدها بذلك؟




الأسباب عديدة.. أهمها أن علاقته بوالده ليست على ما يرام هذه الأيام.. يريده أن يذهب ليقضي باقي الصيف في دبي ليتدرب على العمل في شركته.. ما شأنه هو بالهندسة؟ لقد درس الاقتصاد في الجامعة، ولا يعرف شيئًا عن قوانين الفيزياء ولا لوغاريتمات الرياضيات.. يقول ذلك لوالده فيرد بحزم: «اسمع يا عماد.. لقد تركتك تدرس ما تشاء - الزفت كما يسمى الاقتصاد - لكنك لن تعمل إلا فيما أشاء».. يصارحه عماد برغبته في أن يشق طريقه بنفسه، فيثور الأب ويقول إنه لم يصرف عليه «دم قلبه» في تعليمه، كي يتركه يعمل بألف أو ألفي جنيه في شركات غيره.. «ستعمل معي وستدير شركتي.. هل تريد للغريب أن يرثها؟».. يحاول عماد أن يتهرَّب منه، فيقول له إنه لم ينته من دراسته بعد، وإنه سيتخرَّج العام المقبل، فيقول الأب في حكمة إن التدريب اليوم سيعينه على أن يبدأ العمل الجاد عندما يتخرَّج بإذن الله!

هذه المعارك كثيرًا ما يخوضها مع والده، خاصَّةً منذ انتهى من امتحاناته وعاد إلى الإسكندرية ليبدأ إجازة الصيف.. عندما طلب من والده أن يُنفِّذ وعده ويوافق على سفره للسياحة في إحدى الدول، منحه الأب الموافقة بهدوء وألمح للسفر إلى دبي للسياحة والعمل معًا.. هنا صارت دبي آخر مدينة يفكر فيها عماد، وأصر على بيروت بناء على رغبه محمود الذي تحمَّس للسفر معه.. بيروت يعني بيروت.. لا بديل! دعنا نفكر في أمر دبي عندما أعود.

تُـرى، هـل كان هـذا هـو السـبب الوحيد في رفضـه مناقشـة والده في أمـر الخطبـة؟ لا، بالطبع.. لا يزال عماد نفسـه مترددًا في اتخـاذ هذا القرار الخطـير.. يخطب نـدى؟ نعم، هي فتاته الآن والمفـترض أنه يحبها كما تحبه، والنهايـة الطبيعية لعلاقتهما هي الزواج.. هو لا يلهو بها، ولا يريد منها ما يريده الفتيان من الفتيات في العلاقات العابثة.. لكن هل يصل الأمر بهذه السـهولة إلى الخطبة والارتباط ومـا بعدهما من تجهيزات وترتيبات وحفل زفاف وزواج وأولاد و.. و.. ؟ هل كبر بهذه السرعة؟

في المقهـى، يفيـق عماد مـن خواطره عـلى صيحات من حولـه.. هدف لإيطاليا! نهض الكل من حوله وتداخلت صيحاتهم قبل أن تتعالى تنهدات الارتياح.. تسـلل! لم يحتسـبه الحكم هدفًا.. لماذا يشـجع الكل فرنسا؟ كم النتيجة الآن؟ ألا تزال واحدًا / واحدًا؟

مـن كان صاحـب قرار الخطبة؟ هـو أم هي؟ نعـم، صحيح أنه عرض عليها الأمر بحذر، حينما جلسـت أمامه تحكي له ما فعله بها شقيقها.. «لا يهمني أنك خرجت مع هذا الفتى، لكن لأنك كذبت عليَّ».. هكذا قال لها حسـام وهو يصيح غاضبًا ويحاول أن يمسكها من ذراعها ليضربها، وأمها تحـول بينها وبينه.. حكت لـه ندى ما حدث بـكل التفاصيل، وقالت إنها أخبرت حسام أنها تحبه، فازداد حسام غضبًا، وراح يصرخ بأعلى صوته أن «هذا الصايع» يضحك عليها ويتسـلى بها.. وقتها وجد عماد نفسه يعرض عليها بهدوء أن يتقدَّم رسـميًّا لخطبتها.. حينما رأى نظرة الفرحة في عينيها



ووجدها ترتمي في حضنه، أدرك المأزق الذي وضع نفسه فيه.. خطبة؟ الآن؟ وهو لا يزال طالبًا؟ ماذا يقول لوالده؟

ينتهي الوقت الأصلي للمباراة، ويتأهب الكل للشوط الإضافي.. يصارح عماد صديقه أنه ملَّ من القعدة، وأن عليهما أن يقوما ليتمشيا قليلًا.. ينظر له محمود مندهشًا، ويقول: «يا بني هل من عاقل يترك مباراة كهذه ويذهب ليتمشَّى؟! انتظر قليلًا.. زيدان هيخرب بيت أبيهم».. فيطلب عماد كوب عصير برتقال آخر، ويعود ليتظاهر بمتابعة المباراة ورؤية زيدان وهو يخرب بيت أبيهم!

في ذهنه يكتمل مخطط بسيط.. لا بد من ورقة يستخدمها للضغط على والده، لقبول أمر الخطبة.. سيعقد معه صفقة عادلة.. تريدني أن أذهب لأرى ما يفعله مهندسوك في دبي؟ حسنًا، سأفعل.. لكن قبلها ستكون قد أتيت معي إلى بيت ندى وخطبتها من والدها.. هل سيقبل والده المساومة؟ هو يعرف والده جيدًا، ويدرك أنه رجل خبَرَ الحياة جيدًا ويتعامل مع كل ما في حياته باعتباره صفقة بيزنس، إما أن يربحها وإما أن يخسرها.. لا حل وسط.. هل يتعامل أيضًا مع مستقبل ابنه الوحيد باعتباره مجرد صفقة أخرى؟

في هذه اللحظة، استقبل «موبايله» رسالة من «ندى».. بحروف إنجليزية كبيرة، كتبت له: «أعلم أنك تتابع المباراة، لكن هل يمكنك أن تنظر إلى القمر للحظاتٍ.. أنا أنظر إليه الآن»!

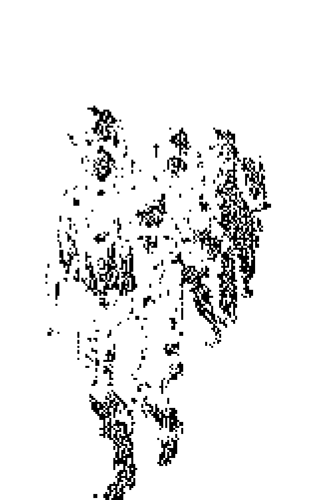
ابتســم وتنهَّد في عمق.. هو يحب هذه الفتاة بلا شـك.. رقيقة وناعمة ودافئة.. تريد فتى مرهف الحس مثلها، يشاركها رومانسيتها هذه، صحيح أنـه ليس هـذا الفتى، لكنَّـه سـيحاول.. مال برأسـه محاولًا رصد السـماء والبحث عن القمر، فلم ير شيئًا.. عمارات سموحة الشاهقة تلتهم أغلب السماء.. لم يملك إلا أن يرسل لها وجهًا مبتسمًا ردًّا على رسالتها!

لا يـزال محمود جالسًـا، يتابع المبـاراة بحماس شـديد.. من حين لآخر يتمايل أو يقف هاتفًا، أو يسـبُّ محتجًّا على هجمة ضائعة.. راح عماد يتسلَّى بمراقبة وجوه الجالسين على المقهى، ويستنشق رائحة الشيشة بالتفاح التي تفوح في المكان.. فجأة ارتج المقهى بالصياح والضجيج، فنظر للتليفزيون يتابـع إعادة لقطة من المباراة.. كان زين الدين زيدان يدفع رأسـه في صدر لاعـب إيطاليـا بعنف، فيسـقط اللاعب ويُخـرج الحَكَم البطاقـة الحمراء! كارت أحمر لزيدان! طرد لزيدان؟

تعكَّر الجو في المقهى، والكلُّ يسُبُّ ويلعن زيدان، أو يستنكر ما فعله.. لِمَ يفعل هذا في مباراة مهمَّة كهذه؟ انتفض محمود سبًّا ولعنًا، وضرب كفًّا بكف وصاح:

- **لا حول ولا قوة إلا بالله! الرجل ضيَّع تاريخه كله في آخر مبارياته.. لِمَ فعل ذلك؟**

فيصيح صائح:



- **هكذا العرب.. يُسيئون لنا في كل مكان! هذا من كنا نتباهى به أمام العالم!**

ويرد محمود متعصبًا:

- **بالتأكيد هناك سبب ما.. من الواضح أن ماتيرازي قال له شيئًا كريهًا! زيدان لن يفعل ذلك دون سبب.. انظر للإعادة.. اللاعب الإيطالي قال له شيئًا..**

شعر عماد بالضيق من هذا الجو، وقرر أن يترك المقهى.. مال على أذن محمود وقال له إنه راحل.. نظر له محمود مندهشًا وقال له أن يبقى.. لكنَّ عماد أصرَّ، فهزَّ صديقه رأسه مستسلمًا وعاد يتابع المباراة.. يبدو أنه تضايق.. لا مشكلة.. أخرج عماد بضعة جنيهات من محفظته، لم يحصها، وتركها أمام محمود ليدفع الحساب، وسار مغادرًا المقهى.. وضع سماعتي مشغل الأغاني iPod على أذنيه ومضى في شوارع سموحة.. ظل سائرًا شاردًا حتَّى وصل إلى الكورنيش.. سار على الكورنيش يرمق المقاهي المكتظة بالناس من بعيد.. يبدو أن ضربات الجزاء تُلعب الآن.. الصيحات تتعالى مع كل ضربة.. بعد قليل أحس باهتزاز موبايله، كان رقم محمود يتلاعب على شاشته.. تجاهل الردَّ وظل يفكِّر.. اتصلت به ندى أيضًا فلم يردَّ.. ظلَّ يستمع إلى صرخات إيمنيم الصاخبة في أذنيه، التي تحجبه تمامًا عن الشوارع المزدحمة من حوله، وكلاكسات السيارات التي تنطلق احتفالًا بفوز إيطاليا بكأس العالم، وواصل السير على الكورنيش وسط زحام

المصطافين رامقًا السماء المظلمة والبحر الهادر بالأمواج.. كان -كأغلب الإسكندرانيين- يشعر بالغيظ من هؤلاء الغُرباء الذين يغزون مدينته الجميلة في الصيف، ويملئون الطرقات ليلًا، إلا أن إيمنيم كان قادرًا على عزله تمامًا عمن حوله.

عندما وصل عماد إلى بيته، في الواحدة صباحًا، كان والده جالسًا يشاهد التليفزيون، متنقلًا بين محطات الأخبار.. هذه هي عادته اليومية التي سئمها عماد منذ زمن.. ما الذي يهمُّ والده الذي تجاوز الستين من أخبار العالم؟ ما الذي يُفيده إذا علم أن الرئيس الفلاني التقى بالرئيس العلاني، أو أن زلزالًا ضرب إيران، أو أن إرهابيًّا فجَّر نفسه في بغداد؟ جلس قليلًا مع والده دون أن يتبادل معه حرفًا واحدًا، حتَّى قال له الأب إن الثلاجة بها طعام له، فردَّ كاذبًا أنَّه تناول عشاءه بالخارج، ثم نهض إلى غرفته واستبدل بملابسه ملابس النوم التي يُحبُّها.. تيشيرت بلا أكمام وشورت قصير.. سمع جوَّاله يرنُّ من جديد، وعرف من الرنة المميزة أنها ندى.. لم يردَّ أيضًا..

وقف أمام المرآة يتأمل وجهه، وفكَّر كأنَّه يخاطب نفسه - وهي عادته كلما أراد الحديث مع ذاته- هل أنت حقًّا خائف إلى هذا الحد من والدك؟ خائف أن تطلب منه طلبًا؟ لا، إنه ليس طلبًا.. إنها حياتك وأنت من تقرِّرها.. تريد أن تخطب ندى فلتخطبها.. هذا قرارك وحدك وليس من حق أحد آخر أن يشاركك فيه.. فليكن رأي الأب استشاريًّا فحسب.. لا يضيف شيئًا ولا ينقصه.. نسي فجأة حيرته السابقة، إذا كان حقًّا يريد أن يرتبط بندى إلى الأبد، وصارت مشكلته أن يطرح الأمر أمام والده.. نعم فليفعلها!



خرج من غرفته، فوجد والده يُغلق التليفزيون مستعدًّا للنوم.. لمَّا رآه قال له وهو يتجه لغرفة نومه:

- **عماد، لقد تركت لك ألف دولار لرحلة لبنان على مكتبك في ظَرف.. هل أخذتها؟**

هزَّ عماد رأسه إيجابًا، رغم أنَّه لم يلاحظ شيئًا على مكتبه.. فيما بعد سيأخذها.. المهم الآن أن ينفض عنه تردده، ويكون جريئًا.. بلهجة حاول أن يجعلها حازمة قوية قال:

- **بابا.. أريد أن أحدِّثك في موضوع مهمٍّ.**

التفت إليه والده، وتطلَّع له مليًّا كأنَّه لم يسمع العبارة جيدًا.. ابتسم بسخرية، وقال:

- **موضوع مهمٌّ؟ الآن؟**

كان قد بدأ، ولا مجال للتردد الآن.. لا مفرَّ من المواصلة.. اقترب منه وقال:

- **نعم، الآن.. لقد اتخذتُ قرارًا وقررت أن أخبرك إيَّاه.**

صمت الأب وراح يتطلع له بنفس الابتسامة المستفزَّة، وهو لا يصدِّق ما يسمعه.. عماد يريده في موضوع مهمٍّ، بل واتخذ قرارًا أيضًا!

- **خيرًا إن شاء الله؟**

هرب عماد بعينيه من نظرات الأب، وتطلع للسقف قائلًا:

- **أنا أحب زميلة لي في الجامعة وقررت أن أخطبها!**

6

فَقَد العمل في السفارة إثارته في الأيام التالية..

أستيقظ كل يوم في السادسة صباحًا.. القميص والبنطلون والحذاء.. الرحلة اليومية بالمترو من الهرم إلى التحرير أحيانًا، وأحيانًا أخرى بالسيارة، ورحلة البحث عن مكان للركن.. الاستغناء عن الموبايل طوال ساعات العمل وتركه في مكتب الاستقبال.. ساعات العمل الطويلة من الثامنة صباحًا حتَّى الرابعة والنصف عصرًا.. إعداد قواعد البيانات بأسماء الشركات وعناوينها وأرقام هواتفها وفاكساتها ومديريها.. تنسيق محتويات الفاكسات التي تشرح طبيعة البرنامج الأمريكي.. ثم بدء الاتصال بالشركات.. وراح كل منَّا يُرسل الفاكسات إلى أول أربعين شركة في قاعدة البيانات التي أعدَّها، فوقفتُ قرابة السَّاعة أمام جهاز الفاكس العتيق، أرسل الفاكس مرارًا وتكرارًا للشركة ذاتها، لأنني لا أتلقى في أغلب الأحيان رسالة تأكيد وصول الفاكس.. تبًّا له من جهاز! كيف تعمل مثل هذه الأجهزة العتيقة في مبنى رفيع المستوى مثل السفارة الأمريكية؟!



حقيقة فكرتي عن السفارة الأمريكية اختلفت كثيرًا عما كانت عليه قبل بدء العمل هنا.. العمل هنا - على الأقل في القسم التجاري- يدور بنفس ميزات وعيوب العمل في أي مكان آخر.. الروتين ذاته الذي يحتِّم عليَّ أن أصل في تمام الثامنة صباحًا بالدقيقة، ويُعطي الفرصة لرئيسي مستر باهي أن يسألني السؤال السخيف: «لماذا جئتَ في الثامنة وخمس دقائق؟»، ولا يعطيني الحق في أن أردَّ عليه قائلًا: «حضرتك جئت في العاشرة وتحاسبني لأنني تأخرت بضع دقائق!».. بالمنطق ذاته يعطي الحق لنفسه أن يشغل مواقع الفيس بوك والياهو ويدردش مع أصدقائه عبر الماسنجر، ويستخدم هاتف العمل في مكالمات شخصية طويلة، بينما يمنعنا بصرامة من استخدام أجهزة الكمبيوتر على مكاتبنا لأي غرض شخصي - حتَّى لو كان البريد الإلكتروني- والأمر ذاته مع الهاتف رغم أننا ممنوعون من اصطحاب هواتفنا المحمولة معنا.. لكن، من ذا الذي يبالي بالقواعد؟

كان أسامة وداليا يتقبَّلان أوامر باهي بهدوء ويطيعانها في آليَّة شديدة، أثارت إعجابي، بل وكانا يستمتعان جدًّا بعملهما.. كنت أراقبهما وهما يجمعان البيانات من هنا وهناك ويضيفانها إلى صفحات برنامج Excel بحماس، متنافسين أيهما يجمع أكبر عدد من بيانات الشركات أكثر، بينما أشعر أنا بالحنق الشديد.. هل درست أربع سنوات بالجامعة، لأؤدي عملًا يمكن لأي تلميذ بالثانوي أن يؤديه؟! كنت أقول لنفسي إنها الأيام الأولى في العمل، ولا ينبغي أن أتسرَّع في الحكم مسبقًا على طبيعته، لكنني ما إن

أجـد نفسي منهمكًا بالسـاعات في نسـخ البيانات من الإنترنت، وإرسـال الفاكسـات، حتّى ألعن هذه الوظيفة المملّة.. أنا درسـت الصحافة لأصير صحفيًّا أو مذيعًا أو مراسلًا، لا لكي أفعل هذه الأشياء السخيفة!

خلال يومين، تأكَّد لي أن أغلب من حولي في القسـم التجاري أقباط.. لا يمكـن ألا يلفت ذلك انتباهي ويثير داخلي بعض الشـعور بالغُربة.. في اليوم الثاني لي، ذهبت لمستر باهي أستأذنه أن أخرج لصلاة الظهر في أقرب مسـجد للسـفارة، فتطلَّع لي مندهشًـا.. كان تمثال السـيد المسـيح وصورة العـذراء على مكتبه واضحين تمامًـا لي، تجنَّبت النظر لهما، وأنا أؤكد له أنني لن أتأخر أكثر من ربع الساعة.. قال لي مبتسمًا:

- **ولِمَ تذهب خارج السفارة؟ أعتقد أن ثمة غرفة يُصلّي بها الموظفون في الساحة.. يمكنك أن تسأل «حسين».**

في البداية ظننت أن «حسين» هو المسلم الوحيد في القسم.. كان محاسبًا في نحو الخامسـة والأربعين من عمره، يجلس في مقدمة القسـم، ولم أسمعه يتكلـم إلا في مباريات كرة القدم، هو زملكاوي متحمِّس، كثيرًا ما يسـخر مـن الأهـلي في مناقشـاته الكروية الطويلة مع مسـتر باهي ومسـتر عادل.. كان عادل مهندسًا شابًّا منطويًا، يظل طوال ساعات العمل في غرفة مكتبه الصغيرة المجاورة لمكتب باهي، ويبدو دائمًا متأنِّقًا حريصًا على ارتداء البذلة الكاملـة، لم أتعامـل معـه إلا عندما طلب منـي باهي أن أسـأله عن بيانات إحـدى شركات الأدويـة التي نريد أن نرسـل لها فاكس برنامج التسـويق،

عندما دخلتُ مكتبه، وجدت عينيَّ تبحثان بلهفة عن أي دليل يقدِّم ديانته، لم أجد صورًا للعذراء أو مصحفًا صغيرًا، ولم أستدل من حديثه على دينه، وخرجتُ من مكتبه دون أن أجد جوابًا لحيرتي.. وهايدي؟ هذه الفتاة الجميلة التي استقبلتني في أول أيامي في السفارة، اكتشفت أنها مسلمة، رغم أن مظهرها لا يُوحي بذلك إطلاقًا.. ملابسها سافرة وتضع الكثير من مساحيق التجميل، لكنها تبقى ألطف من يعمل هنا!

واعتدت أن أذهب مع «حسين» لصلاة الظهر في غرفة المسجد.. لم تكن كبيرة، لكنها كانت تستوعب الموظفين الذين ينزلون لأداء الصلاة جماعة فيها، وذات مرة سألت «حسين» السؤال الذي لا يسأله أحد: لماذا أغلب الموظفين هنا أقباط؟

تطلَّع إليَّ مُندهشًا وقال:

- **أقباط؟.. هذه أول مرة أسمع فيها سؤالًا كهذا.. أعتقد أنهم يختارون الموظفين هنا بعيدًا عن أي اعتبارات عِرقية أو دينية يا شادي.. إننا في مؤسسة أمريكية ولسنا في وزارة حكومية مصرية!**

شعرت بالخجل من سؤالي الطائفي، ولم أتكلَّم في الأمر ثانية.. فقط كنت أشعر بالرضا كلما قابلت موظفة محجَّبة في المصعد أو في ساحة السفارة، وأجد نفسي أحييها بالسلام عليكم.. اعتدت أن أقضي ساعات العمل منطويًا على مكتبي أمام جهاز الكمبيوتر، فلا أتحدَّث مع أسامة

وداليـا إلا في سـاعات العمـل الأولى، قبـل أن يصـل باهـي .. كل صباح تـأتي داليـا لتجلس معنا في غرفة مكتبي أنا وأسـامة، وأجلس أنا أرتشـف القهـوة الأمريكية وأتصفَّح الصحف التي تصل للقسـم التجاري بانتظام كل صبـاح، بينـما ينهمك أسـامة وداليـا في أحاديـث فارغـة، يتعرفان بها إلى بعضهـما أكثر.. خلال أيـام قليلة كسرت داليا حاجـز الثلج بينها وبين أسـامة، وسرعان ما تحوَّل مزاحهما اللفظي إلى مزاح جسدي، الأمر الذي أثار حفيظتي - وربما غيرتي! - وتسـاءلتُ في قرارة نفسي: هل الأمر بهذه السهولة؟ هل يمكن أن أحيط خصر داليا بذراعي مثلما يفعل أسامة لمجرد أنها زميلتي في العمل؟ أم أنها لا تسمح بذلك إلا لأسامة؟ الفتى، كما ترى، وسيم رياضي القوام ويبدو عريسًا مثاليًّا!

لم تجـر أحـداث مهمَّـة خـلال أسبوعي الأول في العمـل، اللهـم إلا ليلـة الرابع مـن يوليو، عندما قـررتُ حضور احتفالات عيد الاسـتقلال الأمريكي في ساحة السفارة.. كان حفلًا كبيرًا ضُربت فيه الألعاب النارية في السـماء، وعُزف النشـيد القومي الأمريكي، ثم توالـت فيه أنواع مختلفة من الموسـيقى الأمريكية، وامتلأ الحفل بالمشاهير من أهل السياسة والفن، وعمرت الموائد بزجاجات النبيذ.. أحسسـت بالوحدة سريعًا، وأدهشني أن أرى الـوزراء يتبادلـون أحاديث ضاحكة مع نواب المعارضة ورؤسـاء تحريـر الصحف المسـتقلَّة، ثم نسـيت دهشـتي الأولى عندمـا رأيت رئيس التحرير المعارض الذي كثيرًا ما هاجم السياسة الأمريكية، يصافح السفير

الأمريكي ويُقبِّل زوجته على وجنتيها.. وعندما جاء مستر باهي متحمسًا يخبرني أن موظفي القسم التجاري سيحوزون شرف أخذ صورة مع سيادة السفير في نهاية الحفل، تسللتُ بهدوء وغادرتُ السفارة.

■■■

كان الأحد التالي مملاً إلى حدٍّ لا يطاق..

وصلت إلى السفارة متأخرًا؛ لأني جئت هذا الصباح من المنصورة مباشرة.. استقبلني باهي بعتابٍ قاسٍ، وفاجأني بأنه وصل مبكرًا اليوم.. اعتذرتُ له وقلت إنني «سأحاول» أن أصل في الثامنة بالضبط فيما بعد.. وضغطتُ على «سأحاول» هذه، حتَّى لا أعطيه وعدًا، وقاومت رغبة عارمة في أن أخبره أنه هو شخصيًّا يتأخَّر كل يوم أكثر من ساعة.

بدأتُ يومي بتجهيز قائمة الشركات، ثم قمت لأصنع لنفسي كوبًا من القهوة الأمريكية، لعلَّ الكافيين يزيح عني رغبتي في النوم، مررت على صندوق الصحف، فلم أجد سوى الصحف القومية في صندوق الصحف، بحثت عن بقية الصحف على مكاتب الزملاء، ثم تذكرت الحقيقة المؤلمة.. اليوم احتجبت الصحف المستقلة والمعارضة اعتراضًا على تعديلات مواد النشر التي تبيح حبس الصحفيين!

في الحادية عشرة، بدأت أكلِّم الشركات التي استقبلت الفاكسات الأسبوع الماضي.. بعد ثلاث مكالمات، تمكَّنت من الوصول لرئيس مجلس

إدارة شركة المنسوجات المتحدة، قال إنه قَرأ الفاكس ووجد عرض السفارة مغريًا.. سألني عن إمكانية أن تساعده السفارة على تصدير منتجاته إلى أمريكا، وكان باهي قد درَّبنا جيدًا على إجابة مثل هذه الأسئلة.. أجبته بتلقائية:

- **ليس ذلك بإمكاننا يا سيدي.. وظيفة القسم التجاري هنا مساعدة الشركات الأمريكية للوصول للسوق المصري، وعقد برامج الشراكة مع الشركات المصرية وليس العكس.**

قال وقد ضايقه جوابي:

- **لا أفهم.. إذن أنتم تخدمون الشركات الأمريكية فحسب!**
- **كلا بالطبع يا سيدي.. المصلحة مشتركة لكلٍّ من الشركات المصرية والأمريكية.**
- **حسنًا.. آسف، لا أريد الاشتراك في برنامجكم!**

شعرتُ بخيبة الأمل، وحاولت أن ألحَّ عليه لأعيد شرح بنود البرنامج، بالطريقة التي لقَّننا إياها مستر باهي، لكن الرجل كان قد أغلق الاتصال.. أحسست بضيق مفاجئ ووجدت نفسي أصيح:

- **تبًا! من يظن نفسه؟ إننا السفارة الأمريكية!**

قلتها ثم أصابتني الدهشة لما قلته، وتساءلت.. أنت السفارة الأمريكية؟! سمعت أسامة يسألني:



- **ماذا فعل؟ أغلق الخط في وجهك؟**
- **ليس بالضبط.**
- **لا تقلـق.. حدث معي هذا الأمر الأسـبوع الماضـي مرتـين.. هؤلاء المتخلفون يكرهون أمريكا، ويرفضون فرصة ذهبية للربح.. دعك منهم.. هم الخاسرون!**
- **هؤلاء المتخلفون؟ متخلفون لأنهم يرفضون التعاون مع أمريكا؟!**

قال أسامة وهو مشغول بتسجيل البيانات على جهاز الكمبيوتر:

- **ولأنهم يرفضـون هذه الفرصة الذهبية.. ألم تسمع ما قاله مستر باهـي؟ هل تذكر ما قاله عن شـركة ماتركس التي تعاقدت مع شـركة مايكروسـوفت بعقد قيمته مليون دولار بعد أيام من اشتراكها في برنامجنا؟**

لم أردَّ وتظاهـرت بأنـني مشـغول بإجراء مكالمة هاتفيـة أخرى.. نفس السـيناريو راح يتكـرَّر طـوال اليـوم.. أُكلّـم سـكرتيرة الشركـة وأطلب الحديـث إلى رئيس مجلـس الإدارة.. إما مشـغول وإما «مـش موجود» أو «حضرتـك عايـزه في إيه؟».. أحيانًا أحدِّث رئيس مجلـس الإدارة أو مدير التسـويق، وأحيانًا أكتفي بعـرض الأمر على السـكرتيرة طالبًا منها ردًّا في أسرع وقت.. نفس الشرح السريع لمميزات الالتحاق ببرنامجنا.. المطلوب هو ألف جنيه رسـوم اشـتراك، وصورة من السـجل التجـاري، والبطاقة

الضريبية للشركة.. الأمر سهل يا سيدي، ولسوف تجني أرباح هذا التعاقد معنا سريعًا.. صدّقني يا سيدي، التعاون مع السفارة الأمريكية يمنحك الكثير.. كل هذا الكلام المعسول رحت أعيده مرارًا وتكرارًا، حتّى صرت مثل شريط كاسيت يُعيد نفس الكلام المسجَّل عليه، دون أي تعديل.. اعتدت الأسئلة التي أتلقَّاها، وصار لكل سؤال ردٌّ معدٌّ مسبقًا.. الأهم أن أكون هادئًا واثقًا من نفسي.. القاعدة رقم واحد في عالم التسويق.

■■■

وقَّعت عقدي الأول اليوم التالي..

أعترف أنني شعرت بالسعادة؛ لأنني تفوقت على أسامة وداليا في توقيع العقد الأول مع إحدى الشركات.. رأيت نظرات الغيرة في عيونهما لا سيَّما عندما امتدحني مستر باهي للمرة الأولى، وهو يكتب اسمي على لوحة كبيرة، ويكتب أمامه رقم واحد، ثم كتب اسمي أسامة وداليا تحتهما وأعلن:

- **مبروك يا شادي.. على هذه اللوحة سنكتب عدد العملاء الذين يوقِّع معهم كل منكم.. من يُوقع عقودًا أكثر، سيأخذ مكافأة قيِّمة نهاية كل شهر!**

لم أفهم السبب الذي يدعو شركة أثاث بسيطة، مقرها في الإسماعيلية للاشتراك في برنامج كهذا.. لقد أدَّيت عملي فحسب، فعندما أرسلت الفاكس للشركة الأسبوع الماضي، هاتفني رئيسها بنفسه وقال لي:



- **مهم جدًّا أن نتعاون مع السفارة الأمريكية.. ما طلباتكم؟**

ووصلنـي اليوم مندوب الشركة حاملًا معـه المبلغ المطلوب في ظَرْف، والأوراق التـي طلبتها.. عند مكتب الأمـن قابلته وأعطيته بعض مجلات البيزنـس الأمريكية، ودليل الشركات الأمريكيـة وإيصالًا بالمبلغ، وهنّأته على الاشـتراك معنـا.. كان المندوب كهـلًا نحيلًا غارقًـا في العَرق، وراح يتطلع لي مندهشًا لصغر سني، ولأنني أحدِّثه العامية المصرية، وحاول هو أن يستخدم معي الكلمات الإنجليزية القليلة التي يعرفها، فكنتُ أردُّ عليه مبتسمًا بالعربية.. هل تبدو ملامحي أمريكية أم أن الرجل أعمى؟

وعدتُ للقسم التجاري حاملًا العقد، ولوَّحتُ برزمة الجنيهات الألف في وجـوه الموظَّفـين.. هنأني بعضهم، وجاء باهي وشـجعني على مواصلة العمل بحماس أكبر.. عدتُ إلى مكتبي أُجهِّز عددًا من الفاكسات لإرسالها لقائمـة جديـدة من الشركات أعددتهـا أمس، ولاحظتُ أن أسـامة يعمل بنشـاط بالغ على المكتب المجـاور.. يهاتف الشركات، ويـشرح البرنامج، ويُرسل الفاكسات.. لقد بدأت المنافسة بيننا بقوة إذن!

في الخامسـة عصرًا، قابلت عماد في الجامعة.. كان جالسًـا بحقيبة سفره مـع ندى في الكافتيريا، ودعاني للجلوس معهما.. لم أعتد أن أتواجد معهما معًا، وكنت دائمًا أفضل أن أتركهما معًا ليأخذا راحتهما في الحديث.. الأمر هذه المرة يختلف؛ لأنَّ عماد سيسـافر الليلة إلى لبنان.. جلست صامتًا أتابع حديثهـما دون أن أحاول أن أتدخَّل، متظاهرًا بقراءة جريدة المصري اليوم حتَّى وإن كنت قد تصفَّحتها في السفارة صباحًا.

كان عـماد يغيـظ ندى بالحديث عن بيروت وبناتها، وبأنه سـيلهو كثيرًا معهـن بعيدًا عنها، وربّما تعجبه إحداهن، فينسـى حبّه لندى، فردَّت عليه ندى: «إذن أنت تظن أن واحدة غيري سوف تنظر إليك؟!»

بعـد قليل نهضت ندى وقالت إن عليها أن تذهب كي لا تتأخر.. طال عناقها للحظات مع عماد، ثم قبَّلها صديقي على وجنتها.. شعرت بالغيرة للحظـات، وتمنَّيـت لو كنت مكانـه!.. نعم، كانـت ندى جميلـة وتُذكّرني بالممثلة منَّة شـلبي - أنا الوحيد الذي يقول ذلك - ظلا يتهامسـان قليلًا، ثم تطلَّعت ندى لعينيه وقالت:

- **خد بالك من نفسك.**

مشـينا معهـا حتَّـى أخـذت «تاكسـيًّا» ورحلـت، وحمـل عـماد حقيبته وقررنـا أن نذهب لنأكل.. هـذه المرة لم أعترض عندما قرر عماد أن يأكل في ماكدونالـدز.. كنت قد اعتدت أن أذهب معـه للمطاعم الأمريكية عندما يصرُّ، دون أن أشـاركه الأكل، وأظل جالسًا أمامه أتأمله يأكل الهمبورجر، ومن حين لآخر أختطف واحدة من شرائح البطاطس المقلية، فيصيح هو:

- **ماذا الآن.. ألست مقاطعًا؟! فلماذا تأكل البطاطس الأمريكية؟**

هذه المرة قررت أن أشـاركه الطعام.. جلسـنا نأكل في صالة المطعم في صمت.. رحت أرمق السيارات المارَّة في شارع محمد محمود، ثم قررت أن أكشف لعماد عما يدور في أعماقي.. قلت:



- **ألم تلاحظ أنني أكلت معك هذه المرة؟**
- **لاحظت.. ما الغريب في ذلك؟.. ألم تعمل في السفارة الأمريكية؟**
- **صح.. حقيقة أشعر أنني صرت أناقض نفسي كثيرًا.. صرت أفعل أشياء متناقضة طوال الوقت.**
- **من منا لا يناقض نفسه؟.. أنت ناقضت نفسك من البداية.. تدرس في الجامعة الأمريكية ثم تدعو لمقاطعة أمريكا؟**

هممت بالرد المعتاد - الذي طالما كرَّرته - بأن الجامعة مؤسسة غير ربحية، أكاديمية لتلقي العلم، وهذا يختلف عن دفع المال لدعم الشركات الأمريكية التي تتبرّع بدورها لدعم إسرائيل.. لم أشأ الخوض في هذه المناقشات المملة، وقلت:

- **بل أقنع الشركات المصرية بالتعاون مع الأمريكان أيضًا.. هل رأيت المهزلة؟**

تطلَّع لي وقال بلهجة جادة لم أعتدها منه:

- **برافو.. هذا هو الطريق الصح لتصير ليبراليًا وتكون جديرًا بصداقتي!**

ساد الصمت حتَّى انتهينا من الطعام، فقمنا نسير في شوارع وسط البلد.. لم يبدُ عماد طبيعيًّا كما أعرفه، وأحسست أن هناك شيئًا ما يشغله..

عندما سـألته قال إنه تشـاجر أمس مع والده، ولم يشأ أن يُخبرني عن طبيعة الشِّـجار.. سـألته إذا كان قـد حدَّثـه عن قـراره بخطبة نـدى، فنظر لي ولم يـردَّ.. تجوّلنـا قليلًا حتَّى جـاءه اتصال من صديقه الذي جـاء بالقطار من الإسـكندرية.. قابلنـاه في محطة مصر، وودَّعت عـماد وطلبت منه أن يبقى على اتصال، فقال مبتسمًا:

- **سأحاول، لكنني لا أعدك.. يعني أترك «مُزَز» بيروت وأكلِّمك؟**

وركـب الاثنان «تاكسـيًّا» وانطلقـا إلى المطار، بينما اتجهـت أنا إلى محطة المترو.. غدًا يوم آخر من أيام السفارة الأمريكية!

■■■



7

طـوال الطريق من التحرير إلى المعادي، لم تتوقف ندى عن تخيّل أيامها القليلة القادمة بدون عماد.. من سيدردش معها عبر الماسنجر؟ هل حقًّا ستشغله بيروت عنها ولن يتصل بها؟

ظل هذا الخاطر يؤرقها، حتَّى وصلت البيت، ودخلت الشقة الصامتة الخالية إلا منها.. أمها وأبوها في زيارة لأحد الأقارب، وحسام في سفر مع أصدقائه إلى الساحل الشمالي، هذا ما أعطاها بعض الحرية أن تخرج اليوم لترى (عماد).

لم تغفر لحسام بعد تصرفاته الحمقاء، بعدما رآها مع عماد المرة السابقة.. كأنه ضبطها معه في شقة مفروشة.. ملأ الدنيا صياحًا وهِياجًا، وراح يقول أشياء سخيفة على غرار «ضاحكة علينا كلنا ونازلة تصيع مع حبيب القلب»، لم يتوقّف حتَّى أعلنت الأم أنها كانت على عِلم بخروجها مع عماد.. ضاعف تدخل الأم من غضب الفتى، فراح يصيح: «يا نهار أسود! هو احنا في أوروبا ولا أمريكا! هي حصّلت! أختي تخرج مع البوي فريند

بتاعها بعلم أمها».. كالعادة بكت ندى، ولم تستطع مواجهته.. ماذا تقول له؟ هل يفهم هذا الأخ الفظّ غليظ القلب معنى الحب؟ هل يمكن أن يقتنع بأن (عماد) لا يلهو بها كما يفعل الفتيان الآخرون؟ كيف يفهم ذلك وهو لم يذق طعم الحب قطُّ؟ كيف يمكن أصلًا أن يحب من هو في مثل قسوته؟ لكن لحظة.. هذه الفتاة التي رأتها معه في المطعم.. ما العلاقة بينهما؟ لم تستطع قط أن تطرح سؤالها عليه، بينما راح هو يصيح ويصرخ أمام والديها، مكيلًا أفظع الصفات لعماد باعتباره ولدًا رقيعًا مخادعًا.. أصرّت الأم أن الولد زميلها في الجامعة، فضحك حسام متهكمًا وصاح: «طب وإيه يعني؟ ما كل بتوع الـAUC كده.. »، ولم تفهم ما الذي يقصده بـ «كده»!

دخلت ندى حجرتها وهي تحاول أن تنفض حسام عن ذهنها، وتعود لاسترجاع لقائها الأخير مع عماد.. كم كان وسيمًا في التيشيرت الأحمر الذي ارتداه اليوم؟ كان التيشيرت يبرز عضلات صدره، وقاومت رغبة جامحة أن تُلقي بنفسها في حضنه.. كم تشتاق إلى هذا الحضن؟ تذكّرت عناقهما وكيف تلامست وجنتاهما للحظات قليلة، سرت خلالها في جسدها قُشعريرة جميلة.. شعرت بأنفاسه الحارّة على عنقها، قبل أن يُقبّلها على خدها بكل ما في الدنيا من حب وحنان.. هذه هي قبلته الخامسة لها - على خدها بالطبع - هذه الأشياء لا يمكن أن تنساها أبدًا.. إنها تُحصيها وتُبقيها خالدة في ذاكرتها، تستعيدها مرارًا وتكرارًا، ولا تنام كل ليلة قبل

أن تستعيد ذكرى واحدة من هذه القبلات القليلة.. متى يحين إذن موعد القبلة الكبيرة؟ لا، لا يا ندى.. ليس قبل الخطبة.. لا يمكن أن تكون فتاة سهلة أبدًا.. هكذا تنصحها رشا دائمًا.. رشا أكثر منها خبرة!

القبلة الخامسة.. لا تزال تشعر بملمس شفتيه على خدها.. مهلًا، لماذا قبَّلها أمام عيني ذلك الفتى شادي؟ لا بد أنه قد حسدهما.. لقد عرفت شادي منذ ازدادت اقترابًا من عماد؛ لأنّه أقرب أصدقائه في الجامعة.. لا تعرف كيف يرتبط اثنان مختلفان تمامًا بصداقة قوية كهذه، لم ترتح لشادي قط، وكانت تشعر أنه يلعب دور المناضل باستمرار، وهو دور لا يليق به.. يحاول دائمًا أن يظهر في دور صاحب المبادئ المنادي بحقوق الفلسطينيين، كما يتبين من مقالاته الحماسية التي كان يكتبها بإنجليزية ركيكة في جريدة الجامعة.. مقالات كانت تكتفي بقراءة أول فقراتها قبل أن تشعر بسخافتها وتصنّعها.

جلست ندى على فراشها، وفتحت اللاب توب.. شغلت كاظم الساهر، وألقت نظرة على قائمة المتصلين في الماسنجر.. عماد ليس هناك بالطبع.. مع من تدردش إذن؟ حتّى رشا غير موجودة.. يا لها من ليلة مملّة!

قامت وخرجت من غرفتها.. لا بد أن تعترف أن البيت بدون أمها وحسام يبدو كئيبًا.. بصراحة هي تفتقد حسام.. مهما فعل بها، فهو شقيقها.. صحيح أنه سخيف.. صحيح أنه يبذل قصارى جهده لتنغيص

حياتها والتدخل في خصوصياتها.. إلا أنه شقيقها، وهو - تعترف - يصير أحيانًا حنونًا طيب القلب.. أحيانًا قليلة صحيح، لكنها تحدث!

تذكرت ما فعله معها منذ أيام قبيل سفره.. كانت جالسة أمام التليفزيون تقرأ في أحد دواوين «نزار قباني».. راح يتطلع لها بحدة، ثم طلب منها أن تتلو ما تقرؤه بصوتٍ عالٍ.. مطلب غريب، رفضت تنفيذه طبعًا.. كانت القصيدة جريئة في كلماتها كعادة «نزار»، فارتبكت وأغلقت الديوان، وقالت إنها ذاهبة لتنام.. هنا جُنّ جنون حسام وأصرّ أن يرى الديوان.. رفضت في البداية ثم أعطته إياه مُستسلمة، فراح يقلّب فيه بلهفة.. لم يتوقف إلا عندما وقعت عيناه على بعض الكلمات التي تصف أماكن حميمة من جسد الأنثى.. انفجر غضبًا.. صاح مهدّدًا ومتوعّدًا أن يعرض الكتاب على والدها، ليرى ماذا تقرأ ابنته «القرّيئة» المثقفة.. تركته ودخلت غرفتها، وأخذ هو الديوان.. صادره!

لماذا لا تذهب الآن لاستعادته من غرفته؟ حسام ليس موجودًا، ولن يتذكّر غالبًا أنه أخذه، بدليل أنه لم يقل لوالدها شيئًا.. ثم حتَّى لو تذكّر.. ماذا سيفعل؟ لا بد أن تتعلم أن تكف عن السكوت له.. لا بد أن تواجهه، وتوقفه عند حدّه.. هي لم تعد صغيرة ولا بد أن يعي جيدًا أنه الأصغر.. وجدت في نفسها حماسة مباغتة، فأسرعت إلى غرفته.. فتحت الباب المُغلق ودخلت تتأمل الغرفة التي يحظر عليها دخولها، إلا في حضوره، وفى مناسبات خاصة!



وقفت في وسط الغرفة الواسعة، تتأمل صور بريتني سبيرز وعمرو دياب وفريق النادي الأهلي التي تُغطّي الحائط.. استدارت نحو مكتبه حيث تتناثر الكتب والملخصات بجوار جهاز الكمبيوتر.. وجدت الديوان وسط الكتب، دون أن تبذل أدنى جهد للبحث عنه.. لم يُخبّئه، ولم يحاول أن يُخفيه.. الأمر لا يعنيه كثيرًا.. فقط مصادرته كانت محاولة أخرى لتكدير حياتها.. كيف يراها جالسة صافية البال تقرأ شعرًا دون أن يُضايقها؟ ربما أيضًا كانت محاولة لاستفزازها ودفعها لخوض نقاش معه؛ لأنها لا تكلّمه منذ مشاجرتها الأخيرة.. هل حقًّا يمكن أن يفتقدها هذا الأحمق مثلما تفتقده هي الآن؟

جلست على فراشه، تتأمل صورته الكبيرة المعلّقة في المواجهة.. صورته في التاسعة من عمره.. كان طفلًا جميلًا بريئًا يُميّزه شعره الناعم الكثيف - الذي لم يعد كذلك بفعل القصّات العجيبة التي يُجرّبها عند الحلاق! - تتذكر كيف كانا يلعبان معًا وهما صغيران.. كانا يقضيان اليوم تقريبًا معًا، وكانت غرفته تجمعهما معًا.. تتذكر أنها حتّى سن التاسعة أو العاشرة، كانت تنام معه على فراش واحد، وأنها تضايقت كثيرًا حينما قرر الأب أن تنفصل ندى عن شقيقها في غرفة خاصة.. قرار لم تتقبّله بسهولة، وكانت كثيرًا ما تتسلل ليلًا لتنام جوار شقيقها، أو يتفقان أن يبكي هو طالبًا أن تنام ندى جواره.. يا لذكريات الطفولة الجميلة!

تُرى، هل يذكر حسام كل ذلك؟ أيام مراهقتها كانت تحب أيضًا



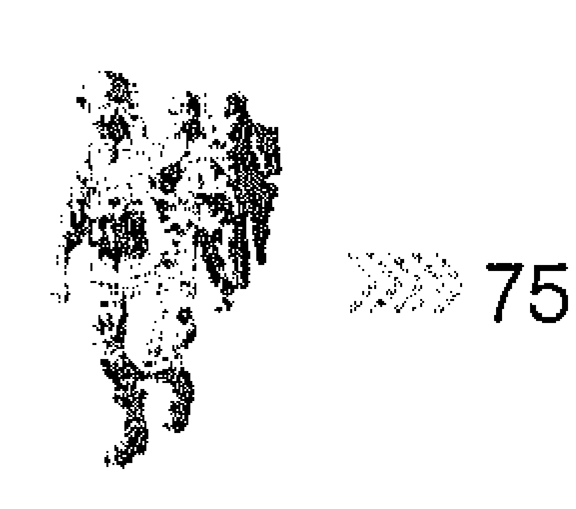
مزاحهما، عندما يخلو لهما المنزل.. كانا يشتبكان معًا جسديًّا، وكانت تحب أن يلتصق بها في عراك، ليأخذ من يدها شيئًا اختطفته منه.. لم يدم مثل هذا المزاح طويلًا؛ لأنها بدأت تلاحظ أن شقيقها يتحوَّل.. الشعر ينبت فوق فمه، وصوته يزداد خشونة.. هي كانت تتحوّل وتفهم أنها لم تعد طفلة.. أدركت أن الوقت حان لإنهاء المزاح الطفولي مع شقيقها.. رجلًا صار، وامرأة صارت!

هل يذكر حسام ذلك؟ ألم ينس لها أنها كانت تتساهل معه أحيانًا وتتركه يلتصق بها؟ هل يفهم أن الأمر لم يكن يتعدى مجرد مزاح طفولي وانتهى الأمر؟ خطر لها أن حسام يذكر كل شيء كما تذكره هي بالضبط، وأنه يتصوّر أنها تفعل الشيء ذاته مع عماد.. هل هذا هو السبب الذي يجعله لا يثق بها، ويرفض علاقتها بصديقها؟ انتابها القلق للحظات، ثم أقنعت نفسها أن (حسام) ليس ضيق الأفق إلى هذه الدرجة.. لا بد أنه قد نسي كل شيء.. لقد مرَّت سنون طوال منذ حدث ذلك آخر مرة.

نهضتْ من جلستها وقرّرت أن تستعيد حديثها الأخير مع عماد.. لقد قال إنه سيكلّمها قبل أن يركب الطائرة.. وضعت يدها على خدها وتذكّرت.. رباه! القُبلة الخامسة!

وغادرت غرفة حسام دون أن تأخذ الديوان.. لقد نسيته!

■■■



إنها إجازة ولا بد أن ينسى..

ها هو عماد جالس جوار محمود في طائرة خطوط طيران الشرق الأوسط، يرتشف كوب عصير المانجو.. استرخى محمود في مقعده، واستغرق في النوم، وجلس عماد جوار النافذة - كما طلب من الموظّفة الحسناء في مكتب شركة الطيران وهي تعطيه تذكرة الطائرة- يتطلّع للظلام الدامس في الخارج، وقد خيّم الصمت التام على الطائرة.. بيروت ستظهر بعد قليل!

لكن، كيف يمكن أن ينسى بهذه السهولة؟

لا تزال كلمات والده الصارمة ترنّ في أذنيه.. «خطوبة إيه يا واد إنت؟.. مش لما تخلّص تعليمك».. «عايزني أصرف عليك وعلى العيّلة اللي إنت عايز تخطبها كمان؟».. يتذكر كيف ظل واقفًا في مكانه يتطلّع لوالده بنظرات جامدة.. ربما تلاعبت على شفتيه ابتسامة باردة أيضًا.. لا يعرف بالضبط.. فقط بذل قصارى جهده كي لا يظهر أي تراجع في موقفه.. لم يتحرك قيد أنملة حتّى انتهى الأب من صياحه الغاضب وعباراته الساخرة.. عندها ابتسم عماد بهدوء وقال:

- **لقد أخبرتك بالأمر فقط على سبيل أنك السيد الوالد.. لكنني سأخطبها!**

واستدار ببطء ومضى إلى غرفته، دون أن يبالي بصياح والده.. لقد بدأ



التحدي!.. هل تسرَّع حقًّا بطرح الأمر على والده في مثل هذا التوقيت؟.. لا، هذا بالضبط هو التوقيت المناسب.. سيغيب ثمانية أيام في لبنان، يترك خلالها لوالده فرصة التفكير وإعادة تقييم موقفه.. أما الآن، فعليه أن يتمسّك بقراره.. سيخطب ندى!.. نعم، سيخطبها.. لن يسمح لشقيقها حسام أن يمد يده عليها مرة أخرى.. ستصير خطيبته، وسيصير بوسعه أن يقابلها أينما شاء حتَّى في بيتها نفسه.. حينها يمكنه أن يُعطي لنفسه فرصة أخرى أن يحبها فعلًا.. الفتاة لا بأس بها، والأهم أنها تحبه بدرجة لا يتصوّر أن أحدًا أحبه بمقدارها من قبل.. حتَّى والده ذاته.. هل والده يحبه أصلًا؟

استغرق في أفكاره، حتَّى علا صوت الطيار يدعو الركاب لربط أحزمة الأمان، والاستعداد للهبوط في مطار بيروت خلال دقائق.. استيقظ محمود من سباته، واعتدل في مقعده.. تطلّع عبر نافذة الطائرة لأضواء المدينة التي تبدو في الأفق، قبل أن يقول بحماس:

- **صباح الفل يا معلّم.. أخيرًا بيروت!**

تطلّع عماد بدوره للمدينة التي يُغلّفها ظلام البحر، وتلمع أنوارها من مبانيها العالية، وتنهّد في عُمق.. حان الوقت كي يضع كل مشاكله جانبًا لثمانية أيام قادمة.. لينسى والده ودبي والزفت الاقتصاد والهندسة.. لينسى مسألة الخطبة وندى ومشاكلها و(حسام).. الرحلة التي يُمنّي نفسه بها



منذ الصيف الماضي قد جاءت.. أهلًا بك يا بيروت! عسى أن تنسينا كل مشاكلنا لبعض الوقت أيتها الجميلة!

لم تستغرق إجراءات الوصول في المطار أكثر من دقيقتين.. كان المطار شبه خالٍ إلا من بعض العرب الذين يبدو واضحًا أنهم من دول الخليج.. ملآ استمارة دخول الأراضي اللبنانية، وتبادلا بضع عبارات مع موظفة الأمن الحسناء، قبل أن تختم جوازي سفرهما بختم الوصول، وتقول العبارة التي خرجت من فمها كأنغام موسيقية: «أهلا فيكم بلُبنان».. لبنان بضم اللام كما قالت بمنتهى العذوبة.

كان سائق التاكسي الذي أقلّهما مرحًا، يتحدث بحماس طوال الطريق.. عندما قابلاه أمام بوابة المطار، عرض عليهما أن يصطحبهما، فسأله محمود على الفور: «هتاخد كام؟».. نظر له السائق الشاب وقال مبتسمًا: «مصري؟.. ما تقلق حبيبي.. هون سعر خاص للمصاروة».. اتفقا على عشرين دولارًا - باعتبار أن الأجانب يدفعون ثلاثين دولارًا في مثل هذا المشوار - وانطلقا.. ركب محمود بجوار السائق، وانهمكا معًا في حديث تعارف.. قال السائق إنه من صيدا أصلًا واسمه نبيل.. كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة صباحًا وشوارع المدينة شبه خالية.. كادت سيارة مسرعة أن تصطدم بهما، فانفجر نبيل يسبّ قائد السيارة الأعمى، ويقسم بأيمانات الله أنه شاب سعودي ثمل أصابته بيروت بالجنون.. هؤلاء الشُّبّان يأتون من بلادهم ليفعلوا هنا ما يعاقبون عليه بالجلد والرجم في السعودية.. «يلعن حريشهن»!

وصلا الفندق في شارع الحمراء، واتجه عماد إلى مكتب الاستقبال، يسأل الموظف الساهر عن الغرفة المزدوجة التي حجزها.. لحق به محمود يسبّ ويلعن.. كيف يدفعان عشرين دولارًا في مشوار لم يستغرق أكثر من ثلث ساعة؟

■■■

استيقظ عماد في الثانية عشرة ظهرًا.. حاول أن يوقظ محمود النائم على الفراش المجاور، فلم يستجب له وظل يُطلق أنّاتٍ مكتومة.. أخذ عماد دشًّا ساخنًا وارتدى ملابسه، وقرر أن يقوم بجولة سريعة في المنطقة.. مرّ على مكتب الاستقبال، وأخذ منه خريطة للمدينة، طلب من موظف الاستقبال أن يُحدّد له موقع الفندق عليها، في قلب شارع الحمراء.. ثم بدأ جولته!

كان الطقس حارًّا.. مضى عماد يتجوّل بين واجهات المطاعم والمحال التجارية، ويتأمل السيارات الفارهة التي تشق شارع الحمراء.. هل هذا هو الشارع فائق الشهرة؟ لماذا يبدو له عاديًّا أكثر من اللازم؟ ما من شيء يُميّزه سوى أرضيته المبلطة كشوارع القاهرة القديمة، وكثرة متاجره وفنادقه.

كان عماد جائعًا، وزادته واجهات المطاعم جوعًا، لكنّه قرر أن ينتظر حتّى يتناول إفطاره مع محمود عندما يستيقظ.. دخل إحدى المكتبات وراح

يتجوّل بين رفوفها باحثًا عن شيء عن لبنان.. شيء يدلهما على ما يفعلانه في لبنان.. وجد دليلًا سياحيًّا بالفرنسية وآخر بالألمانية، وثالثًا بالعربية.. لماذا لا يوجد دليل بالإنجليزية؟ سأل أحد العاملين في المكتبة، فابتسم الفتى وسأله كالعادة: «من وين؟ مصر؟».. أومأ عماد برأسه إيجابًا، ولم يقل شيئًا، وقد قرر أن يتعامل فيما بعد بالإنجليزية حتَّى لا تفضحه لهجته المصرية.. لا يجد سببًا لذلك، لكنّه لا يُحب أن يسمع العبارة ذاتها من أي لبناني يحب أن يتظاهر بالذكاء، ويعلن أنه كشف هويّته.. مال الفتى يقلّب الكتب على أحد الرفوف، ثم أخرج له كتابًا بالإنجليزية عن لبنان.. ناوله له وقال: - «لونلي بلانيت.. هيدا أفضل دليل سياحي عن لبنان!».

لم يكن الكتاب عن لبنان فحسب، بل «لبنان وسوريا» كما قال العنوان.. قلب فيه عماد قليلًا، وقد ضايقه ثمنه الباهظ.. لم يشأ أن يخرج من المكتبة دون أن يبتاع شيئًا فاشتراه.. وعاد إلى الفندق.

وجد محمود جالسًا على فراشه، يُشاهد فيلمًا أمريكيًّا على شاشة إحدى الفضائيات.. استقبله محمود بصياح حانق:

- **انظر يا عماد.. فيلم American Pie.. حذفوا نصفه أولاد الإيه!**

تطلّع له عماد ولوّح بغلاف الكتاب.. تساءل محمود:

- **لبنان وسوريا؟ ما لنا ومال الأدلة السياحية؟ أنا أعرف ما سنفعله.**



- **وما الذي سنفعله يا عم الخبير؟**

تألقت عينا محمود وهو يثب من فراشه صائحًا:

- **الليلة يا صاحبي خمر ونساء..**

ونظر في وجه عماد مباشرة، وغمز بعينه مضيفًا:

- **ألسنا في بيروت؟!**

■■■

المرة الأولى التي تشرب فيها نبيذًا.. يا له من شعور!

رشف عماد الرشفة الأولى من كأسه في بطء.. تذوّقها بحذرٍ قبل أن يجرع جرعة أخرى، ومحمود يتطلّع إليه مبتسمًا.. أشار له محمود بقبضته رافعًا إبهامه بمعنى «تمام»، ثم ارتشف بدوره بضع جرعات من كأسه.. ومال على أذن صديقه يسأله وسط الموسيقى الصاخبة:

- **ما رأيك يا معلّم؟**

- **قشطة!**

على مائدة أمامية وسط الملهى الليلي، كانا جالسين.. المطرب العراقي ذو الصوت الأجش يُنشد أغنية «كان الزمان» لفيروز، والموسيقى تصدح من السماعات في كل أنحاء الملهى، بينما يعكف النُّدل على تلبية مطالب الزبائن بين الخمر والمأكولات اللبنانية.

المرة الأولى.. لا بد دومًا من مرة أولى.. من الصعب أن تكسر ما تربّيت عليه وآمنت به.. الخمر حرام!.. آخر مرة صلى صلاة الجمعة فيها، كانت منذ ثلاثة أو أربعة أشهر، لكنّه أيضًا لم يفكر قطُّ في أن يشرب الخمر.. هذه الليلة تختلف.. هكذا قال له محمود.. نحن في بيروت، وفى بيروت افعل ما يفعله البيروتيّون.. كيف تريد أن تسهر دون أن تشرب؟ انظر حولك.. الكل هنا يشرب!

محمود نفسه لم يشرب سوى مرات قليلة في حياته، وكلها كانت في جلسات السمر في الأعياد مع أصدقائه، في بارات الإسكندرية أو في بيت صديق سافر أهله، فتحوّل البيت لمكان السهرة.. ليلة رأس السنة دائمًا هي أنسب الأوقات لتجربة نوع جديد من الخمور الأجنبية.. في ليلة رأس السنة الماضية، انتهت جلسة الحشيش المعتادة ثم فتح مع أصدقائه الزجاجة الكبيرة التي ابتاعها أحدهم مؤكدًا أنها «فودكا روسية فاخرة»، وتوالت كئوسهم يملئونها ويشربون.. تجربة جديدة يستقبلون بها العام الجديد.. هم لا يثملون بل يُجرّبون فحسب، ثم يصبح الأمر نسيًا منسيًّا فلا يتذكرونه إلا في جلساتهم الخاصة.. حتَّى الآن لم يعلم أحد من أُسرِهم بأمر الخمر.. فقط البعض يعرف بأمر الحشيش، ولا يبالي كثيرًا.. الحشيش ليس حرامًا!

انتهى محمود من كأسه، وصبَّ لنفسه كأسًا أخرى، وقد انشغل بمتابعة المائدة المجاورة، حيث تجلس مجموعة من الأجنبيات الحسناوات.. ظلَّ عماد يتطلّع للكأس طويلًا، مترددًا أن يجرع جرعة جديدة.. ما الذي يحبه

النـاس في هذا السـائل؟ البيبسي أفضل كثيرًا.. ها هـي أول ليلة في بيروت تنتهي بكأس خمر.. متى إذن تأتى المعصية الكبرى التالية والأهم؟ النساء!

محمود بدوره كان في غاية الشوق.. طوال اليوم ظل يردد: «في بيروت، لا بـد أن تجرّب اللبنانيات.. إنهن مَعْلَمٌ سـياحي مثله مثل شـارع الحمراء والروشة وساحة الشهداء.. لكن اللبنانيات أهم من هذا كله»!

فجأة خفتـت أضواء الملهى، وتحوّلت إلى إضاءة حمـراء باهتة، فتعالت صيحات الجالسين.. اتجهت العيون كلها نحو المسرح حيث تركزت دائرة الضـوء على عازف العود، والمطـرب العراقي الجالس على البيانو جواره.. تعالت موسيقى «قارئة الفنجان» بتوزيع عصري جديد، قبل أن تظهر بغتة الراقصة في وسط دائرة الضوء.. تعلّقت عيون الكل بالراقصة شبه العارية التي راحت تتمايل بحركات سريعة رشيقة، على الألحان الراقصة، قبل أن يتعالى التصفيق.

قطـع عماد بعض الخبز الشـامي، وأخذ يجرِّب الحُمّـص اللبناني متطلعًا للراقصـة في هـدوء، ومحمـود يصفّـق بيديـه في حـرارة وحمـاس.. نهـض المطرب ليقف جوار الراقصة، كان صوته خشـنًا بشكل لا يتناسب إطلاقا مـع أغنية لعبد الحليم حافظ، لكن من يبالي بصوت المطرب الآن؟ تعلّقت الأنظـار بجسـد الراقصة الـذي يتلوى شـمالًا ويمينًا، لأعلى وأسـفل، في مرونـة مدهشـة.. ثـم تركـت الراقصة مسرحهـا، والتقطت عصـا طويلة جوار البيانو، ونزلت إلى قاعة الملهى.. اقتربت من أحد الشبان الجالسين،



ومالت بجسدها على صدره، فصفّق الفتى متحمسًا وقام يرقص معها، لكنها تركته إلى مائدة مجاورة لشاب آخر.. أمسكت بيد الشاب لينهض ويرقص معها، لكن وجهه اختلج خجلًا وابتسم لها معتذرًا.. هنا تقدّمت الراقصة باتجاه مائدة عماد ومحمود، ووقفت لحظة تتبيّن بعينيها الجالسين عليها، فلم يُعطها محمود الفرصة لتختار، ونهض مسرعًا نحوها ليحسم الأمر بجرأة شديدة.. أمسك بيدها وجذبها بسرعة نحو المسرح، فسارت معه الراقصة وقد أدهشتها جرأته.. على المسرح ناولته العصا فالتقطها محمود بوثبة عالية، ورسم بيديه والعصا حلقة حول الراقصة، انطلقت داخلها تتمايل يمينًا ويسارًا، وراح محمود يثب ويرقص بحركات سريعة وهو يدور بالعصا حولها.

على المائدة، جلس عماد يتطلع مبهورًا لما يفعله محمود.. لم يصدق أن صديقه يأتي بكل ذلك.. أخرج الموبايل وقرر أن يسجّل فيلمًا صغيرًا لصديقه، يتذكرانه معًا، ويتباهيان به أمام أصدقائهما في الإسكندرية فيما بعد.. هنا لاحظ على شاشة الموبايل ثلاث رسائل من ندى وخمس مكالمات منها لم يرد عليها.. كان الموبايل في الوضع الصامت، فلم يسمع شيئًا.. ما الذي تريده منه ندى الآن؟ ليس الوقت وقتها.

فتح إحدى الرسائل فوجدها تطلب منه أن يردَّ على مكالماتها.. الرسالة الثانية تُبدي قلقها عليه، وتطلب منه أن يتصل بها.. لم يفتح الرسالة الثالثة وقرر أن يتجاهلها الآن.. فيما بعد سيتصل بها.

في هـذه اللحظة، عاد محمود للمائدة ووجهه يشرق فرحًا، بينما واصلت الراقصـة جولتها بـين الموائـد.. بعد نصف سـاعة انتهت فقـرة الراقصة، فودّعـت جمهورهـا بقُبـلات وزّعتها بيديهـا ثم اختفت.. عـاد المطرب إلى البيانو ليشـغل عـددًا من أغـاني DJ الشرقية، داعيًا الحضـور للرقص على المسرح.. أشـار محمود لعماد أن يصعد معه للمسرح، فاعتذر عماد وأشـار إلى أنـه يُفضّـل الفرجـة.. تركـه محمـود واندفـع بنفسـه وسـط الراقصين والراقصات، يقفز ويتمايل كيفما اتفق على أنغام الموسـيقى الشرقية، وعماد يتابعه مبتسمًا ويشير له أن يستمرّ كلما التقت عيناهما.. بعد دقائق رأى عماد صديقه يرقص بحماس مع فتاة طويلة الشـعر، ترتـدي ثوبًا قصيرًا للغاية، راحـت تتمايل بظهرها على صدر محمـود، وهو يطوّق خصرها بذراعه من حين لآخر.. ظل عماد يتابعه مبتسمًا، وقد أثار غيرته أن صديقه استطاع أن يجد فتاة يراقصها بهذه السرعة.

تحوَّلت الموسيقى الشرقية إلى غربية، ورأى عماد صديقه يتجه مع رفيقته إلى مائـدة صغيرة، في ركن جانبي ويجلسـان هناك.. هـي فتاة وحيدة إذن، استطاع محمود أن يقتنصها! يا له من ماهر! السؤال هو: ماذا بعد؟

لأول مـرة شـعر عـماد بالوحـدة، ووجد نفسـه جالسًـا وحيدًا وسـط الموسـيقى الصاخبـة والأضـواء الراقصة، وسـط كل هؤلاء الحسـناوات والشبان وزجاجات النبيذ وأطباق الحمص والتبولة والفتوش.. لماذا تركه محمـود يجلـس وحيدًا؟ لمـاذا لا يأتي بفتاتـه إلى مائدتهما؟ ظل مـترددًا بضع

دقائق، يفكر أن يذهب إليهما، ثم قرر أن يرسل رسالة نصية إلى صديقه بالموبايل، يطالبه بأن يأتي إليه.. مع فتاته!

تطلّع لصديقه على المائدة البعيدة، ورآه ينظر لموبايله ويقرأ الرسالة ثم يبتسم ويشير له أن ينتظر.. ظل يتهامس لدقيقة أخرى مع فتاته وهو يحيط كتفها بذراعه - لهذه الدرجة وبهذه السرعة؟- ثم نهض وسار بخطوات بطيئة واثقة، متجهًا إلى عماد والفرحة تتطاير من عينيه.

تقدم وجلس على المقعد المجاور لعماد.. سأله عماد بلهفة عن الفتاة، ابتسم محمود وقال:

- **على مهلك.. ما لك يا بني؟**
- **من هذه؟**
- **فرح..**
- **فرح؟.. هل هي عربية؟**
- **هولندية من أصل لبناني.. هاجر والداها إلى أمستردام خلال الحرب وعاشت هناك.**
- **عرفت كل هذا في هذه الدقائق القليلة؟**

غمز محمود بعينه قائلًا في زهو:

- **أيوووه يا معلم.. أنا إسكندراني أصيل..**



- **وهل هي وحيدة؟**
- **لم أسألها لكنها دعتني لتكملة السهرة معها في بيتها!!**

تطلّع له عماد مندهشًا، ولم يصدق أن الأمر بهذه السهولة.. أضاف محمود:

- **كل شيء مباح في بيروت يا معلّم..**

ثم نهض واقفًا، فقبض عماد على يده، وأشار له أن يجلس من جديد..

- **ماذا تريد؟.. من قلة الذوق أن أتركها وحيدة تنتظر!**
- **هل ستقدر عليها وحدك؟**

ابتسم محمود متهكمًا، وقال:

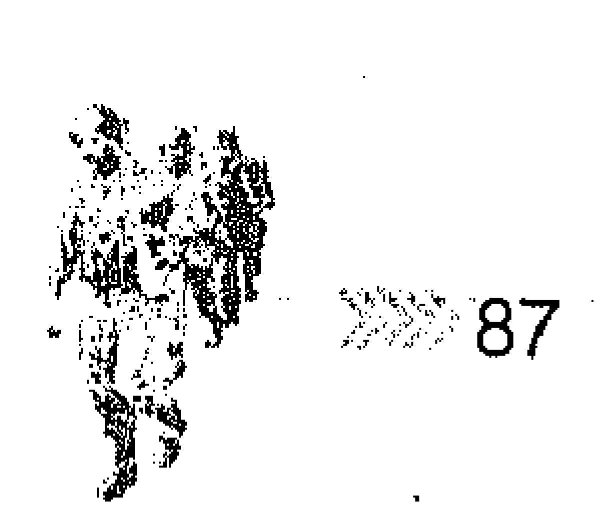
- **اطمئن لست بحاجة إلى مساعدتك!**
- **اطلب منها أن تأتي لتجلس هنا..**

أشار له محمود أن ينتظر، ومضى من جديد إلى مائدة فرح.. جلس بجوارها يتحدث معها لدقيقتين أو ثلاث، قبل أن يعود من جديد إلى عماد، وقال له:

اسمع.. تقول إنها يمكن أن تطلب من صديقة لبنانية لها أن تأتي لتسهر معنا في بيتها، وبالتالي يمكنك أن تأتي أيضًا.. ما رأيك؟

بدا التردد على وجه عماد، فمال محمود نحوه وهمس في أذنه:

- **ألم أقل لك؟ كل شيء مباح في بيروت!**



8

هل يدفع المحبُّون كل هذا الثمن للحب؟

صحيح أن الحب هو أرقى إحساس وضعه الله في قلوب البشر، لكنَّه يأخذ الكثير من طاقتهم ووقتهم وحياتهم.. يضيعون حياتهم في شوق ولهفة وترقب ووصال وخلاف وفراق.. الحب الذي هزم أقوى الرجال، والذي أشعل أعتى الحروب عبر التاريخ.. ألم يتسبب غرام الأمير باريس بالملكة «هلين» وهروبها معه إلى طروادة، في حرب عاتية بين الإغريق والطرواديين استمرت عشرة أعوام كاملة؟ ألم يتحدَّ القائد الروماني العظيم أنطونيوس شعبه، من أجل حبه لكليوباترا، بل ينتحر متخلّيًا عن إمبراطوريته العظيمة عندما بلغه خبر كاذب عن مصرعها؟ ألم تتحدَّ الملكة جونيفير زوجها الملك آرثر، وتُضَحِّ بكل شيء من أجل عيون حبيبها السير لانسيلوت؟ ومثلها فعلت الأميرة ديانا التي تحدَّت الأسرة الملكية من أجل عيون عشيقها دودي الفايد، ودفع الاثنان حياتهما ثمنًا لقصة حب تابعها العالم أجمع؟

كل هـذه الخواطـر دارت في ذهن ندى، وهي تتجوَّل مع رشـا في مول سـيتي سـتارز.. ظلت صامتة وشـاردة أغلب الوقت، وكانت رشـا تفهم السبب طبعًا.. حبيبها ليس هنا في أرض الوطن.. عماد في لبنان.

لا بـد أن كل من حولهـا لاحظوا شرودها الدائم.. منذ اسـتيقظت من نومها وهي لا تتكلم مع أحد.. ظلّت في غرفتها لساعات تقاوم حنينًا هائلًا لعماد.. تريد أن تتصل به لتطمئن عليه.. هل وصل بيروت؟ لماذا لم يكلِّمها ويُطمئنهـا؟ ينبغـي عليه هو أن يتَّصل بهـا.. لماذا يتعمّد دائـمًا إثارة قلقها؟ قضت سـاعات طويلة على فراشها تستمع لأغاني عبد الحليم حافظ الذي لم تسـمعه منذ زمن.. أثارتها أغاني الشـوق والحنين أكثر وأكثر، ووجدت نفسها غارقة في دوامة من الحيرة والشجن.. كان عماد معها أمس فحسب، فلِمَ كل هذا القلق؟

وأخيرًا استسـلمت، واتصلت به.. رنين طويل ولا أحد يردُّ.. هل هو نائم؟.. هل تـرك جوَّاله وذهـب للتجـوال، أم أنه يتعمّد تجاهلها؟ حسـنًا يا عماد.

على مائدة الغداء التي جمعتها مع أمها ووالدها وحسـام، ظلَّت صامتة شاردة.. سألها الأب وقد لاحظ أنها جالسة معهم لا تأكل:

- **ما لك يا ندى؟**
- **لا شيء..**

هنا اخترقتها نظرات حسام الحادة، وهو يُعلِّق ساخرًا:



- **تلاقيها بتفكر في حبيب القلب.**

عندما اتصلت بها رشا، ودعتها للذهاب للتسوُّق، لم تمانع ندى.. فرصة كي تتهرب من هذا القلق الذي لا معنى له.. استأذنت أمها، وتشاجرت مع حسام كالعادة عندما اعترض على ملابسها؛ لأن الجونلة «قصيرة».. قالت له بحزم: «ملكش دعوة بيا».. أصرَّت هذه المرة على موقفها، ووافقتها الأم وقالت إنها «خارجة مع صاحباتها».. وأخيرًا تركها حسام تمضي وهو يغلي غيظًا.

حتَّى التسوق لم يُخرجها من حالتها.. أبدت لرشا قلقها، فطمأنتها وقالت لها: ألا تقلقي..

- **لا بد أن عماد مشغول ببيروت.. لماذا تقلقين؟ أنت تعرفينه جيدًا.. هو يتعمد ذلك أكثر الوقت.**

كانت رشا أقرب صديقاتها، زميلتها من أيام الدبلومة الأمريكية، وهي تشبهها في أشياء كثيرة.. ليست محجّبة، تلبسان بطريقة متشابهة.. الأهم أنها تعرف كل أسرار علاقتها مع عماد، وهي التي تُمدُّها -بصفة دائمة- بالنصائح في التعامل مع فتاها بحكم خبرتها في الحب.. نعم، رشا تحب ابن عمها منذ طفولتها، وارتبطت به رسميًّا منذ ثلاثة أشهر!

راحت الفتاتان تتنقلان بين محلات التوكيلات العالمية، دون أن تشتريا شيئًا.. لم تكن ندى ترغب في تجربة أو شراء أي شيء، واضطرت إلى أن

تنتظر صديقتها وهي تقيس الأحذية والبلوزات مرات عديدة.. أخيرًا جلستا تتناولان العشاء في الفوود كورت.. ظلَّت ندى تأكل بصمت، وهي تستعيد ذكرياتها مع عماد في المكان.. هنا ابتاعا بنطلونه الجينز الكحلي، وهنا جرَّبا كل شيء بالمحل ولم يشتريا شيئًا وخرجا يضحكان، وهنا.. .هنا جلسا يأكلان البيتزا آخر مرة!

قررت ندى أن تكتب رسالة ثالثة لعماد.. اعترضت رشا وقالت:

- **أنت عبيطة يا بنتي.. ثلاث رسائل وهو يتجاهلك.. تجاهليه أنت أيضًا، ولسوف يتصل بك.. لا بد أن تفهمي أنه يتعمّد ذلك.**

انتهت ندى من كتابة الرسالة، فأصرت رشا ألا ترسلها، ووافقتها ندى على مضض.. جاءها اتصال من أمها تطمئن عليها، وتطلب منها أن تبدأ رحلة العودة إلى المعادي؛ لأن حسام يسأل عنها كل خمس دقائق، ويملأ البيت صراخًا.. وسمعت صوته يصيح: «إزاي البت تفضل برَّه البيت لحد الساعة عشرة؟».

نهضت ندى وقررت أن تعود، وقالت رشا إنها ستنتظر عمتها التي ستأتي كي تأخذها من سيتي ستارز لتبيت عندها.. إذن ستعود ندى وحدها.. ودَّعت صديقتها وقبَّلتها واتفقتا أن تدردشا عبر الماسنجر غدًا..

في الشارع المجاور للمول، سارت ندى تبحث عن «تاكسي».. لم يتوقف لها أي «تاكسي» فظلَّت تسير في الاتجاه الذي خمَّنت أنه يؤدي إلى

شـارع مكرم عبيد، حيث يمكنها أن تجد الكثير من التاكسـيات.. هي لا تعرف مدينة نصر، ولا تأتي إليها إلا للتسـوُّق.. كان الشـارع الذي سارت فيه أكثر هدوءًا، وغير مألوف، فخمّنت أنها أخذت الاتجاه الخطأ.. وقفت لحظات، تذكرت خلالها رسـالتها التي كتبتها لعماد ولم ترسـلها.. ترددت لحظة ثم ضغطت زر الإرسال في جوّالها!

رأت سيَّارة مسرعـة قادمـة، رفعـت نـدى يدهـا تستوقفها، ظانة أنها «تاكسي».. لم تكن كذلك.. لمع ضوء مصباحي السيارة في وجهها ولم تميز أنها ملاكي من النظرة الأولى.. سيارة مرسيدس فاخرة يقودها شاب ضخم الجسـد، أغرق شـعره «بالچيل» ويرتدى «تيشـيرت» أسـود مرسومًا عليه جمجمة كبيرة.. أشارت ندى بيدها معتذرة، وأبعدت نظرها عن السيارة .

لكـن المرسـيدس توقفـت إلى جوارهـا، وأنزل الشـاب زجـاج نافذته ليتحدَّث إليها.. لاحظت ندى ذلك، فقررت أن تتظاهر بسؤاله.. أشارت لاتجاه الطريق وتساءلت:

- **أليس هذا هو الطريق لمكرم عبيد؟**

ابتسـم الشـاب ابتسامة واسعة، لم ترق لها، ولمعت عيناه وقال لها كأنه لم يسمعها:

- **ما تيجي معايا!**

لم يبـد الفتى غير طبيعي.. نظراته حادة أكثر من اللازم.. عيناه تأكلانها أكلًا، وتتنقلان ما بين سـاقيها وصدرها.. وقفت لحظة تعدل من ملابسها

مرتبكـة، وقررت أن تمضي.. الشـارع هادئ ولا يبـدو أن أحدًا يلاحظ ما يحدث.. يا للمصيبة!

مضى الشـاب خلفها بسـيارته.. مال بمقدمة السيارة ليعترض طريقها ويوقفها وقال لها:

- **هوصّلك.. خايفة ليه؟**

هـل تـصرخ؟ لا، لا تريـد فضائـح.. فقـط عليهـا أن تتجاهله وتمضي في ثبـات حتَّـى يمـلّ ويتركهـا.. تراجعت بسرعـة وقفـزت إلى الرصيف وواصلت السـير بخطـوات مسرعة.. لم يتركها.. لدهشـتها وجدته يركن السـيارة -كيفـما اتفق- صفًّا ثانيًـا على الطريق، ويقفـز خارجها.. لحق بها وأمسـك بذراعها، فواجهته عازمة أن تسبَّه بأعلى مـا يمكنها من صوت، كـي تلفت أنظـار المارة القليلـين.. فوجئت به يقترب بفمه منها، فشـمَّت رائحة السـجائر الغريبة تفوح منه -فكَّرت أنها ربما رائحة الحشـيش رغم أنها لم تشم حشيشًا من قبل- بينما اتسعت عيناه بنظرة مجنونة وهو يهمس:

- **تاخدي كام وتيجي معايا؟**

لا تـدري كيف واتتها الجـرأة لتفعل ذلك.. أول مـرة في حياتها تصفع أحدًا.. رفعت يدها وهوت بأعتى ضربة ممكنة على وجهه، وهي تصرخ:

- **يا حيوان!**

حاولـت أن تفلـت مـن ذراعـه، لكنَّه جذبها مـن بلوزتها بقـوة، وبيده



الأخرى قبض على شعرها الطويل المنسدل على كتفيها.. ظلت تصرخ تصرخ تصرخ.. تجمَّع بعض المارة، لم تعرف ندى من أين أتوا، وتعالت صيحات كثيرة وهتافات.. جاءت سيدة كبيرة محجَّبة وأمسكت بندى وقادتها لجانب الطريق، وهي تربِّت كتفها بحنان.. لم تستوعب ندى ما يحدث.. فقط فهمت أن الفتى يزعم أنها هي من حاولت إغواءه، ولما رفضها، وقال لها «يلا يا مومس» فضحته.. يا للحقير!

قادتها السيدة إلى سيارتها، وأجلستها بجوارها، وراحت تربِّت كتفها، وتهدئ من روعها، وناولتها علبة المناديل الورقية.. حكت بكلمات باكية مبحوحة كيف أن الفتى تحرَّش بها، وأقسمت بالله العظيم إنه كاذب.. جاء شاب أسمر بزجاجة ماء معدنية صغيرة، من كشك البقالة الصغير الذي يعمل فيه، وناولها لها.. وقال:

- **أنا أصدقك يا آنسة.. لقد رأيت كل شيء..**

ثم رمقها بنظرة لائمة، وأردف قبل أن ينصرف:

- **لكن أنت أيضًا مخطئة.. إذا كنتِ ترتدين شيئًا محترمًا ما كان فعل ذلك..**

كان عدد من الرجال والشبان يمسكون بالفتى، ويتناقشون معه بصوتٍ عالٍ.. قالت ندى للسيدة وهي تتفحص القطع الذي لحق ببلوزتها عند صدرها:

- **من فضلك دعينا نبتعد عن هذا المكان.. لقد انتهى الأمر..**

سألتها السيدة بحذر وهي تجلس جوارها على مقعد القيادة وتُدير السيارة:

- **ألا تريدين الذهاب لقسم الشرطة؟**

تطلَّعت لها ندى بعينين دامعتين في حيرة ولم تردَّ.. أضافت السيدة وهي تنطلق بالسيارة:

- **والله أقول لك.. أحسن لا.. لن يتعاطف معك الضباط هناك عندما يرون ملابسك هذه.. أين تسكنين؟**

أخذتها السيدة بسعة صدر إلى المعادي، رغم أنها تقطن في الحي العاشر.. قالت إن اسمها مدام حنان، ناظرة مدرسة إعدادية حكومية في مصر الجديدة.. ظلَّت ندى تبكي طوال الطريق، وهي لا تصدق أن هذا قد حدث لها حقًّا.. لم يؤلمها ما فعله الفتى المسطول بها، بقدر ما أوجعتها نظرات الناس المتشفِّية.. الكل كان يأكل جسدها بعينيه ولسان حاله يقول: « تستاهلي!».

صعدت معها مدام حنان إلى شقتها.. ما إن فتح حسام الباب حتَّى اتسعت عيناه في فزع، وصاح ينادي أمه.. أقبلت الأم ملهوفة لترى ندى بوجهها الشاحب وعينيها المتنفختين، فصرخت الأم مولولة على الفور.. تدخَّلت مدام حنان وهدأت من روع الجميع، وجلست في الصالون مع

حسام والأم، تشرح لهما ما حدث.. كان الأب نائمًا ولكنه استيقظ على صرخات الأم، وجاء ليسمع ما حدث.. مضت ندى إلى غرفتها تبكي في صمت، وأذناها تنصتان لما يحدث بالصالون..

شربت مدام حنان الشاي، وتبادلت أرقام هواتفها مع أم ندى، ثم نهضت وقالت إنها تأخرت كثيرًا عن بيتها.. الساعة الواحدة صباحًا.. شكرها الأب بشدة، وأعطاها كارته الشخصي وقال إنه يرحب بمساعدتها في أي خدمة تحتاجها، أو شراء أي شيء من شركته، واحتضنتها الأم بقوة، وهي تودعها كأنها صديقة مقرَّبة.. وعلى الباب قالت مدام حنان بحكمة:

- إنتم باين عليكم عائلة محافظة ومحترمة.. لماذا تتركون بنتكم تمشي في الشارع بهذه الملابس؟ شبابنا محروم يا سادة ومش لاقي يتجوِّز!

وما إن ذهبت مدام حنان حتَّى بدأت المعركة!

■■■

9

«أحِبَّ ما تعمل حتَّى تعملَ ما تحب».

كتبتها بخط كبير بالعربية والإنجليزية على ورقة بيضاء، وألصقتُها على الحائط أمامي، ظللت أستعيد هذه العبارة المأثورة طوال ساعات العمل، محاولًا أن أعشق كل هذا.. أستمتع بإعداد قائمة جديدة من الشركات.. أطبع الفاكسات.. أقف أمام جهاز الفاكس الأحدث نسبيًّا، لأرسل الفاكسات لأكثر من نصف ساعة.. إذا كنت قد استخدمت الفاكس العتيق الآخر، لاستغرق الأمر ضعف الوقت على الأقل.. ثم أجلس على مكتبي أُجري عددًا من الاتصالات الهاتفية، وأردد نفس الكلام على مسامع السكرتيرة أو مدير الشركة أو مدير التسويق.. حاولت أن أفعل كل هذا بحب واستمتاع هذه المرة، مُقتديًا بأسامة الذي يبدو أنه يستمتع بكل مكالمة يُجريها، وكل رد بالموافقة أو حتَّى بالرفض يتلقاه.

كنت أشعر بوحدة غريبة.. اليوم عماد ليس هنا في مصر كي أحادثه إذا مللت من العمل.. أحيانًا أهرب من الفاكسات والاتصالات الهاتفية إلى

الإنترنت.. أظل أتنقَّل بين مواقع الأخبار والصحف العربية حتَّى أملَّها بدورها وأعود إلى الدائرة المفرغة.. آلو.. شادي الحسيني من السفارة الأمريكية.. ممكن أكلّم رئيس مجلس الإدارة؟

عندما خرج أسامة ليبتاع قطعة بيتزا من مطعم السفارة، وجدت الفرصة سانحة أخيرًا لأحادث أهلي في المنصورة.. كلّمت البيت عدة مرات، ولم أتلق ردًّا.. الرنين الطويل المتصل دون مجيب.. حاولت أن أتذكّر رقم موبايل شقيقتي مها، وكتبت أمامي عدة خيارات تعشَّمت أن يكون أحدها رقمها.. أجريت محاولتين قبل أن يصل صوتها قلقًا مضطربًا تتساءل عمن يحدثها..

- **أنا شادي يا مها.. أتحدث من السفارة..**
- **إزيك يا شادي. كيف حال العمل؟**

سألتها لماذا لا يوجد أحد بالمنزل على غير العادة، فبدا على صوتها التردد.. انتابني القلق وأصررت أن أعرف ما يحدث.. قالت لي بعبارات موجزة إن والدي قد شعر ببعض التعب وذهبت أمي معه إلى الطبيب.. الضغط مرتفع قليلًا.. وقالت لي ألا أقلق!

يا الله! هذا ما كان ينقصني! تزايد شعوري بالكآبة فجأة.. هنا دخل أسامة الغرفة حاملًا كيسًا من الشيبسي، قدّمه لي كي آخذ منه، فشكرته.. دخلت داليا خلفه وقالت في فخر إنها تنتظر ثلاثة عملاء اليوم لتوقِّع معهم العقود!

قلت إنني ذاهب إلى الحمام، وتركتهما.. اتجهت للحمام وتوضّأت.. نزلت إلى المسجد -الغرفة الصغيرة التي يسمونها كذلك- وانضممت لجماعة من ثلاثة موظفين يُصلّون الظهر.. شعرت ببعض الطمأنينة بعد الصلاة، وجلست في ركن الغرفة أرضًا، التقطت مصحفًا من المصاحف القليلة المرصوصة في مكتبة خشبية صغيرة.. قرأت سورة الرحمن ثم الواقعة، ثم قرأت (يس) مرتين أو ثلاثًا وتوقّفت قليلًا عند قوله سبحانه وتعالى: ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾. صدق الله العظيم.

شعرت أني أحسن حالًا أني، فعدتُ أدراجي إلى القسم التجاري.. قال لي أسامة إن هاتفي رنّ مرارًا وإنّه ردّ بنفسه.. سألته عن الشركة التي اتصلت، فقال إنه ترك لي ورقة على مكتبي.. رأيت الورقة الصفراء الصغيرة التي نستخدم مثلها لكتابة الملاحظات ولصقها على مكاتبنا.. بخطه الإنجليزي الركيك كتب: «الاتحاد للإلكترونيات.. مهندس إسماعيل عبد الرحمن.. يريد الاستفسار عن برنامج السفارة» ثم رقم هاتف.. اتصلت بالرقم، فردّت عليّ السكرتيرة، عرّفتها بنفسي، فرحّبت بي، وحوّلتني إلى مديرها.. كان الرجل ودودًا، راح يسأل الكثير من الأسئلة.. قال إنه عضو في الغرفة التجارية الأمريكية، فما الجديد في برنامج السفارة، عما يقدمونه في الغرفة التجارية؟ لم أكن أعرف ما الذي يقدّمونه هناك، فرحت أشرح له المزايا المختلفة كما لقننا إياها باهي.. استمع لي الرجل باهتمام، ثم قال

إنه سيفكر ويتصل بي.. وكما تعلمت قلت له إنني يمكنني أن أتصل به بعد أسبوع، فوافق الرجل واتفقنا على مكالمة الإثنين القادم، بعد الثانية عشرة ظهرًا.. وهكذا بحثت عن اسم شركته في قائمة الشركات، وكتبت في صفحة برنامج excel اسمه، وأنه اتصل بي وأبدى اهتمامًا، ثم تواعدنا..

سألني أسامة:

- **هل راسلت شركة في الإسكندرية اسمها «عصام الدين»؟**
- **لا أعرف.**
- **إذن تأكد.. لقد راسلتها اليوم، فقالوا إنهم تلقوا نفس الفاكس منذ أيام وردّوا بالموافقة.. داليا تقول إنها لم تراسلهم.. أريد أن أتأكد إذا كنت راسلتهم فعلًا أم لا.**
- **حاضر.**

وأجريت بحثًا سريعًا بين قوائمي، فلم أجد اسم الشركة.. بدت الحيرة على وجه أسامة، وسألني:

- **والحل؟**
- **تجاهل الشركة وواصل عملك مع شركات أخرى.**
- **ولم لا أواصل معهم؟ لقد قالوا إنهم ردوا بالموافقة رغم أنهم لم يتلقوا شيئًا منا .. ثمة شيء ما خطأ.**



- **إذن عاود الاتصال بهم.**

قلتها لامباليًا، وغادرت المكتب إلى الخارج، ولاحظت أن باهي ليس موجودًا في مكتبه.. أين هو اليوم؟ لقد رأيته في الصباح مرة واحدة ثم غاب أكثر اليوم.. ليته يفعل ذلك كل يوم!

مررتُ على جهاز الفاكس، وأخذت الفاكسات المستقبلة، ووزَّعتها على داليا وأسامة باسم المرسل إليه.. كان هناك فاكس من خمس ورقات باسم هايدي، فاتجهت إلى مكتبها لأعطيها إياه.. استقبلتني بابتسامتها اللذيذة، وقالت إنني لا أبدو على ما يرام اليوم.

- **لا شيء.. أنا في خير حال..**

- **تكذب على عمتك هايدي؟ أرى في عينيك حزنًا كبيرًا! هل...؟**

وصمتت تاركة سؤالها يحمل عشرات المعاني.. وقفت في حيرة عاجزًا عن الرد.. تُعجبني فيها محاولاتها الدءوب لتصير صديقة أو حتَّى زميلة مُقرَّبة، لكنني للأسف أعجز عن الرد أمام كل هذا الجمال، وكل هذه الأنوثة.. لا بد أن وجهي احمرَّ خجلًا وأنا أقول بلهجة شبه رسمية:

- **والله أنا بخير.. شكرًا لاهتمامك.**

ثم ناولتها الفاكس، وهممت بالمغادرة وهي تقول لي:

- **إذا أردتَ أي استشارة نسائية، فعمتك هايدي خير من تستشيرها في هذه الأمور.**



ابتسمت وشكرتها.. لولا هذه الفتاة الظريفة لشعرت بأن كل موظفي السفارة الأمريكية كئيبون، ثقيلو الدم.. عندما عدت لمكتبي، كان أسامة مشغولًا بمكالمة هاتفية مع إحدى الشركات، جلست على مكتبي لأحادث الشركات التي أرسلت لها الفاكس هذا الصباح.. قال لي أسامة بعد أن أنهى مكالمته:

- **مستر باهي يريدك.. كان يبحث عنك!**

أهلًا وسهلًا! ما الذي يريده مستر باهي مني؟

- **وأين هو؟ لم أره في مكتبه.**
- **قال لي: مُرَّ عليه عند مسز بيث.**

بسملتُ في سرِّي واتجهت إلى مكتب مسز بيث.. رأيت القنصل الأمريكي يغادر مكتبه، فلما التقت عينانا، حيَّاني بإيماءة من رأسه.. كان باهي جالسًا أمام مكتب بيث، وكانا يتحدثان.. استأذنت في الدخول، وطلب مني باهي أن أجلس، فجلستُ.. صمتتْ بيث لتعطي لباهي الفرصة في الحديث معي.. يبدو أنهما اتفقا على شيء ما.. تحدث باهي بالإنجليزية حتَّى تفهمنا بيث.. سألني في البداية عن حال العمل، فقلت إن كل شيء تمام، وإنني أتوقّع أن أُوقِّع عشرة عقود خلال الأسبوع القادم.. قالت بيث: إن هذا عظيم وإن عليَّ أن أبذل جهدًا أكبر.. ثم بدأ باهي الموضوع المهم:

- **الأسبوع القادم سيزور السفير الأمريكي مدينة المنصورة.. هل سمعت عن هذه الزيارة؟**

هززتُ رأسي نفيًا رغم أنني قرأت شيئًا ما عنها في إحدى الصحف.. فأكمل:

- **سيادة السفير سيلتقي بالمحافظ، ويقوم بافتتاح عدد من المشروعات التي تموّلها الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية USAID بالمحافظة.. هناك فريق من موظفي السفارة يعمل على ترتيب الزيارة.. أنت من المنصورة، أليس كذلك؟**

- **نعم.. هل تريدونني أن أساعدكم في شيء؟**

- **لا.. العلاقات العامة بالسفارة تتولى هذه الأمور مع المحافظة.. سيادة السفير يحب اصطحاب أبناء المحافظة من العاملين بالسفارة معه خلال زياراته.. يفعل هذا كلما زار طنطا لحضور ذلك المولد الشعبي هناك.**

- **أعرف.. مولد السيد البدوي.**

- **حسنًا، هذا هو كل شيء.. ستنال شرف أن تكون في موكب السفير الأمريكي في المنصورة الإثنين القادم.**

كتمتُ في أعماقي ابتسامة ساخرة لهذا الشرف العظيم، وأضاف باهي:

- **تأكد من إخلاء جدول أعمالك يوم الإثنين القادم من أي مواعيد.. إذا كان هناك أي عملاء قادمين لتوقيع عقود، أعط**



أسماءهم وأرقام هواتفهم لأسامة، وسيتولّى هو الأمر.. ما لك لا تبدو سعيدًا بهذا الحدث الكبير؟!

■■■

كيف لا أكون سعيدًا؟!

انتهيتُ من العمل، وسرت حتَّى الجراج في قلب ميدان التحرير، وركبت سيارتي وانطلقت إلى الزحام الخانق.. اتصلت بأختي مها وسألتها عن أبي، فطمأنتني وقالت إنه الآن في المنزل نائم، وإن كل شيء على ما يرام.. رفضت أن تخبرني بما حدث، وقالت إن الطبيب طمأنهم، وقال إن الضغط كان مرتفعًا ولسوف يعود إلى طبيعته خلال أيام من الراحة وأخذ العلاج.. أنهيت معها الاتصال وقد تبيّنت من صوتها أنها لا تقول الحقيقة.. الأمر أخطر مما قالته!

ترددت قليلًا قبل أن أتخذ قرارًا صعبًا.. سأسافر الآن إلى المنصورة.. إذا لم أفعلها فسأقضي الليلة كلها قلقًا على والدي.. أسافر الآن وأعود في الصباح الباكر إلى السفارة مباشرة.. وهكذا اتصلت بصديقي عمر وقلت له إنني سأسافر إلى المنصورة ولن أقضي الليلة معه، وبحثت بين أسطواناتي المدمجة في تابلوه السيارة عن أسطوانة القرآن الكريم، لم أجد سوى سورة يوسف بصوت الشيخ محمد جبريل.. مسحت التراب من عليها، فأنا لم أستعملها منذ أكثر من شهر.. شغلتها وضبطت تكييف السيارة، وبدأت رحلتي.. فقط أتعشّم ألا تكون الطريق مزدحمة.

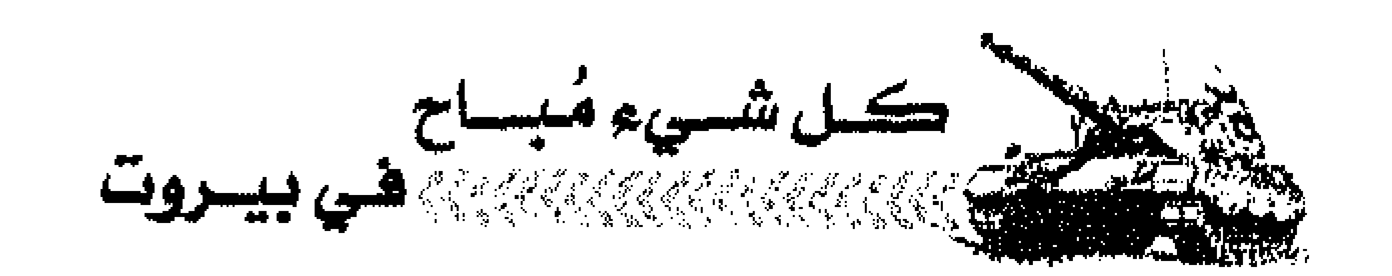
تذكّـرت عماد.. لا بد أنه الآن يمرح في شـوارع بـيروت، بين متاجرها وملاهيها ونسائها.. تذكرت كيف لم يبدلي طبيعيًّا قطُّ عندما قابلته بالأمس، لا بد أن ثمة مشكلة ما بينه وبين والده.. لا بأس.. سيعرف عماد كيف يترك كل شيء خلف ظهره ويستمتع بوقته جيدًا في إجازته.. عماد يجيد الاستمتاع بوقته!

وصلت البيت في نحو السـابعة مسـاء.. قابلت عم سـعيد البواب عند مدخل العمارة، فسـألته بلهفـة عن والدي.. قال إن الحـاج قد أُغمي عليه ليلة أمس، واسـتدعوا له الطبيب، ثم نقلوه بعدها إلى المستشفى، وقد عاد بسـلامة الله اليوم.. أعطيته ورقة نقديـة بعشرة جنيهات وتجاهلت المصعد الذي كان في الطابق السادس، وعدوت إلى الطابق الثالث حيث شقتنا..

كانـت مها جالسـة أمـام الكمبيوتر تفعل شـيئًا ما، لما رأتنـي أغلقته.. حييتهـا فبادلتنـي التحيـة مندهشـة لقدومـي وسـألتها عـن أبي، وقبل أن أسـمع ردها، اتجهت إلى غرفته.. كانت الغرفة مضاءة ورأيت أبي نائمًا على الفـراش، وإلى جواره عدد مـن الأدوية، وخالتي جالسـة مع أمي.. بدت الدهشـة عـلى وجهيهـما وأنا أصافـح خالتـي، فقبلتني ثـلاث قبلات على خـدي، وعانقـت أمي فقبلتنـي بدورها.. سـألتني أمي لمـاذا تركت عملي وأتيت.. لم أرد واقتربت من أبي أتأكد أنه يتنفس حقًّا.. قالت أمي:

- **لا تقلق.. وعكة صـحية بسـيطة والحمد لله.. إنه نائم الآن.. هل لديك عمل غدًا؟**





- **سأسافر بعد الفجر لألحق بالعمل.. ماذا حدث؟**

تبادلت خالتي وأمي النظرات، فأدركت أنهما تخفيان شيئًا.. وقالت أمي:

- **كان في العمل وشعر ببعض التعب فذهبنا به إلى المستشفى.. سيرتاح يومين ويذهب للعمل من جديد.**

لم أشأ أن أستفسر أكثر منهما.. تركتهما وذهبت إلى مها وطلبت منها أن أسمع القصة كاملة.. ماذا حدث بالضبط؟

- **ماما وبابا.. تشاجرا!**
- **تشاجرا؟**

قلتها مندهشًا.. آخر شيء توقعته.. قالت أختي:

- **نعم تشاجرا.. سبب تافه.. أرادت أمي أن تذهب للبلد لقضاء ليلتين مع خالاتي يُعْدِدْنَ الطعام ويجهّزن لزواج أحمد ابن خالتنا.. رفض أبي بشدة.. اختلفا وتشاجرا.. تعالت أصواتهما وأصرّت أمي على الذهاب فحلف أبي بالطلاق أنها لن تخرج من البيت إلا لحضور حفل الزفاف وحسب.. بكت أمي لكن أبي أصرَّ بشدة.. كان منفعلا جدًا وفجأة وجدناه ممددًا على الأرض وقد فقد وعيه.. الدكتور منصور قال لا بد أن ننقله للمستشفى..**
- **لا حول ولا قوة إلا بالله! يتشاجران في هذه السن؟!**

وتركتها إلى غرفتي.. أتذكر في طفولتي أن أبي وأمي كانا يتشاجران



كثيرًا لأسباب تافهة.. ذات مرة غضبت أمي وذهبت لخالتي وقضت شهرًا كاملًا في بيتها، رافضة كل محاولات الصلح مع أبي.. منذ التحقت بالجامعة وذهبت للدراسة بالقاهرة، ابتعدت تمامًا عن خلافاتها التي تقع من حين لآخر، فلم أعد أسمع عنها إلا من مها في إجازاتي في المنصورة.. صارت مها هي حلقة اتصالي الوحيدة مع البيت ومشاكله الكثيرة!

في المساء، خرجت لأقابل أصدقائي.. لقد تخرّج كثير منهم في الجامعة، وصاروا بالتالي عاطلين.. جلسنا في مقهانا المفضل على المشّاية نرمق النيل.. وسط روائح الشيشة المختلفة مضوا يتحدثون عن أحوالهم.. كان موضوع الخدمة العسكرية مسيطرًا على الحوار.. فتحي سيلتحق بالجيش ضابطًا لمدة ثلاثة أعوام، وكل خريجي التجارة أخذهم الجيش.. عمرو أخذ تأجيلًا، وسامح مواليد النصف الثاني.. .يتحدد جيشه في أكتوبر!.. لحسن الحظ لم يتطرّق الحديث لعملي، وسرعان ما تحوّل الحديث إلى الفتيات كالعادة.. سميرة تمشي هذه الأيام مع ماجد بعد أن تشاجرت مع ياسين، وياسين بدوره لن يسكت.. الكل بانتظار انتقامه الأسطوري!

شعرت بالملل سريعًا، واعتذرت لهم وتركتهم.. عدت للمنزل وكان أبي مستيقظًا، ولا يزال مسترخيًا على فراشه.. حيّيته وقبّلته وسألته عن حاله وصحته.. بدا لي وجهه شاحبًا لكنّه قال إنه بخير.. تخيّلت أني أحتضنه بقوة وأُقبّل يديه كما نرى الأبناء الأوفياء يفعلون في الأفلام، لكنني لم أفعل ذلك من قبل قطُّ.. جلست على الفراش، وتحدثت معه قليلًا.. سألني عن

العمـل وأحوالـه، فقلت إن كل شيء على ما يرام، وأضفت أنني مسـتمتع جدًّا به!

استيقظت في اليوم التالي في الخامسـة والنصف على صوت المنبه، وفي السادسـة انطلقت في طريقي صوب القاهرة.. شـعرت بأنني أفضل حالًا اليـوم ممـا كنـت عليه بالأمـس، وحاولـت أن أتناسـى مهامـي القادمة في العمل.. الفاكسات والاتصالات الهاتفية والعقود!

ما إن رأيت مباني السـفارة، حتَّى عاودني الشـعور بالكآبة.. إحسـاس ثقيـل يملأ قلبـي ويُنفّرني من العمل ومن السـفارة، خاصـة أنني وصلت متأخرًا نصف ساعة.. عند المدخل ألقيت السلام على رجلي الأمن وسألت عـما إذا كان مسـتر باهي قد وصل أم لا، فقال أحدهمـا إنه لم يره، لكن ربما يكون قد دخل من المدخل الآخر!

دخلت القسـم التجـاري في حذر، وألقيت التحية على داليا والأسـتاذ حسـين، وتسـللت بهـدوء إلى غرفتي.. كان أسـامة يتحـدث في الهاتف.. أسرعت بالجلوس على مكتبي ورأيت عددًا من ردود الفاكسات موضوعة أمامي.. تصفّحتها بسرعة قبل أن أسمع صوت باهي يداهمني من الخلف، ككوب من الماء البارد صُبَّ فوق رأسي:

- **شادي.. لماذا تأخرت؟!**

■■■



10

وسط بيروت في الثالثة بعد منتصف الليل..

الصخب قد قلَّ كثيرًا، ولا يزال البعض جالسين على المقاهي والمطاعم، على جوانب ساحة النجمة.. شاب في حضن فتاة جالسين أرضًا بجوار برج الساعة - الذي يتوسّط الساحة - وقد بدا أنهما ثملان تمامًا.. عدد من الفتيان يمزحون بصوت عالٍ، خارجين من أحد المقاهي، بينما يقف رجلان بملابس الجيش حاملين بندقيتين كبيرتين وسط الساحة.

من أحد الشوارع، ظهر عماد يسير واضعًا يديه في جيبه، وبجواره محمود يحيط خصر فرح بذراعه.. كانوا قد غادروا الملهى الليلي منذ قليل، وساروا من الجميزة إلى ساحة الشهداء التي أصرّت فرح أن تُريها لهما، وقالت إنها الساحة التي شهدت المظاهرات المليونية العام الماضي عقب اغتيال الحريري.

لا يزال مذاق النبيذ في فمه، يشعر بثقله، وقد بدأ يشعر بالصداع في

مؤخرة رأسه.. عندما قال لمحمود إنه بدأ يثمل، قال له محمود إن ذلك بتأثير الإيحاء لا أكثر؛ لأنّه لم يشرب شيئًا تقريبًا.. «يا بني كيف تثمل وأنت لم تشرب جرعتين كاملتين؟».

واتفقا أن يذهبا مع فرح.. تقول إن بيتها قريب، وستأتي صديقتها إليهم.. ترى، ما الذي تنوي فعله معهما؟ هل حقًّا الأمر بهذه البساطة؟ يبدو محمود مبتهجًا وهو يخوض هذه المغامرة.. لسوف تكون موضوعًا مفضلًا يحكيه لأصدقائه عندما يعود إلى مصر.. نام مع فتاة لبنانية رائعة الجمال في أول ليلة له في بيروت!.. من يفعل ذلك؟ من يُصدّق هذا؟

أما عماد، فكان مترددًا.. ترى كيف ستكون صديقتها؟ هل معنى أن تدعوه وتدعو صديقتها أنهما ينويان ما يفكر فيه؟ وماذا عنه هو؟ هل يقبل؟ وهل معنى ذلك أنه يخون ندى؟!! أسئلة كثيرة راحت تلحُّ على عقله، وهو يسير إلى جوار محمود.. ظلت فرح تحكي له عن ذكرياتها هنا وهناك في وسط بيروت حتّى وصلا بيتها..

عندما دخلا الشقة الواسعة الفاخرة، لاحظ عماد على الفور صور العذراء والمسيح الطفل والصليب الضخم المعلّق في صدر الصالة.. تقدّمتهما فرح، فمال محمود ليهمس في أذن عماد:

- **بنت الإيه.. أترى ما أراه؟**

رد عماد متهكمًا:



- **يا نهار أبيض..**

قالت فرح وهي تشير لهما بالجلوس، وقد بدا أنها لاحظت تهامسهما:

- **هذه شقة أبي.. اشتراها منذ سنوات لتكون مقرًا لنا في بيروت.. نحن أصلًا من الشمال.. من بشرى لو سمعتما عنها.**

رن جرس الباب، وذهبت فرح لتفتح، دخلت فتاة أخرى ترتدي ثوب سهرة آخر، يكشف نصف صدرها، ولا يكاد يغطي ركبتيها.. دخلت وألقت عليهما التحية:

- **بونجور.. كيفكم يا شباب؟**

صافحها عماد متسائلًا في نفسه عما إذا كانت هذه هي فتاته المنتظرة، وتخيّل نفسه معها بعد قليل.. لم تطل حيرته لأن فرح قالت:

- **دينا.. صديقتي.**

جلست الفتاة بجوار عماد مباشرة، بعد أن غمزت لها فرح تجاهه.. أحسَّ الفتى بتوتر مفاجئ، ومد عينيه يتطلّع لها وللثوب الذي انحسر عن فخذيها.. لاحظت دينا نظراته فابتسمت بثقة، وتساءلت:

- **أنتما من مصر؟**
- **من الإسكندرية.**

هكذا رد محمود مبتسمًا، فصاحت دينا:



- **تحيا مصر!**
- **تحيا لبنان!**

ردت دينا مصححة:

- **عاش لبنان!**

ثم داعبت بأناملها شعر عماد، فنظر لها الفتى مندهشًا للحظة، وهي تسأله:

- **شو عجبك لبنان؟**

قال عماد محاولًا أن يبدو ثابتًا:

- **لم نمضِ هنا سوى يوم واحد فحسب.. لم نر سوى بيروت بعد.**

أسرع محمود يصيح:

- **لبنان كتير حلو.. متل بناته!**

أخرجت دينا سيجارة من علبتها وأشعلتها وبدأت تنفث دخانها باستمتاع في اتجاه عماد.. دار بينهما حديث عادي، وعماد ومحمود يتبادلان النظرات من حين لآخر، بمعنى «متى ينتهي الكلام؟».. راحت فرح تتحدث عن انبهارها ببيروت التي تتغيّر بسرعة مدهشة من زيارة لأخرى.. سألها محمود عن حياتها في هولندا، ليس اهتمامًا بها بقدر ما هو محاولة لكسر حالة الجمود التي تخيم على لقاءات التعارف الأولى.. كانت فرح ترمقه طوال الوقت بنظرات طويلة شاردة، وهي تحكي أنها عاشت

سـنوات طفولتها الأولى في بـيروت قبل أن يتخذ والداهـا قرار الهجرة في خلال سنوات الحرب.. لكن لبنان أجمل من هولندا كثيرًا!

أخـذت دينـا تدخن بلا كلـل، وكان الدخان الخارج مـن فمها يضايق عـماد، لكنّـه لم يظهر أي ضيق منها.. بقيت دينـا صامتة أغلب الوقت، فلا تتدخـل في الحديـث إلا من حين لآخر، لتقول تعليقًـا طريفًا أو تنهمك في محادثة سريعة باللبنانية مع فرح، وهنا لا يفهم عماد أغلب حديثهما.. عندما يتحـدث اللبنانيون مع بعضهم البعض بسرعة تجد كلامهم قد صار غريبًا وغير مفهوم.. أما عندما يتحدثون إليك، فلا بد أن تذوب عشقًا في اللهجة اللبنانيـة.. كان محمود يحاول أن يتحـدث باللبنانية أحيانًا، فيُعطّش حرف الجيم ويضيف الكثير من «شو» و«هيك» و«بدّي» إلى كلامه .. أحيانًا كان حديثه يثير ضحكات فرح - مما أسعده بشدة - لأنّه يضيف لفظ «شو» إلى عباراته كثيرًا بضرورة أو بدون.. اكتفى عماد أيضًا بمتابعة الحديث وتبادل حديثًـا آخر بالنظرات مع محمود، ولم يحاول أبـدًا التحدث باللبنانية.. هن يعشقن اللهجة المصرية، فلِمَ يتحدث باللبنانية التي لن يجيدها أبدًا؟

اقتربـت السـاعة من الخامسـة فجرًا، وبدأ عماد يشـعر بالملـل بينما ظل محمـود مسـتمتعًا بالحديـث، وإن بقي السـؤال الـسري في أعماقهـما.. «ما التالي؟ هل سـيقضيان الليلة كلها في هذا الحديث الفارغ؟»، رأى الجواب في عيني محمود لصديقه: «تمهَّلْ يا فتى.. الأمر لا يأتي بهذه السرعة.. لا بد من التعارف أولا»!



بعد قليل، نهضت فرح ووقفت بجوار محمود تداعب شعره بحنان.. ابتسم محمود وغمز لصديقه في مرح.. تثاءبت فرح وأعلنت أنها ترغب في النوم، ونظرت لصديقتها دينا وسألتها:

- **تقضين ليلتك هنا؟**
- **لا.. أعتقد أنني سأعود إلى البيت.. لديّ عمل غدا!**

هنا تطلّعت فرح إلى محمود وعماد، وقالت:

- **وأنتما؟.. لدي غرفة خالية إن أردتما البقاء هنا الليلة.**

بدا الارتباك على وجه محمود وهو ينهض من مقعده، وعماد يكتم ضحكة ساخرة تفجّرت في أعماقه.. قال محمود:

- **أشكرك.. لكنني أفضل الذهاب للفندق.. يمكننا أن نلتقي غدًا.**
- **بالتأكيد.. لا بد أن نلتقي غدًا.**

قالت دينا إن معها سيارتها، وعرضت أن توصلهما إلى الفندق.. تبادلوا أرقام الهواتف ونصحتهما فرح بشراء خط جوال لبناني.. ثم تقدّمت ببطء وطبعت قبلة سريعة على وجنة محمود!

في السيارة ساد الصمت تمامًا، وقد بدت دينا شبه نائمة وهي تقود بسرعة، وكادت تصدم سيارتين في طريقها.. نزل الصديقان في شارع الحمراء أمام الفندق، وتركتهما دينا بعد أن اتفقا أن يتقابلا غدًا.. ما إن ابتعدت بسيارتها، حتّى انفجر عماد ضاحكًا وقال مقلدًا صديقه:

- **ألم أقل لك يا معلم؟ كل شيء مباح في بيروت!**

لكن محمود ردّ بثقة وهو يسبقه نحو مدخل الفندق:

- **ألم تر كيف كانت فرح تنظر لي طوال الوقت؟ ألم تر كيف قبلتني؟ الأمر لا ينتهي في أول لقاء.. غدًا سترى!**

■■■

من يسمع الأخبار في الصباح؟

استيقظ عماد على صوت عالٍ لنشرة أخبار.. الصوت قادم من غرفة مجاورة.. سمع صوت التتر المميز فعرف أنها قناة الجزيرة.. فكّر أن ينهض ويُخبر جاره أن يخفض صوت التليفزيون، ثم تراجع عن الفكرة كسلاً، وفضّل أن يواصل النوم.

دفن عماد رأسه تحت الوسادة، وحاول أن ينام من جديد.. أن يستكمل حلمه مع الفتاة اللبنانية الجميلة.. هي التي راودته عن نفسه، ولم يستطع أن يرفض.. كانت ندى تتصل به لتسأله عن موعد الخطبة؛ لأن أخاها حسام مُصرّ أنه يخدعها وأنه لن يأتي أبدًا.. قال لها باقتضاب: «بعدين.. بعدين» ثم أنهى الاتصال ليتفرغ لفتاته الجديدة.. عندما حانت اللحظة الحاسمة، وجد نفسه يستيقظ على صوت التليفزيون مرة أخرى.. اللعنة! لا بد أن يُنهي هذا الحلم!

لم يستطع النوم بعمق من جديد.. ظل راقدًا على الفراش شاعرًا



بالبرودة – لأنّه ضبط التكييف على درجة 16 ليلة أمس – استعاد لحظات الحلم الجميل، وحاول أن يستكمله بحلم يقظة يرسم تفاصيله بنفسه.. لكن ندى؟.. ماذا عن ندى؟.. لقد حاولت الاتصال به بالأمس مرارًا.. ولم يُجبها.. لا بد أن يتصل بها عندما يستيقظ.. هذه الفتاة البريئة لا تستحق منه ذلك.. ألم يكن مُصرًّا على خطبتها منذ يومين؟

نشرة الأخبار مستمرة، تمتزج بأصوات رجال يتناقشون بصوت عالٍ.. رفع عماد رأسه وألقى نظرة على محمود النائم على الفراش المجاور، محتضنًا الوسادة.. صوت شخيره يرتفع، وجفناه يرتجفان.. لا بد أنه يحلم أيضًا.. ربما بصديقته اللبنانية فرح!

بعد الظهر، استيقظ على رنين جوّاله.. كان المتصل شادي.. ماذا يريد منه صديقه في هذا الوقت؟.. رد عليه فسأله شادي عن أحواله..

- **تمام.. كنت نائمًا.. سأكلمك عندما أستيقظ.. سلام.**
- **انتظر.. هل سمعت عن عملية حزب الله؟**
- **عملية إيه؟ إنت فاضي يا بني.. لم أسمع عنها.. ما شأني أنا؟**

وأنهى الاتصال وقام ليدخل الحمام.. استطاع أن يسمع صوت مذيع الأخبار يتحدث مع محلل سياسي ما عن ردود الفعل عقب عملية حزب الله.. أصاخ عماد السمع قليلًا.. هو يعرف حزب الله.. أليس زعيمه هو ذلك الرجل الملتحي ذا العمامة؟ ماذا كان اسمه؟ نعم، حسن نصر الله..

الرجل الشيعي الذي كان مُدرّسه في حصة الدين في الثانوية يقول عنه إنه كافر.. ماذا فعل هذا الرجل إذن؟ هل فعل شيئًا يستحق أن يتصل به شادي من القاهرة؟

فتح التليفزيون وتخطى قنوات الأغاني الكثيرة إلى قناة الجزيرة.. قرأ في شريط الأخبار أن حزب الله قد اشتبك مع قوة إسرائيلية، ونجح في قتل وجرح بعضهم، واختطف جنديين إسرائيليين.. أين حدث ذلك؟ في جنوب لبنان.. على الشاشة كان المذيع يتحدث مع مراسل الجزيرة من بيروت.. المذيع يقول إن حالة من القلق والترقّب تخيمان على العاصمة اللبنانية بعد عملية حزب الله..

- **تبًّا! هل هذا وقته؟**

كانت هذه من محمود.. أخذ الوسادة في حضنه وجلس على فراشه يتثاءب.. قال عماد في لا مبالاة:

- **هذا في الجنوب.. لا ينبغي أن نقلق.. الجنوب دائمًا مشتعل.. ألم تكن إسرائيل تحتله؟ بيروت بعيدة تمامًا عن التوتر.**

ثم أمسك جهاز التحكم عن بعد، وغيّر القناة إلى محطة لبنانية أخرى، وجد المذيعة أيضًا تتحدث عن توغل إسرائيلي في جنوب لبنان.. انتقل إلى محطة للأغاني وخفض الصوت.. وتساءل:

- **ماذا سنفعل اليوم؟**



- **قشطة يا برنس.. نفطر ثم نكلم فرح.. قالت إنها ستكون سعيدة أن تتجوّل معنا اليوم في بيروت.. غدًا نأخذ التلفريك ونزور تلك المغارة الشهيرة.. ماذا كان اسمها؟**

- **ألن نكلم دينا؟**

- **أنا لا أطيق هذه الفتاة المائعة.. دعنا نقابل فرح أولاً.**

ابتسم عماد بخبث، وقال:

- **هل افتقدتها بهذه السرعة؟ إذن أنا أريد دينا!**

ضحك محمود ضحكة عالية، وصاح:

- **يا معلم لا مجال للمقارنة.. فرح أجمل.**

- **هذه مسألة أذواق.. دينا تروق لي أكثر.. ألم ترصدرها؟**

عاد محمود يضحك بشدة، وقال:

- **هذا آخرك.. تتفرج فقط.. يا معلم فرح وقعت في هواي من أول نظرة!**

- **آه طبعًا.. بدليل أنها وزّعتنا من بيتها بالأمس!**

انهمكا في حديث ساخر يقارنان فيه بين فرح ودينا، وهما يرتديان ملابسهما، قبل أن ينزلا إلى مطعم الفندق، ويطلبا الإفطار.. على شاشة التليفزيون كانت قناة المنار تستعرض مظاهرات فرحة اللبنانيين في

شـوارع بيروت، وأخـذت الكاميرا تقدّم لقطـات للعلـم اللبنـاني، وتنقل عبارات السـعادة والتأييد لعملية «الوعد الصادق».. رجال ونساء وفتيان في الشـارع يهتفون، ويرفعون العلم اللبنـاني ويرقصون، وأطفال يوزعون الحلوى على المارة.. سأل عماد النادل وهو يقدم لهما القهوة التركية:

- **أين يحدث هذا؟ هل هذه الاحتفالات حقًا في بيروت؟**

ألقى النادل نظرة سريعة على التليفزيون، وقال:

- **لا، في الضاحية.. هؤلاء أنصار حزب الله!**

قالهـا ومضى في سـبيله.. انتهى الصديقان من الإفطـار ونزلا يتجوَّلان في شارع الحمراء.. اتصل محمود بفرح، واتفقا أن يتقابلا في ساحة النجمة بعد نصف سـاعة.. اسـتوقف عماد «تاكسي» وسـأله كم سيأخذ إلى وسط بـيروت.. نظر له السـائق مبتسـمًا وسـأله من أيـن هو.. أجابـه محمود من مصر، وأصر أن يعرف أجرته قبل الركوب.. قال السائق:

- **عشرة آلاف ليرة.**

- **ليس معنا ليرات.. دولارات فحسب.**

- **ما في مشكلة.**

وركبـا.. سـألهما السـائق متى جـاءا إلى لبنـان، فأجابه محمـود الجالس بجواره.. قال السائق موضحًا:



- **سأحكي معك مصري.. الدولار هنا مثل الليرة.. الكل يتعامل بالدولارات أيضًا.. من أي مدينة مصرية أنتما؟**

قال محمود وقد وجدها فرصة ليفتح حديثًا مع السائق:

- **الإسكندرية..**

- **زرتها من قبل.. كنت في مصر منذ أعوام.. الإسكندرية مثل بيروت.. لا، البحر هناك أجمل!**

ابتسم محمود وقال:

- **وهنا البنات أجمل كثيرًا!**

كان مذياع السيارة يذيع الأخبار بصوت خافت.. شخص ما يُدين عملية حزب الله بشدّة.. ساد الصمت لحظاتٍ، ثم سأل محمود السائق:

- **هل تتوقع أن يؤثر ما فعله حزب الله على بيروت بنحو أو بآخر؟**

قال السائق منفعلًا:

- **الله يسترنا.. شو بده نصر الله من إسرائيل؟ نصر الله متل الفار اللي عم بيشد ديل البِس ليستفزه.. الفار فار شو ما صار.. نصر الله مش عم بيتحدى إسرائيل وبس، لا.. عم بيتحدى أمريكا كمان.. أمريكا هي إسرائيل.. الله يسترنا!**

ضحك محمود وتساءل:



- **شو البس هذا؟**
- **البس هو القط..**

ضحك محمود من جديد وقال مداعبًا:

- **بس جامدة «الفار فار شو ما صار»!**

■■■

عندما قابلا فرح بجوار برج الساعة، تشجّع محمود منذ البداية وعانقها بقوة، وقبّلها بثقة على خديها، بينما استقبلها عماد بيده واكتفى بمصافحتها.. كانت ساحة النجمة خالية تقريبًا في هذه الساعة من اليوم، حيث تشتعل حرارة الشمس، وتتجاوز درجة الحرارة الثامنة والثلاثين درجة مئوية.. ساروا معًا إلى خارج المنطقة المخصصة للمارة من وسط بيروت، حيث لا يُسمح للسيارات بالدخول.

في السيارة المكيّفة جلس محمود بجوار فرح، وركب عماد في المقعد الخلفي صامتًا، يتابع حوارهما الضاحك دون أن يتدخّل إلا بأقل القليل، متظاهرًا بالتطلّع من نافذة السيارة.. أخذتهما فرح في جولة سياحية حول المدينة، في البداية انطلقت فرح في طريق الكورنيش، وأشارت في طريقها نحو فندق سان جورج وقالت: هنا اغتالوا الحريري العام الماضي!

تمهّلت فرح عندما مروا على ميدان جمال عبد الناصر، وأصرّ محمود أن يلتقط صورة لتمثال عبد الناصر وهو يهتف: «يا ناصر يا كبير.. مشرّفنا في

كل مكان».. مرّوا على المنارة ومدينة الملاهي ثم انطلقوا إلى الروشة.. تحت أشعة الشمس كانت الصخرة الضخمة تتألق بشدة، وقد راحت أمواج البحر تضرب حوافها بقوة.. أخرج محمود كاميرته من نافذة السيارة، والتقط بعض الصور.. ركنت فرح سيارتها وقررت أن تدعوهما لتناول مشروب بارد في كافيه يطل على الروشة، واتصلت بدينا لتدعوها أيضًا للقدوم، لكنها اعتذرت وقالت إنها مشغولة، أحس عماد أن فرح كانت تحاول أن تُخرجه من عزلته بمجرد جلب فتاة أخرى تجلس معه!

مع الوقت، راح عماد يزداد انعزالا، وأخذ محمود يزداد اندماجًا مع فرح.. ذهب التكلّف فلم يعد محمود يتعمّد الحديث باللهجة اللبنانية، ظل عماد صامتًا ينقل عينيه بينهما، واستغل محمود موهبته التي يشتهر بها بين أصدقائه، وراح يُلقي بالنكات المصرية على مسامع فرح، التي لم تدّخر جهدًا للضحك.. كانت تضحك ضحكات طويلة مائعة تثير نظرات الجالسين، لكنها لم تكن تبالي.. اقترب محمود منها أكثر، وتسلّلت ذراعه لتحيط كتفها، ثم التصق مقعده تمامًا بمقعدها.. بعد قليل انتقل محمود ليقصّ النكات الجنسية التي تتناول الصعايدة، ويتوقف من حين لآخر ليشرح مغزى النكتة، إذا لم يسمع ضحكة فرح الرنانة، مُخمّنا أنها لم تفهم النكتة - لأنها لا تلم بأسرار العامية المصرية- وبعدها انتقل لمجموعة أخرى من النكات السياسية التي لا تخلو أيضًا من الإباحية، والتي تحكي مواقف طريفة تقع لعدد من العرب من دول عربية مختلفة - كان محمود

يستبدل واحدة من الدول في النكتة الأصلية بلبنان إكراما لفرح، وأحيانا كانت تتعرّض النكتة لبعض مشاهير السياسة، فيقصّها محمود بصوت خافت حتَّى تدوّي ضحكة فرح، فتلتفت الأنظار نحوهم مرة أخرى.

انشغل عماد بكتابة رسالة سريعة لندى، طمأنها فيها على نفسه وقال إنه مشغول باستكشاف بيروت، وأنه سيكلّمها فيما بعد.. بعد دقيقة واحدة وجدها تتصل به، نهض من المائدة دون أن يستأذن محمود وفرح، واتجه خارج الكافيه وردّ عليها.. كان صوتها مبحوحًا.. قالت:

- **كده يا عماد.. تقلقني عليك.. لماذا لا ترد عليّ؟**
- **آسف يا ندى.. كنت مشغولًا!**
- **مشغول لدرجة ألا ترد علي؟ كان ينبغي أن تكلمني عندما تصل.**
- **يا حبيبتي والله كنت مشغولاً.. لقد أرسلت لك رسالة.. ألم تصلك؟**
- **وصلتني حالًا.. متى أرسلتها؟**

هنا اضطر أن يكذب..

- **حالا؟.. لقد أرسلتها منذ الصباح.. إنها إذن شبكة المحمول!**
- **المهم.. هل سمعت عما يحدث في جنوب لبنان عندك؟**



- **سمعت.. لا تقلقي.. بيروت هادئة تمامًا..**
- **يقولون في التليفزيون إن إسرائيل قد تهاجم لبنان.. لماذا لا تلغي رحلتك وتعود؟**
- **أعود؟! لا طبعًا.. لن أعود قبل أن أكمل رحلتي.. لا تقلقي أرجوك..**

ثم أسرع يضيف ليُنهي الاتصال:

- **أنا مضطر أن أذهب الآن.. سأكلمك لاحقًا..**
- **عماد.. عدني أنك ستعتني بنفسك وتعود فورًا لمصر لو تطوّرت الأمور..**
- **لا تقلقي يا حبيبتي..**
- **عدني...**
- **أعدك.. سلام الآن!**
- **انتظر.. عماد، I love you!**

تنهد ورد:

- **I love you too.. سلام!**

■■■

لا يوجد مكان في بيروت يشهد تاريخ المدينة خلال سنوات القرن



العشريـن بكل ما فيها مـن صراعات وحروب وخلافات سياسـية، بقدر ما تفعل سـاحة الشـهداء في وسـط بيروت.. في هذا المكان يمتزج ماضي اللبنانيين بحاضرهم بأوقات مرحهم بأوقات تعاستهم وخلافاتهم.

في منتصف السـاحة يقف نصب تمثال الشهداء، الذي يُخلّد قصة الستة عشر شـهيدًا لبنانيًّا الذين شنقهم الأتراك في 6 مايو 1916 بتهمة التآمر على الدولة العثمانية والتسـبّب في خسـارة العثمانيين للحـرب العالمية الأولى.. النصـب يقدم لك امرأة تحمل مشـعلاً يرمـز للحرية، وتحتضـن بجوارها شابًّا، وعلى الأرض شهيدان يتطلّعان لمشعل الحرية..

اختلفت مسـمّيات السـاحة عبر التاريخ.. سـمّوها سـاحة المدفع عندما وضـع الـروس مدافعهم فيها في القـرن الثامن عشر.. أو سـاحة البرج حينما جاءت القوات المصرية بقيادة إبراهيم باشا ورمموا برجها القديم.. هناك أعدم الأتراكُ الشـبان اللبنانيين بتهمة مساعدة الأعداء.. جاء الفرنسيون وسمّوها «سـاحة الشهداء» وأقاموا نصبًا تذكاريًّا للشـهداء على هيئة امرأتين -مسلمة ومسيحية- تندبان على قبر.. انتهى الاحتلال وهدم اللبنانيون النصب؛ لأنهم رأوه رمـزًا للمهانة والذلّ.. في الخمسـينيات صارت السـاحة مركزًا لوسـط بيروت التجاري، وعكف اللبنانيون على بناء نَصب جديد، لم يكتمل بسـبب الاضطرابات السياسـية.. في بداية السـتينيات تم تدشـين النصب التذكاري الحالي، ليبقى شـاهدًا على أعوام الخراب والدمار طوال خمسة عشر عامًا، هي سنوات الحرب الأهلية.. حتّى في سنوات الاستقرار خلال التسعينيات، كان



الأثر شاهدًا على مجهودات إعمار وسط بيروت، يراقب آثار الهدم، ويستنشق غبار الأنقاض، ويتأمل المباني الحديثة التي انتصبت يومًا بعد يوم.

العام الماضي فقط -2005- كانت هذه الساحة الواسعة شاهدًا على التحولات العميقة التي اجتاحت السياسة اللبنانية، عقب اغتيال رفيق الحريري.. شهدت الساحة غضب مئات الآلاف من اللبنانيين عقب الاغتيال.. هناك توافد اللبنانيون يبكون رئيس وزرائهم السابق ويصرخون هاتفين ضد الوجود السوري في لبنان، فيما عُرف باسم «ثورة الأَرْز».. هناك تشكّلت ملامح السياسة اللبنانية الجديدة في حلفي 8 آذار و14 آذار.. الحلف الأول المعارض الذي رفض انسحاب الجيش السوري من لبنان، ويتزعمه حزب الله وحركة أمل، والحلف الثاني الذي يُمثّل الأغلبية النيابية، ويقوده تيار المستقبل، وتسبب في انسحاب السوريين من لبنان.

لم يكن عماد يعرف شيئًا عن كل هذا، وهو يسير خلف محمود وفرح مقتربين من تمثال الشهداء.. نعم، كان يسير خلفهما وليس بجوارهما.. يشعر كما لو لم يكن معهما أصلًا.. ها هما يسيران مشتبكي الأيدي وكأنهما عاشقان قديمان.. محمود لا يكف عن استغلال خفةِ ظلّه، وفرح لا تكف عن الضحك واستحسان دعاباته.. وعماد هو الضيف الثقيل بينهما.. لكم يتمنى أن يجد حجة مناسبة يتركهما بها ويبدأ جولته وحيدًا!

بجوار تمثال الشهداء وقفوا.. تأمل محمود التمثال بنظرة فاحصة، وقال ضاحكًا مشيرًا لتمثال المرأة التي تحمل مشعلًا:

• **المرأة اللبنانية دائمًا مثيرة.. حتَّى في التماثيل!**

ثـم أخرج كاميرتـه، وناولها لعماد، وطلـب منه أن يأخذ لـه صورة مع فـرح.. شـعر عماد بالضيق لأنه من المفـترض أن يكون على الأقل معهما في هـذه الصـورة - أليس محمـود صديقه ورفيقـه في هذه الرحلـة؟ - وأخذ الكامـيرا عـلى مضـض وتراجـع ليضبـط الصـورة.. أحـاط محمـود فرح بذراعيـه، فغاصت هي في حضنه وألصقت شـفتيها بخـده.. قبلة أخرى! أخذ عماد الصورة بعد أن عد لهما «واحد.. اثنان.. ثلاثة»، استوقفه محمود ليأخذ صورة أخرى.. هذه المرة تجرّأ محمود وأدار فرح بين ذراعيه لتواجهه بوجههـا مباشرة، ثم ألصق شـفتيه بشـفتيها.. مندهشًـا التقط عماد صورة أخرى!

التقـط محمود الكامـيرا وراح يتأمل الصورة مع فـرح.. كانت الصورة رائعـة، تصوّرهمـا معًا في حضن حارّ وهمـا يقبلان بعضهـما بعضًا، وتمثال الشهداء يملأ الخلفية والشمس تميل إلى الغروب.

• **صورة رائعة يا صاحبي..**

قالهـا محمود ببرود.. ربـما كانت هذه آخر مرة يُشـعرانه فيها بوجوده.. بعدهـا نسـياه تمامًا.. سـارا معًـا إلى أحد البـارات في الجميزة وهـو يتبعهما صامتًـا واضعًا يديه في جيبه كعادته.. صديقه قد قبَّل فرح! ياه.. لحظة! ما التالي إذن؟ إنهما يتصرّفان تمامًا كمحبين يعرفان بعضهما بعضًا منذ سنوات

طـوال.. وهو المتفرّج الـذي لا يملك أن يفعل شـيئًا.. حتَّى صديقه صار يتجاهل وجوده كأنه لم يكن.. فكر أن يعتذر قائلاً: إنه يشعر ببعض التعب أو يختلـق أي عذر آخر، ويتركهما معًـا ويرحل، ثم تراجع عن ذلك.. ماذا يفعل وحيدًا في مدينة لا يعرف فيها أحدًا.. صدق «المتنبي» حينما قال: شر البلاد مكان لا صديق به!

في البـار شـبه الخالي -على غير العادة- جلسـوا.. صـوت هيفاء وهبي يملأ المكان بآخر أغنياتها «بوس الواوا»، والشاشة الكبيرة تعرض الكليب المثير.. طلبوا نبيذًا وشربوا جميعًا.. لم يشـعر عماد بأدنى ذنب هذه المرة، لا بـد أن الخمر سـتُخرجه عن وحدته.. لم يحب النبيذ الأحمر أبدًا، لكنّه راح يشربه ويتظاهر بالاسـتمتاع.. مذاقه ليس بكل هذه الغرابة.. لن يلبث أن يعتـاده.. هذه المرة قرر أن ينتهي مـن زجاجته كما فعلت فرح في دقيقتين.. كيـف يمتنـع عـن شرب النبيـذ وهو لا يصـلي ويُفطـر أحيانـا في رمضان ويشاهد كل ما تشتهيه الأنفس من أفلام جنسية؟

طالـت جلسـتهم وشرد عـماد في أمـور شـتّى، حتَّـى جـاءت اللحظة الحاسمة.. قالت فرح لمحمود:

- **أريد أن أذهب للبيت الآن.. أريدك في أمر هام هناك يا محمود!**

سألها محمود بحذر وهو يضغط على يدها برفق:

- **وهل ستحضر دينا؟**

فقالت كأنما تحسم أمرًا:



- **لا.. تقول إنها مشغولة..**

ثم التفتت إلى عماد وابتسمت ابتسامة صفراء مفتعلة قائلة:

- **لماذا لا تأتي معنا يا عماد؟**

الأمر واضح إذن.. تريد صديقه وحده، لكنها تتظاهر بأنها تدعوه هو أيضًا إلى بيتها.. بالمصرية يسمونها «عزومة مراكبية».. قال عماد قبل أن يصب آخر ما تبقّى في زجاجة النبيذ في جوفه:

- **أشكرك.. لكني متعب جدًا.. أعتقد أنني سأعود إلى الفندق.**

ونهض بالفعل.. التفت إلى محمود وسأله:

- **هل ستعود للفندق الليلة؟**

تبادل محمود نظرة ذات مغزى مع فرح، ثم قال بجفاء:

- **سأتصل بك وسأخبرك.. يلا حبيبي.. Have fun!**

حاول عماد أن يبتسم وأجابه:

- **you too!**

وصافح فرح وسار بخطوات سريعة مبتعدًا.. يا للوغد! ها هو ذا صديق عمره يبيعه في لحظة من أجل امرأة عرفها منذ ساعات.. يتركه يذهب وحده في بلد غريب، لا يعرف فيه أحدًا.. حسنًا يا محمود.. يا صديقي!

عندما وصل عماد إلى الفندق، كان قد قرر أن يستمتع بوقته وحده.. لماذا يريد محمود معه؟.. ليذهب هذا النذل إلى الجحيم.. لقد سئم دعاباته السمجة

التي يحفظها عن ظهر قلب.. في لحظات استطاع أن يقنع نفسه أنه الآن أفضل حالًا، حتَّى لو كان صديقه سيقضي الليلة مع واحدة من أجمل فتيات بيروت.. لماذا يحسده على أمر كهذا؟.. لو أراد عماد أن يقضي ليلته مع امرأة أجمل فسيفعلها.. كل شيء مباح في بيروت.. ألم يقل له محمود بنفسه ذلك؟

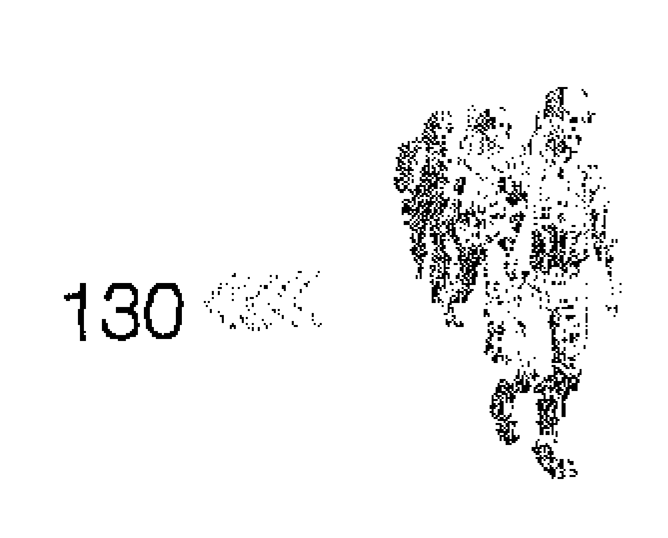
في ردهة الفندق، كان هناك عدد كبير من الناس يلتفّون أمام التليفزيون، يشاهدون نشرة الأخبار على الجزيرة.. ألا يملّ هؤلاء القوم من الأخبار؟ صعد عماد إلى غرفته وأخذ دشًّا ساخنًا خرج منه منتعشًا وهو يرسم الخطط لقضاء الليلة.

وقف أمام مرآة غرفته عاريًا تمامًا، يتأمل جسده والشعيرات القليلات التي تنبت في منتصف صدره.. هل خلق هذا الجسد الجميل المتناسق ليعاني كل هذا الحرمان في مصر؟ لو لم يفعلها هنا، متى سيفعلها إذن؟ هذه هي بيروت، والفرصة دائمًا متاحة.

وهكذا جلس عماد على فراشه والتقط موبايله.. ها هو ذا رقم دينا.. ضغط عليه وتعالى صوت الرنين المتصل ثم صوتها المائع الموحي بأجمل ما فيها.. دون مقدّمات، قال لها عماد بصوت حاول أن يملأه بأقصى ما استطاع من ثقة بالنفس:

- **دينا.. أنا وحدي الآن في الفندق.. لِم لا تأتين لقضاء الليلة معي؟**

■■■



11

أخيرًا رد عليها عماد..

سمعت ندى صوته أخيرًا.. اطمأن قلبها بعد ساعات القلق الطويلة التي عاشتها.. المصائب لا تأتي فرادى.. أمس تحرّش بها ذلك الشاب الحقير، واليوم سمعت تلك الأخبار عن اشتعال الموقف في لبنان.. رشا أيقظتها من النوم على مكالمة هاتفية، فلمّا همّت أن تحكي لها ما حدث بالأمس بعد ما تركتها، إذا بها تطلب منها أن تشاهد الأخبار في التليفزيون.

ندى الآن محبوسة.. صدر القرار من أخيها حسام وصدَّق عليه والدها ولم تتكلم أمها.. سجينة في غرفتها حتَّى إشعار آخر.. ما الخطأ الذي ارتكبته؟ ما الذنب الذي اقترفته؟ لا تدري!

لن تنسى أبدًا ما حدث بالأمس.. ما إن انصرفت مدام حنان حتَّى انفجر حسام كقنبلة.. دخل غرفتها ووقف على بابها يتطلَّع لها بعد أن غيَّرت ملابسها وارتدت بيجامتها الصيفية، وراح يصرخ ويصيح بكلمات غاضبة، كلها عن السمعة والشرف.. لا يمكنها أن تنسى وجهه المشتعل غضبًا وهو يلوح بذراعيه صائحًا:



- **فضحتينا.. ماشية في الشارع مثل الـ... .ماذا أقول؟ ما الناقص أن يحدث؟ ماذا نفعل لو خطفك أحد أو اغتصبك؟ ماذا سيقول الناس؟ أهو المذنب أم التي كانت تسير شبه عارية في الشارع؟!**

صاح فيه والدها أن يصمت، فنظر له ساخطًا وظل يتمتم بعباراتٍ غاضبة غير مفهومة.. استوضح منها الأب ما حدث في هدوء، وهي مرتمية في حضن أمها تبكي وتحكي بصوتٍ مبحوح متقطِّع.. وما إن انتهت حتَّى صاح حسام:

- **أنا قلت من البداية.. لازم تتحجّب.. كل بنات العائلة محجّبات محترمات.. كل أخوات أصدقائي محجبات.. بصراحة أنا أخجل أن أقول لأصدقائي إن «دى» أختي.. هي لم تعد صغيرة.. الحجاب فرض.. إحنا في مصر، لسنا في أوروبا أو أمريكا!**

صاحت ندى غاضبة:

- **هذا ما قدرت عليه يا فالح بدلًا من أن تخرج لتبحث عن هذا الحقير وتؤدبه؟**

جاوبها حسام بنظرات نارية، وبدا أنه يكتم غضبًا مخيفًا يمكن أن ينفجر في أي لحظة.. قال الأب في حسم:

- **حسام معه حق.. طول عمرنا عائلة متديِّنة محترمة.. ماذا يقول جيراننا أو أعمامك لو عرفوا أن امرأة غريبة جاءت بك من**



الشارع بعد نص الليل؟ خلاص، الفوضى انتهت.. من الغد ترتدين الحجاب!

وثبت ندى من صدر أمها وصاحت معترضة:

- **لكني لا أريد ارتداءه الآن.. هو بالعافية؟**

جاوبها حسام بصرامة:

- **بتردي على أبوكي كمان؟**

قال الأب بحزم:

لا ليس بالعافية.. لكنك لن تتحركي من البيت إلا بملابس محتشمة وحجاب ترضين به الله.. كفاية كلام الناس.. عمك ممدوح قال لي كذا مرة على موضوع الحجاب، لكنني كنت أنتظر أن تأخذي هذا القرار بنفسك، أما وقد حدث ما حدث، فالموضوع انتهى.

صرخت ندى بتحدٍّ:

- **لن أرتدي أي حجاب.**

وقالت الأم في محاولة أخيرة لاستكمال النقاش:

- **البنت لا تزال صغيرة يا حاج.. أنا لم أتحجّب إلا بعد الزواج.**

صاح الأب بعصبية:

- **الزمن اختلف الآن.. مصر كلها محجبات.. والحجاب فرض.**

تساءلت ندى محتجَّة وقد جفت دموعها بعد أن استفزّتها المناقشة:



- **يعني زمان لم يكن فرضًا والآن صار فرضًا؟**

قال الأب وهو يغادر الغرفة مُنهيًا النقاش:

- **أنا قلت كلمتي.. مش ناقصين فضائح.. من غير حجاب ابقي في البيت.. غدًا سأنزل مع حسام نشتري لك ملابس محترمة!**

وأُسدل الستار وانتهت المحاكمة.. تركها والدها وشقيقها وبقيت أمها معها تواسيها.. طوال الليل ظلَّت ندى تستعيد ما جرى، ولم تستطع النوم إلا بعد الفجر.. هاجمتها الكوابيس ورأت نفسها مقيَّدة في نار جهنم، والشاب الذي تحرَّش بها يخلع عنها ملابسها.. استيقظت مفزوعة وراحت تردد آية الكرسي حتَّى هدأت ونامت من جديد..

هذا الصباح شهد المصيبة الجديدة، ولم يردَّ عليها عماد وتركها تجوب الغرفة قلقة حتَّى استجاب أخيرًا وتحدثا.. محادثة هاتفية قصيرة جدًّا صحيح، لكنها كانت كافية كي تطفئ لهيب شوقها وقلقها.. ثم خرجت للصالة تشاهد التليفزيون، وشاهدت نشرة الأخبار لتزداد فزعًا.. الاهتمام الذي توليه الفضائيات الإخبارية للحدث يوحي لها أن الأمور لن تسير على ما يرام في لبنان.. رأت ذلك المسئول الإسرائيلي الذي لا تدري اسمه، يقول كلامًا كثيرًا لا يُوحي بالخير أبدًا.. ماذا سيحدث بالضبط؟

عندما رأت (حسام) خارجًا من غرفته، أبعدت عينيها عنه، وأسرعت تدخل غرفتها.. لن تكلِّمه.. لن تنسى له ما فعله.. إنها القطيعة وليكن

مـا يكـون.. لن ترتـدي الحجاب ولتر ما سـيفعله.. شـعرت بالحاجة لأن تحكي لأحد عما حدث، فلم تجد سـوى رشـا.. اتصلت بها وحكت لها عمَّا جرى بسرعة، وطلبت منها أن تفتح الماسنجر ليدردشا.

كالعادة طمأنتها رشا، وقالت لها إن والدها لن يلبث أن يهدأ وينسى.. لـن تكـون مرغمـة عـلى شيء.. والدهـا لـن يرغمها عـلى قـرار مصيري كالحجاب.. الرجل متفتِّح العقل وسيترك لها حرية الاختيار حتمًا..

انتهت الدردشـة وخرجت ندى تشاهد التليفزيون، وقد شعرت بكثير من الراحة بعد أن فضفضت لرشـا.. شـاهدت مع والدتها حلقة من أحد المسلسلات العربية، ثم غيّرت المحطة إلى الجزيرة.. كانت الشاشة تعرض صـورًا لاجتـماع الحكومـة الإسرائيليـة، وظهر مسـتطيل أحمر يُـبرز خبرًا عاجلًا.

«الحكومـة الإسرائيليـة تقـرر شـن الحـرب عـلى لبنـان لاسـتعادة الجنديين الأسيرين».

وجدت نفسها تشهق مفزوعة، وضربت صدرها بيدها صائحة:

- **عماد!**





12

رحلت دينا..

ساعتان فحسب قضاهما معها عماد في غرفته.. كيف يمكنه أن يصف هاتين الساعتين؟ المرة الأولى التي يخوض فيها تجربة مماثلة.. المرة الأولى التي يجرِّب فيها علاقة جنسية شبه كاملة.. المرة الأولى التي تُسلم له فتاة نفسها ليفعل فيها ما يشاء، ويجرّب معها كل ما سمعه من أصدقائه الخبراء، وما شاهده في الأفلام الخليعة، وما راوده في خيالاته وأحلامه.. المرة الأولى وليست أي مرَّة هي.. لقد كانت رفيقته فيها فتاة باهرة الحسن..

لكن كل شيء جميل في هذه الدنيا لا يلبث أن ينتهي.. لقد ارتدت دينا ملابسها ورحلت، وتركته راقدًا شبه عار على فراشه يستعيد قواه.. لا يزال لعابها الحلو يملأ فمه من أثر قبلاتها العميقة، كأنه تجرَّع برطمانًا كاملًا من العسل الأبيض.. اليوم أثبت لنفسه أنه رجل بحق.. الرجال في مصر لا يعرفون قيمة أعضائهم الجنسية ولا يستخدمون رجولتهم إلا عندما يتزوجون.. هكذا يفعل الرجال المحترمون على الأقل.

اليوم صارت لديه قصة ممتعة، سيتباهى بها كثيرًا أمام محمود الذي تركه ليقضي ليلته بدوره مع فتاة أخرى.. سيحكي له كل هذه التفاصيل المثيرة.. لكن مهلًا.. طبعًا لن يخبره بأمر المائة دولار التي طلبتها منه دينا - لأنها في ضائقة مالية كما قالت في مكالمتها الهاتفية معه قبل أن تأتي - ولن يخبره أيضًا أن قواه خارت بعد دقائق قليلة من بدء المباراة الحامية، فترك رفيقته تقود الباقي منها بمهارة وخبرة ملحوظة.. تُرى.. من أين اكتسبت كل هذه الخبرة وهي الفتاة العشرينية غير المتزوجة؟ هو عديم الخبرة تقريبًا - إلا من مغامرات بسيطة لا تُذكر أيام المراهقة - ولم يمكنه حتَّى أن يعرف إن كانت عذراء أم لا.. خاف أن يصل إلى الحد الذي يمكنه من إجابة السؤال.. هل حقًّا خاف أم أن قواه خارت قبلها؟ لا أيها السادة، لقد خاف.. سيقول لمحمود إنه خشي أن تكون مصابة بأي من تلك الأمراض الجنسية الخطيرة.. مصيبة أن تكون مصابة بالإيدز! كيف يشق بها وهو لا يعرف عنها شيئًا؟ لهذا لم يقرب المكان المحرَّم.. فعل كل شيء لكنَّه لم يقربه.. هكذا سيقول لمحمود.. لن يكون محمود الوحيد الذي فعلها.. السؤال هو: هل خارت قواك سريعًا أنت أيضًا يا محمود أم كنت وحشًا جسورًا رفع اسم مصر عاليًا؟

مائة دولار.. مائة وخمسون ألف ليرة لبنانية.. خمسمائة وخمسون جنيهًا..

يا له من ثمن لساعة أو ساعتين من المتعة.. المتعة الحرام.. المتعة التي تقود إلى جهنم.. الزنا كما يسميه الدين.. لكن هل ما فعله زنا حقًّا؟



ما يعرفه أن الزنا جريمة لا تكتمل إلا بمعاشرة كما يفعل الأزواج.. هو لم يفعلها تمامًا تقريبًا.. صحيح أنه نواها في البداية، لكنّه لم يفعلها.. ومن همَّ بذنب ولم يفعله لم يُحسب له شيء.. أليس كذلك؟

فجأة قفزت صورة ندى إلى ذهنه.. رأى وجهها الجميل ينظر له في عتاب، وفي عينيها شبح دمعة.. خنتني يا عماد؟ بعد كل هذا الحب الذي أُكنّه لك؟ خنتني أيها الوغد.. لم تُحبني لحظة واحدة وأوهمتني بالحب.. أيها النذل الحقير..

حاول أن ينفض عن نفسه صورتها، لكنها ظلت تطارده.. نهض إلى الحمَّام، ووقف تحت رخَّات الماء الساخن، يحاول أن يستعيد صفو ذهنه، لكن وجه ندى لم يفارقه.. لقد خانها.. استعاد صوت الشيخ معروف - رحمه الله- الذي كان يخطب الجمعة في المسجد القريب من منزله أيام طفولته، وهو يصيح بصوت مهيب مخيف تاليًا آيات القرآن الكريم: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلاَ تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ﴾.. مائة جلدة! يا الله!

خرج من الحمام شاعرًا بالغمّ، وتثاقلت الهموم على قلبه.. محمود النذل تركه ورحل مع عشيقته التي لم يعرفها إلا من ساعات.. ضاجع ساقطة سلَّمت له نفسها من أجل مائة دولار، ثم تركته ورحلت.. شرب الخمر وارتكب الفاحشة وخان محبوبته التي وعدها بالزواج وتشاجر مع والده من أجلها.. وها هو الآن وحيد في غرفته، في بلد يتحدَّث أهله عن غضب

إسرائيلي قد يعصف به في أي لحظة.. بعيد عن بلده وأهله وأصدقائه.. وحيد تمامًا!

راوده الشعور بالغثيان، لا بد أنه أصيب بالبرد.. درجة الحرارة في الغرفة أقل من العشرين بفعل التكييف، بينما في الخارج تتجاوز الخامسة والثلاثين نهارًا.. ألقى نفسه على الفراش وغاص تحت الأغطية شاعرًا بالقذارة من حوله في المكان الذي شهد خطيئته منذ قليل.. زادته رائحة عطر دينا -التي لا تزال عالقة بالأغطية والهواء- شعورًا بالغثيان.. خطر له أن يُكلّم ندى فلم يجرؤ.. لقد عاودت الاتصال به أكثر من مرة بعد مكالمتهما الأخيرة ولم يردَّ عليها.. ماذا يقول لها الآن؟ كنت مشغولًا بالتخطيط لخيانتك؟

وكعادته لم يستغرق عماد كثيرًا في ضيقه.. سرعان ما عاد ينظر للأمام، ويضع المبررات لأخطائه.. ينبغي أن «يعيش له يومين» مادام في إجازة خارج الوطن.. لم يرتبط مع ندى في علاقة رسمية بعد ومن حقه أن يلهو قليلًا.. محمود لديه مبرراته أيضًا، وسوف يناقشان ما فعله غدًا، وسيُجبره أن ينسى فرح تمامًا، ويكمل معه رحلته.. إذا لم يوافق سينسى عماد أمره تمامًا ويفترقان، وليكمل هو رحلته مع عشيقته.. غدًا يوم آخر سيركبان فيه التلفريك ويزوران مغارة جعيتا -التي قالت له موظفة شركة السياحة في الإسكندرية إنها أجمل مغارة خلقها الله على وجه الأرض- غدًا سيراها.. لم إذن كل هذا القلق؟



نهض عماد إلى الحمام، أجبر نفسه على إفراغ ما في معدته لينهي شعوره بالغثيان.. كان الأمر صعبًا لكنّه انتهى، عاد للغرفة وأطفأ التكييف وتمدّد من جديد على الفراش.. شعر كأنه أفرغ خواطره وشعوره بالذنب مع ما أفرغه في المرحاض.. الآن يمكنه أن ينام، وفي الصباح يوم آخر.

غاص في سلسلة من الكوابيس، تنتهي كلها بمعرفة ندى بخيانته لها وانتهاء علاقتهما.. رآها تخونه بدورها مع صديقه شادي - فهو يعرف أن شادي يغار من علاقتهما- ورآها في حلم آخر سعيدة مسرورة وهو يخرج من عيادة الطبيب حاملًا نتائج تحاليل دمه ليخبرها أنه مصاب بالإيدز.. في النهاية استيقظ على صوت موبايله يرنُّ بلا انقطاع.. كان يشعر بالظمأ، تكاسل عن النهوض ليشرب أو ليردَّ على الموبايل.. ظل الموبايل يرنّ مراتٍ متتالية، حتَّى إنه عجز عن استكمال نومه.. وثب إلى الموبايل يلتقطه، ألقى نظرة على شاشته، فرأى اسم محمود يتلاعب على الشاشة.. قرر أن يتجاهله، ظلّ الموبايل مُصرًّا ولم يصمت.. راود عماد الشعور بالقلق، قرر أن يتناسى نذالة صديقه مؤقّتًا ويردَّ بجفاء:

- **نعم؟**
- **عماد.. الحق.. ضربوا المطار!**
- **أي مطار؟**
- **المطار يا بني.. الإسرائيليون ضربوا مطار بيروت!**

■■■



الآن فهم عماد لماذا كان الكل يشاهد الأخبار بكل هذا الحماس..

استيقظ في الفجر على نبأ قصف مطار بيروت الذي حملته إليه مكالمة محمود، ولم ينم من وقتها.. أخذ يشاهد الأخبار على التليفزيون، ويتنقل بين القنوات الإخبارية والقنوات اللبنانية، ليدرك حجم المأساة التي بدأت خلال الساعات الماضية.. الحكومة الإسرائيلية تقرر شنَّ الحرب على لبنان، وترفض مبادلة الأسرى مع حزب الله.. القصف الإسرائيلي استمر طوال الليل على الجنوب اللبناني، كما قصفوا المطار في بيروت.. اتصل بمكتب الاستقبال في الفندق وتساءل عما يعنيه قصف المطار، فحاول الموظف أن يُطمئنه.. لقد قصفوا مخازن الوقود ومدرجًا أو مدرجين.. المطار سيعود إلى حاله قريبًا.. لا تقلق.. يقولها بصوت مرتجف لا يوحي أبدًا بالثقة!

من ذا الذي يمكنه ألا يقلق؟ منذ مكالمته الأخيرة مع محمود، والأخير لم يعاود الاتصال به.. وعماد بدوره تأبى كرامته أن يتَّصل بهذا النذل.. هل لا يزال نائمًا في حضن فرح؟ عشيقته التي لا تبالي بالإسرائيليين الذين يدكُّون بيوت مواطنيها ويغتصبون بلدها!

ثم زأرت السماء.. طنين الطائرات الذي يبدو قريبًا جدًّا.. كانت أضواء الصباح الأولى تغمر سماء بيروت، عندما ظهرت أشباح المقاتلات في سماء المدينة.. استطاع عماد أن يراها من نافذة غرفته، ارتعد خوفًا.. يا الله! هذه مقاتلات إسرائيلية.. لا شك في ذلك.. تحوم في السماء وتبدو قريبة جدًّا.. واضحة جدًّا.. مقاتلات حربية كالتي يراها في أفلام الأكشن الأمريكية.. لكنها هذه المرة إسرائيلية!



أدرك حجم الكارثة المُحدقة.. من يُصدِّق ذلك؟ هل هو في بيروت أم في غزَّة؟ ما الذي أتى بالإسرائيليين إلى هذه المدينة الهادئة الجميلة؟ ما يعرفه أن الحرب وضعت أوزارها منذ أعوام طوال، وانسحب الإسرائيليون من الجنوب منذ سنوات .. فماذا يحدث إذن؟

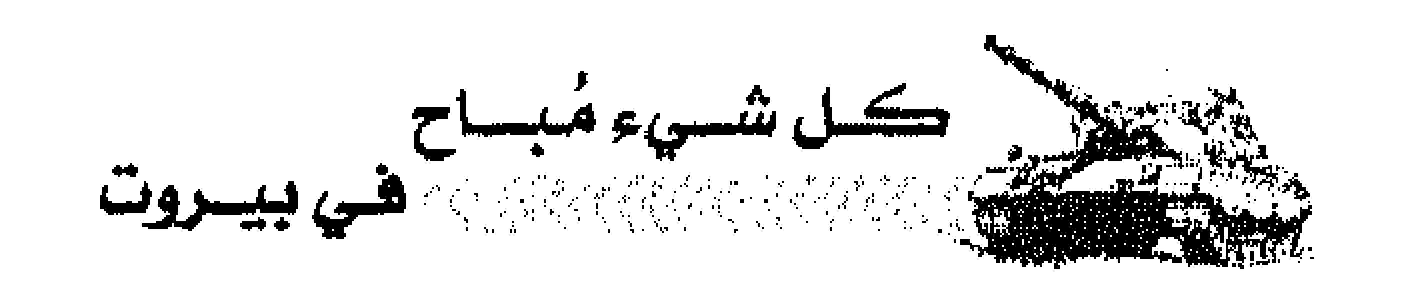
ارتجف قلبه وهو يحدِّق في الطائرات الحربية، ويسمع صوتها يدوي كالرعد.. وقف يرمق السماء كأنه في حلم ينتظر أن يفيق منه.. المرة الأولى التي يرى فيها شيئًا إسرائيليًّا.. هو الذي لم يقابل في حياته إسرائيليًّا واحدًا.. لم يكره إسرائيل على عكس ما يفعل الجميع.. كان دائمًا يجاهر بآرائه في أن الوقت قد حان لكي يقبل العرب إسرائيل ويتعاملوا معها كأي دولة أخرى.. هي دولة ديمقراطية متقدِّمة، لا بد أن نستفيد منها لا أن نقاطعها.. هو الذي لم يهتم يومًا بمشاهدة أخبار الاعتداءات الإسرائيلية على المدنيين الفلسطينيين، ولم يدفع مليمًا في حملات التبرع الكثيرة التي تشهدها الإسكندرية، أو تنظِّمها أندية الجامعة لصالح الفلسطينيين.. كان يقول لمن حوله بلا مبالاة: وما شأننا نحن بالفلسطينيين؟ لقد باعوا أرضهم للإسرائيليين وعليهم أن يتحمَّلوا عواقب فعلتهم؟ ووالده كان يقول دائمًا إن الفلسطينيين يكرهون المصريين، وإنهم أقاموا الاحتفالات يوم اغتيل السادات.. السادات كان رجلًا عظيمًا.. كيف يفرحون بموته؟

فجأة أظلمت شاشة التليفزيون وانطفأت الأضواء.. انقطع التيار الكهربي.. استرخى عماد على ظهره فوق الفراش وأخذ يتطلع للسقف

عاجـزًا عـن التفكير.. تلقّـى اتصالاتٍ هاتفيـة كثيرة، لم يـردَّ.. فقط كتب رسـالة نصيَّـة صغيرة قال فيها إنه بخير ودعا مـن اتصلوا به ألا يقلقوا، ثم شـكرهم على اهتمامهم.. أرسـل الرسـالة لوالده ولندى ولشـادي وثلاثة آخرين من أصدقائه اتصلوا به.. لا يريد أن يسـمع صوت أحد.. ليذهب الآخـرون إلى الجحيـم.. هـم جالسـون في التكييف يشـاهدون الأخبار في بيوتهم ويتظاهرون بقلقهم عليه.. ثم هل يبالي به والده كثيرًا حقًّا؟

عـاد التيـار الكهـربي، فعـاد عـماد لشاشـة التليفزيـون.. القصـف لا يـزال مسـتمرًّا عـلى مطار بـيروت.. ثمة بث مبـاشر غير واضـح على قناة الجزيـرة.. المذيـع يسـأل والمراسـل يثرثـر.. لا يوجد شيء واضـح سـوى أصـوات الطائـرات.. لو كانت هنـاك كاميرا في الفنـدق لالتقطت صورًا أوضح.. السـؤال هـو: ما التالي؟ هل هـي ليلة من القصـف وتنتهي نوبة الغضـب الإسرائيليـة أم هي مجرد البداية؟ كيف تكـون البداية؟ هل يجرؤ الإسرائيليـون عـلى المواصلة؟ أليس لبنان دولة مسـتقلّة لها سـيادة؟ لا بد أن العـرب سـيخربون بيـت الإسرائيليـين في الأمـم المتحـدة وسـيتوقف الإسرائيليـون.. هكـذا حلل عماد الموقف ببسـاطة وحاول أن يجد لنفسـه مبررًا كي يهدأ.. كي يُوقف قلبه عن الخفقان بهذه السرعة..

عاوده الشعور بالغثيان بقوة، فذهب إلى الحمام، حاول أن يتقيأ فلم يجد سـوى العصارة الصفـراء.. تكرر تقيؤه عدة مرات وهـو ينتظر اتصالًا من محمـود.. فجـأة دوّى صوت انفجار قوي، شـعر عماد معـه أن الأرض قد ارتجّـت.. هل قصفوا الحمراء؟ بقي في مكانـه متجمدًا من الفزع لأكثر من



دقيقتين حتَّى استعاد رباطة جأشه واتجه للشرفة يبحث عن آثار الانفجار.. لم يجد سوى سحب الدخان تبدو في الأفق وتتصاعد من مكان ما بعيد.

أخيرًا خرج من غرفته، وقرر أن ينزل ليرى ماذا يحدث في ردهة الفندق.. ماذا سيفعل قاطنو الفندق؟

في المصعد، قابل رجلًا وفتاة يحملان ملامح أجنبية.. حيَّاه الرجل بهز رأسه لمّا دخل عماد المصعد.. لاحظ عماد الحقيبة الكبيرة التي يحملها الرجل، ولاحظ الرجل نظراته بدوره.. قال بالإنجليزية:

- **ألن ترحل بدورك؟**
- **أنتما راحلان؟ هل انتهت رحلتكما؟**

أجاب الرجل في ضيق:

- **نحن مضطّران.. السفارة اتصلت بنا.. سترتِّب لنا مغادرة البلاد.**
- **أي سفارة؟**

أجاب الرجل بتلقائية:

- **نحن أمريكيَّان.. اتصلت بنا السفارة منذ ساعتين وطلبت منا التجمُّع في ميناء بيروت.. أعتقد أنهم سيرحلوننا.. هل أنت لبناني؟**

هز عماد رأسه نفيًا.. فقال الرجل:

- **إذن اتصل بسفارتك بالتأكيد سيساعدونك!**

الرحيل؟ بدت الفكرة غريبة.. هل يُنهي الرحلة التي طال اشتياقه لها



ورتّب لها طويلاً؟ أليس محتملًا أن ينتهي الخلاف سريعًا ويفرج حزب الله عمن أسره من جنود إسرائيليين، وكفى الله المؤمنين شر القتال؟

في الردهة، كان العشرات متجمّعين بحقائبهم.. ميَّز عماد بين الضجيج صيحات بالفرنسية والإسبانية ولغات أخرى لا يعرفها، وأدرك أن الكل يتسابق على إنهاء حجوزاتهم.. ثلاثة من الموظفين واقفون في مكتب الاستقبال، اثنان منهم منهمكان مع رواد الفندق، والثالث يستقبل المكالمات الهاتفية التي تتوالى بلا انقطاع .. شاشة التليفزيون الكبيرة تنقل صورة مراسل الجزيرة واقفًا على تبّة عالية ويتحدّث عن صواريخ منصبة من جنوب لبنان على الشمال الإسرائيلي.. المذيعة تعلن أن حزب الله قصف بلدة نهاريا الإسرائيلية؛ انتقامًا لمقتل المدنيين اللبنانيين.. ثم ظهر مقطع لنصر الله يقول فيه:

«كما كنت أعدكم بالنصر دائمًا، أعدكم بالنصر مجددًا.. أعدكم بالمفاجأة الكبرى التي يمكن أن تغيِّر مصير المنطقة كلها، إذا فكَّرتم أيها الصهاينة أن تشنُّوا حربًا على لبنان».

انقبض قلب عماد وأزاح بوجهه عن شاشة التليفزيون.. «العملية شكلها وسعت، حزب الله يرد أيضًا على إسرائيل؟ كده تبقى كملت!»

واحدة من الأجنبيات تتطلع للتليفزيون بنظرات متسائلة، وتستفهم من عماد عن آخر الأخبار.. قال لها عماد باقتضاب ولسان حاله يقول «مش ناقصاكي إنت كمان»:



- **حزب الله قصف شمال إسرائيل.**

رأى النادل الذي قدّم له طعام الإفطار أمس، فقرر أن يسأله عن الانفجار الذي دوَّى منذ قليل.. قال الرجل إن الانفجار وقع في المربع الأمني في الضاحية.. تساءل عماد مندهشًا:

- **في الضاحية ونسمعه بكل هذا الوضوح؟ ماذا إذن لو كان في الحمراء؟**

وتحرَّك لينزوي وحيدًا في ركن جانبي، شاعرًا بالضعف.. كان قد تقيّأ كثيرًا وفقد شهيته تمامًا.. هل حان الوقت لإلغاء الحجز ومغادرة البلاد؟ هل يفعل مثلما يفعل الكل ويلغي الحجز ويجد سبيلًا لمغادرة البلاد؟ لقد رأى عشرات من مندوبي السفارات الأجنبية قادمين لاصطحاب مواطنيهم إلى الحافلات لمغادرة البلاد، ولابد أن البقاء صار خطرًا كبيرًا.

هنا رنَّ هاتفه .. هذا محمود.. أخيرًا.. قرر عماد أن يعامله بمنتهى الجفاء.. قال دون أن يسمعه:

- **ممكن تترك حبيبتك وتأتي كي نرى ماذا سنفعل في هذه المصيبة التي تورَّطنا فيها؟**

أجابه بحماس:

- **اسمعني يا برنس.. أنا أعرف ما سنفعله.. سنبتعد عن بيروت حتَّى تعود المياه لمجاريها.. فرح تقول إن السياسيين سيحلُّون الأزمة سريعًا، ونصرالله سيتراجع.. لا يمكن أن يعاند الإسرائيليين**



طويلًا.. الحل أن نسافر للشمال.. نبتعد عن القصف حتَّى تهدأ الأمور.

زفر عماد في نفاد صبر، وتساءل بحذر:

- **أي شمال هذا الذي سنذهب إليه؟**
- **سنذهب مع فرح.. الضيعة.. هي من قرية في الشمال.. سنذهب معها!**
- **لا.. فرح لا.. اتركها يا محمود وتعال لي هنا.. لا شأن لنا بفرح بعد الآن.. سنعرف كيف نتصرَّف كما يتصرَّف الجميع.**
- **إنت عبيط يا بني؟ هي تعرض مساعدتنا، لماذا ينبغي أن نرفض؟**
- **قلت لك اتركها وتعالَ لنرَ ماذا سنفعل..**
- **لن أتركها..**

ساد الصمت لحظات تعاركت فيها الإرادتان.. ثم قال عماد بحسم:

- **محمود.. أنا لن أذهب مع صديقتك هذه إلى أي مكان.. إذا أردت أن تذهب معها، فأنت حر..**

قالها وأنهى الاتصال ليعطي كلامه التأثير المطلوب.. لا بد أن صديقه سيتراجع.. لن يستطيع أن يُكمل وحده حتَّى ولو من أجل عيني صديقته.. بعد لحظات استقبل رسالة من محمود تقول كلماتها: «اخترت أن أذهب معها.. إذا غيّرت رأيك اتصل بي.. سلام».. يا للوغد!



اتجه عماد إلى مكتب الاستقبال، وهو يشعر بغصَّة مريرة في فمه، ومعدته تؤلمه من جديد.. سأله موظف الاستقبال إذا كان يريد إلغاء حجزه، فقال إنه لم يقرر بعد.. لاحظ الموظف الشاب شحوب وجهه فسأله إذا كان على ما يرام..

- **لا تقلق.. هل يمكن أن آخذ رقم السفارة المصرية؟**

نظر له الشـاب مندهشًـا للحظة، ثم فتح دليلًا أمامه، قلب في صفحاته قليـلًا ثم أمسـك ورقة وقلمًا ليكتب الرقم.. طلب عـماد منه أن يمليه عليه ليسـجله عـلى موبايلـه مبـاشرة.. قـال الموظـف إن هناك باصـات عديدة متجهـة إلى سـوريا، لو أراد أن يحجز لـه مكانًا فيها قبل أن تمتلئ.. شـكره عماد وانصرف.

في غرفتـه حـاول عـماد الاتصال برقـم السـفارة مـرارًا، لكنَّـه كان دائمًا مشـغولًا.. مذيـع الجزيرة يقـول إن مقر محطـة المنار التابعة لحـزب الله تم قصفه، ولم يتوقـف بث القناة إلا لدقائق معدودات.. تقيأ عماد مجددًا وبدأ يشـعر بإعيـاء شـديـد.. لا بد أن يأكل شـيئًا حتَّى ولو لم يكن يشـعر بأي رغبة في ذلك.. مراسـل الجزيرة من بيروت يعلن أن حزب الله سـيقصف حيفـا إذا قصفت إسرائيل بيروت.. أهلا وسـهلًا!.. الموقف يتأزّم أكثر.. رقـم السـفارة لم يعد مشـغولًا، لكن لا أحـد يردّ.. جرس طويـل وما من مجيـب.. الجزيـرة تذيـع فقرة مـن خطاب حسـن نـصرالله.. الرجل يقف بلحيته وعمامته الشهيرتين ويقول:

- **«أردتموها حربًا مفتوحة، ونحن ذاهبون إلى الحرب المفتوحة، ومستعدون لها.. وستكون حربًا على كل صعيد.. إلى حيفا وصدقوني إلى ما بعد حيفا .. وإلى ما بعد ما بعد حيفا».**

من يظن نفسه هذا الرجل؟ عنترة بن شداد؟ أي غباء هذا؟ هل يسكت الإسرائيليون لو قصف مدنهم؟ سيحيلون لبنان جحيمًا مستعرًا.. هكذا فكَّر عماد وهو يقاوم ألمًا في معدته.. لم يستوعب تمامًا بعد أنه في عاصمة لبنان هذه التي يتحدثون عنها في الأخبار.. جزء من عقله يتعامل مع ما يحدث كأنه يشاهد الأخبار على شاشة التليفزيون في القاهرة! رنّ موبايله مرارًا من أرقام مختلفة من مصر، لم يردّ عماد على أي منها.. في النهاية أغلق موبايله تمامًا، لم يعد يطيق الإزعاج الذي يسبّبه له.. لا يزال حانقًا على ما فعله صديقه.. الوغد فرّ مع عاهرته وتركه.. صديق عمره خانه!

فكر للحظات أن يستسلم ويتصل به ويذهب معه إلى الشمال، لكن لم تلبث كرامته أن انتصرت.. لن يفعلها.. من يدريه أن الشمال أكثر أمنًا؟ إذا قصفت إسرائيل بيروت، فما الذي يمنعها من قصف أي مدينة لبنانية أخرى؟ ثم إنهم إذا قصفوا بيروت لن يقصفوا الفندق.. الفندق ينتمي لسلسلة فنادق عالمية ويوجد به سياح من كل بلاد الدنيا، لا سيّما أمريكا، ولن يورّط الإسرائيليون أنفسهم في مشاكل مع حكومات هذه الدول.. ثم إن الجامعة الأمريكية على مرمى حجر.. مستحيل أن يمس الإسرائيليون الفندق بأذى.. هذا إذا جرَءوا على قصف هذه المنطقة من بيروت أصلًا..



عند العصر قرر عماد أن ينزل للحمراء، ليأكل أو يشرب شيئًا، حتَّى يستعيد بعضًا من قواه، ثم يبحث عن صيدلية.. كان الشارع الشهير خاليًا تقريبًا.. عند أحد المحلات رأى جمعًا من الناس يتزاحمون لشراء لوازمهم.. أغلب المتاجر مغلقة والهدوء يسود المكان.. في أحد محلات العصائر شرب عماد عصير برتقال كي يطرد البرد الذي أُصيب به.. من حوله يسمع لعنات السائرين على الإسرائيليين أو على حزب الله أو على كل شيء.. لا يعرف بالضبط.. الكل يتحدث عن الهجوم الإسرائيلي.. صوت نشرات الأخبار المتتالية يتعالى من السيارات السائرة.. أصحاب المحلات يشاهدون القنوات الفضائية اللبنانية أو الفضائيات الإخبارية.. والكل يتسابق لشراء أكبر كمية من المعلَّبات والأطعمة من المتاجر القليلة المفتوحة.. كأنَّ حربًا ضارية ستبدأ!

بدا ما يجري كالحلم لعماد.. ما شأنه هو بكل هذا؟ هو ليس من هنا.. لا شأن له بلبنان أو حزب الله أو إسرائيل.. ما الذي يفعله هنا؟ ما هذا الكابوس الذي يعيشه؟ تزايد شعوره بالوحشة والوحدة وهو يسير وحيدًا يرمق وجوه الناس الكئيبة.. لم تعد وجوه اللبنانيين -التي كان جمالها ووسامتها تعجبه- كما كانت، وصارت النظرات القلقة والمذعورة في العيون تزيده خوفًا.. حتَّى الابتسامات القليلة في وجوه الفتيان، صارت ابتسامات متهكّمة مريرة.. هل هذا هو ذات الشعب الذي كان يملأ الدنيا حوله مرحًا وضحكًا منذ يومين؟

قرر أن يعزل نفسه عما حوله، ورفع سماعتي مشغل الأغاني iPod

إلى أذنيـه.. إيمينـم هو الوحيد القادر على الترويـح عنه في ظروف كهذه.. داعب زر المشـغل حتَّى وصـل إلى أغنيته المفضلـة lose yourself.. تعالى صوت إيمينم الصاخب يسأله:

«لو كانت هناك لقطة واحدة .. فرصة واحدة.. دقيقة واحدة للاستيلاء على كل ما حلمت به.. هل تفعلها أم تدع الفرصة تفوتك؟»

ظل سائرًا حتَّى رأى قمة المنارة، فعرف أنه اقترب من الكورنيش، نعم، لم لا يذهب إلى البحر؟ البحر الذي يذكره على الأقل بالإسكندرية.. الطريق شبه خال.. هبط الطريق النازل تجاه الكورنيش.. لم يسمع صوت الانفجار الـذي دَوّى، لكنَّـه أحس بالأرض تهتز تحت قدميـه.. ارتعد للحظات، ثم قـرر أن يواصـل طريقه.. .تحرَّك ليعبر الطريق إلى الجانـب الآخر – حيث البحر– محاولًا أن يتجاوز السيارة القادمة بسرعة .. ماذا حدث بالضبط؟ كانت عينـاه معلّقتـين بالبـحر، وكانت الموسـيقى تصدح في أذنيه وإيمينم لا يزال يصرخ: «من الأفضل أن تنسى نفسك في الموسيقى، لديك الفرصة فـلا تدعهـا تفوتك، هـذه الفرصة تـأتي لك مـرة واحدة في حياتـك».. ثم جـاءت هـذه الصدمة فجأة.. هل صرخ؟ هل تـألم؟ في الواقع لم يكن هناك وقت للألم أو الصراخ؛ لأن الدنيا أظلمت تمامًا أمام عينيه.

وأكمل إيمينم في أذنيه:

- **«الروح تهرب.. من هذا الثقب تهرب..»**

ثم ساد السكون.



13

ما هذا الذي تفعله بالله عليك يا محمود؟

هذا الإحساس الثقيل بالذنب يجعل السؤال يلح عليه بقسوة.. حاولت فرح أن تتكلم معه، لكنها لاحظت شروده.. قالت له وهي تضغط على البنزين أكثر، وتنطلق وسط السيارات المتزاحمة على الطريق السريع شمال بيروت:

- **كما قلت له.. هو حر.. أنت غير مسئول عنه.. صديقك رجل ناضج العقل.**

هزَّ محمود رأسه في صمت، ولم يرد.. تمنى لو يتصل به صديقه.. يُرسل له شيئًا.. يُبدي رغبته في أن يأتي معهما.. لماذا كل هذا العناد يا عماد؟ هل هذا وقته؟ البلد دخل حربًا ولا وقت لهذه التفاهات.. كانت معرفته الجيّدة بعماد تؤكد له أنه لن يتصل.. كرامته لن تسمح له بذلك.. لا بد أنه غاضب من فعلته أمس.. تركه ببساطة ليبيت ليلته مع فرح.. طبعًا كان لا بد أن يفعل ذلك.. هل هناك عاقل في هذه الدنيا يجد فتاة بكل هذا الجمال وكل هذه الأنوثة.. ويتركها؟ مجنون هو؟

«يزعل.. يتفلق».. قالها لنفسه.. مصيره أن يرجع وينتهي كل شيء.. إلا أنه يعرف عماد جيدًا.. عماد لن ينسى بسهولة.. كرامته أغلى ما يملك.. لو أمطر الإسرائيليون بيروت بالقنابل وكان لدى محمود المفرّ الوحيد لما لجأ إليه.. لعن الله العناد!

ساد الصمت في السيارة طويلًا، وفرح تقودها بعصبية.. تتلقى اتصالات هاتفية كثيرة لا ترد عليها.. جاءتها رسالة، قرأتها بصوت عالٍ.. الكلاب قصفوا الطريق الدولي بين بيروت ودمشق.. فتحت المذياع لتكسر حاجز الصمت داخل السيارة.. نشرة الأخبار تتكلم عن صواريخ حزب الله التي تضرب شمال إسرائيل، والطيران الإسرائيلي الذي قصف ميناء طرابلس.. لم تشأ فرح أن تواصل سماع هذه الأخبار المفزعة، ونفضت عن ذهنها صورة تخيَّلتها للطائرات الإسرائيلية وهي تقطع عليها الطريق بصواريخها.. غيَّرت المحطة إلى محطات متعاقبة باحثة عن أي أغنية.. حتَّى الأغاني كلها كئيبة حزينة.. لماذا يذيعون «راجع يتعمر لبنان» في هذا الوقت؟ انتهت الأغنية وتعالى صوت المذيع يجاهر بلعن حزب الله الذي ساق لبنان إلى الحرب والدمار من جديد.. غيَّرت فرح المذياع إلى محطة أخرى، فتعالى صوت فيروز يغني «دخلك يا طير الوروار».

ومحمود في عالم آخر.. يستعيد ذكريات الليلة الماضية.. ربما كانت أمتع ليالي حياته كلها -بغض النظر عما يحدث الآن- فلم يتخيل أنه قد يجد كل هذه المتعة وكل هذه اللذَّة في بيروت.. كيف قضى كل هذه السنوات

من عمره، دون أن يخوض تجربة حقيقية كاملة مثل تلك التي وجدها مع فرح؟ فرح التي بدت له في تلك الليلة خبيرة متمرِّسة، تجيد كل أنواع الحب، كأنها معلّمته التي تعرف كل شيء، وتتقن قواعد اللعبة جيدًا.. تركته يتشممها ويتذوقها ويأكلها أكلًا ويفعل كل ما تشتهيه نفسه.. شبع تمامًا منها، وبدت هي أيضًا راضية قنوعًا بما فعل.. شيء واحد أثار حفيظته في وسط المعركة.. كانت كلما بلغت بها نشوتها الذروة، تصيح بشيء ما بالهولندية، وذات مرة ميَّز اسمًا عربيًّا - لم يتذكره بعدها- بين كلماتها.. اسم ذكر عربي على وجه الدقة.. لم يُثر الأمر اهتمامه وفسّره بأنها كلمة هولندية تشبه الاسم العربي.. المهم أنه قضى معها ساعات قليلة تمنى أن تستمر إلى الأبد.. حتَّى سمع أزيز الطائرات وجاءت رسالة الموبايل.. ضربوا مطار الحريري.. حينها انتهت الأحلام الجميلة وبدأ الكابوس!

على أي حال، لقد حقَّق أكبر أحلامه في بيروت.. من لم يجرِّب فتيات بيروت، لم يزر لبنان.. لقد فعلها بامتياز وعاش لحظات حب مثالية مع أجمل من أنجبت لبنان.. صارت لديه ذكرى جميلة ينوي أن يرويها مرارًا وتكرارًا على مسامع أصدقائه في الإسكندرية، مباهيًا برجولته وبراعته في اصطياد النساء.. سيحكي لهم كل شيء بجميع التفاصيل.. يمكنه أن يتخيّل دائرة الأصدقاء تضيق من حوله وهو يجلس بينهم، يحكي ما حدث بألفاظ موحية، وهم يستحثُّونه كي يفيض ويستفيض في حديثه، واصفًا كل شيء بمنتهى الدقة، بينما هو يتظاهر بالابتسام في شرود ليزيدهم شوقًا على شوق!

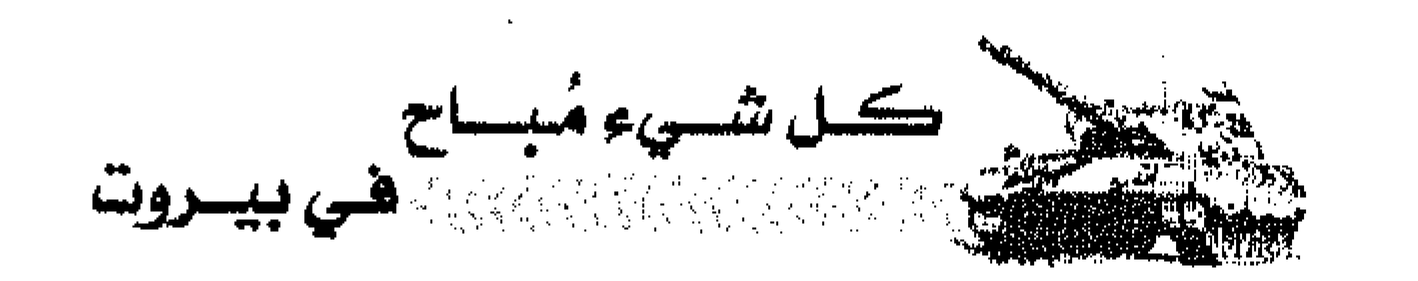
ليلـة أمس كانت من أسـعد ليالي العمر.. من ذا الذي لا يكون سـعيدًا بصحبـة هذا الملاك؟ بمجرد أن يتخيل أنهـا صارت ملكه يخفق قلبه بقوة، ويجـد نفسـه يحلق فوق السـحاب.. لقد سـحرته.. أخذته.. لم يسـتطع أن يرفض حينما عرضـت عليه الفرار معها من بيروت إلى الجبال حيث الأمر أكثـر أمانًا.. الإسرائيليون لن يمسـوا القرى المارونية في الشـمال.. لا أحد يهمهـم هناك.. سـينعمان بالأمان معًا - والحب أيضًـا- حتّى ينتهي التوتر ويعـودان ليكملا الإجازة في بيروت.. هكذا قالـت له وفى عينيها نظرات الشـهوة التي لا يمكن لبـشر أن يقاومها.. بل إنها اقترحـت عليه أيضًا أن يمـدد إجازتـه ويقضي الصيف كلـه معها.. قال لها في حـذر إن المال الذي أخذه من والده لن يكفيه، فابتسمت له وقالت له بعذوبة ألا يفكر في المال.. «Money is nothing». قالت له ذلك وهي تقبّله وتحتويه في حضنها! هل كان باستطاعته أن يرفض؟ من منا يمكن أن يرفض؟!

حينما طلب منها أن يصطحب عماد معهما، نظرت له مترددة ثم قالت:

- **ولم لا؟ لكن عليك أن تعلم أننا سـنكون في بيت جدتي في بشـرى.. ليس كبيرًا جدًا.**

شـعر بالـتردد.. هل يتخلى عـن صديقه؟ قـال لها بحذر إنـه يمكن أن يقيـم في فندق هنـاك.. هل توجد فنادق؟ طبعًا يوجـد العديد من الفنادق الرخيصة في بشرى.. سألها عن دينا.. قالت له بحسم:





- **دينا لن تترك بيروت.. أنا عارفة.**

ولم يشأ أن يسألها أكثر.. هو أصلًا لا يرتاح لدينا، تبدو له كفتاة منحرفة، لا يعرف لماذا تصاحبها فرح أصلًا.. هل هما حقًّا صديقتان؟ أم أنها مجرد فتاة تعرفها أتت بها كي تشغل عماد عنهما؟ لا يعرف ولا يهمه أن يعرف.

كان الطريق مزدحمًا، والكل ينطلق بسرعات كبيرة.. لا أحد يبالي بقوانين المرور، حينما تبدأ الحروب.. المذياع ينقل تصريحات مسئولين لبنانيين يعلنون غضبهم من عملية «الوعد الصادق» التي انفرد باتخاذ قرارها حزب الله.. المذيعة تستعرض ردود الفعل العالمية، وتنديدات دول العالم المختلفة بالاعتداءات الإسرائيلية.. أمريكا تؤيد إسرائيل وتدين حزب الله بشدة.. المملكة العربية السعودية تصف العملية بالمغامرات غير المحسوبة.. حزب الله يرفض الشروط الإسرائيلية ويطلب مبادلة الأسيرين الإسرائيليين.. ضوضاء التصريحات والتنديدات والتهديدات والاحتجاجات التي بدأت ولا أحد يعلم متى تنتهي!

علا صوت موبايل فرح برنة مميزة، ألقت نظرة على شاشته وقرأت الرسالة التي وصلتها بصوت خافت.. ابتسمت في سخرية وقالت:

- **هذه من السفارة الهولندية.. يريدون أن يرحّلوني من بلدي!**

سألها محمود مندهشًا:

- **وما شأنهم بك؟**

- **لا تنس أنني أحمل الجنسية الهولندية.. هناك رقم غريب يتصل بي منذ الصباح ولم أرد.. أعتقد أنه من السفارة الهولندية.. بالتأكيد يكلمون رعاياهم في لبنان ليبحثوا لهم عن وسيلة للفرار!**

ابتسم محمود وأطلق سُبَّة مصرية نابية وتساءل:

- **تبًّا! ماذا عنا؟ أين السفارة المصرية؟**

ألقت عليه فرح نظرة سريعة.. تساءل محمود في نفسه إذا كانت سُبَّته قد ضايقتها.. لو كان أمام فتاة مصرية لما قالها.. قبل أن ينطق بشيء وجدها تصيح بشيء ما بالهولندية.. هنا لاحظ توقف سير الطريق تمامًا.. تعالت كلاكسات السيارات ورأى الكل سِربًا من ثلاث مقاتلات إسرائيلية تحلِّق مبتعدة وتختفي فوق السحاب.. ثم تعالى طنينها يصم الآذان، وقبل أن يفهم محمود أنه رأى الطائرات قبل أن يسمع صوتها، كان عليه أن يستوعب ما يردده الكل من حوله في فزع.

الإسرائيليون قطعوا هذا الطريق أيضًا.

■■■

في التاسعة مساء وصلا بيت الجدَّة في بشرى.

كانا مرهقين بشدة.. قضيا أكثر من عشر ساعات في الرحلة من بيروت إلى بشرى التي لا تستغرق في المعتاد أكثر من ساعتين.. اضطرا إلى أن يقفا

وسط مئات السيارات الهاربة من بيروت، قبل أن يبدأ أصحاب السيارات في البحث عن طُرق بديلة، سواء للفرار إلى سوريا أو الذهاب لأقرب مدينة.. استعارت فرح خريطة من أحد السياح في سيارة مجاورة، وبدأت تبحث في الطرق البديلة عن طريق يقود إلى بشرى.. كان الرعب مسيطرًا على الكل خوفًا من أن تعاود الطائرات الإسرائيلية هجومها وتقصف السيارات نفسها، لكنها لحسن الحظ اختفت بلا رجعة.. قطعت عليهم الطريق وتركتهم يواجهون مصيرهم وحدهم.

وبدأت الرحلة الطويلة بين المدن اللبنانية.. لم تكن فرح تجيد تتبع الطرق على الخريطة، وتوقَّفت كثيرًا لتسأل المارة.. بحثت طويلًا أيضًا عن محطة وقود لتزويد سيارتها بالبنزين.. كانت أغلب المحطات مغلقة، حتَّى وجدت واحدة مفتوحة قبل دقائق من نفاد الوقود.. طلب منهما العامل ضعف الثمن وهو ينظر لهما في حرج .. ثم اعتذر.. إنها تعليمات صاحب المحطة.. في زمن الحروب تتضاعف أسعار كل شيء..

عندما بدأت السيارة تأخذ الطريق الصاعد على الجبل، فغر محمود فاه مبهورًا.. كل هذا الجمال.. كل هذه الروعة! على جانبي الطريق كان الوادي يمتد بين الجبال المُكتسية بالأشجار والخضرة تملؤها تمامًا.. أشجار عالية متكاثفة الأغصان تُشكّل غابة بالغة الجمال، راح محمود يتطلّع لها مأسورًا.. إنه لأمر مؤسف حقًّا أن يعاني بلد بكل هذا الجمال من الحروب طويلًا.. أمر حزين!

ولم يستطع أن يمنع نفسه من إخراج كاميرته الرقمية والتقاط الصور.. نظرت له فرح مندهشة للحظات، كأنها تستنكر أن يشغل نفسه بالتصوير في ظروف كهذه.. قال لها مبررًا وقد لاحظ نظرتها:

- **المنظر جامد جدًّا.. كأنها جنة!**

قالت فرح دون أن تنظر له:

- **اسمه وادي قاديشا.. هنا تعبَّد الموارنة الأوائل.**

لم يبد محمود في حاجة لأن يسمع منها تاريخ الوادي، وهي أيضًا لم تشأ أن تتكلم.. الحقيقة أنها ظلّت صامتة أغلب الطريق وقد بدا عليها الإرهاق الشديد، وتوقفت أكثر من مرة لتستريح من القيادة.. لم تكن تحب القيادة، لكنها رفضت أن يقود محمود.. السيارة ليست سيارتها وكانت قد استأجرتها منذ أسبوع.. مائتا دولار في الأسبوع.. لكن هل سيبالي أصحابها بها بعدما اندلع الجحيم؟

أخيرًا وصلا لبيت الجدَّة.. بيت صغير مكون من طابق واحد مبني بالخشب على الطراز الأوروبي، يُطلُّ مباشرة على الوادي، ويحيطه سور من الأسلاك الشائكة، يعزله عما حوله من غابة الأشجار الصغيرة، لم يتخيَّل محمود أن هناك بشرًا يمكنهم أن يقضوا حياتهم كلها وسط هذه الجنة، منعزلين عن العالم ومشاكله وصراعاته.. هل يوجد هنا تليفزيون؟ هل يستعملون الإنترنت؟ هل سمعوا عما يحدث الآن في بيروت؟



في استقبالهما كانت الجدة العجوز التي تقوّس ظهرها، وتناثرت خصلات شعرها - أو ما تبقى منها - البيضاء حول وجهها.. قدّمته فرح بصفته صديقها المصري الذي تعرفته في هولندا.. لم يسترح محمود لما قالته، لكنّه لم يبال.. ثم وقعت عيناه على التليفزيون ونشرة الأخبار المستمرة بلا انقطاع، فعرف أنه كان مخطئًا..

كان البيت بسيطًا أنيقًا من الداخل.. لاحظ محمود لوحات القديسين المعتادة ورأى تمثالين للمسيح والعذراء جوار التليفزيون، والعلم اللبناني الكبير الذي يشغل جانبًا من الحائط.. وتساءل: أليس غريبًا أن يعلّق هؤلاء الناس علمَ بلادهم في بيوتهم؟ وفكّر أن علاقته بعلم مصر بدأت يوم اشترى علمًا كبيرًا من عجوز أمام استاد القاهرة، يوم مباراة نهائي الأمم الإفريقية الماضية، وانتهت في ذات الليلة عندما أعطى العلم لمجموعة من الأطفال في محطة مصر، قبل أن يركب القطار العائد إلى الإسكندرية!

جاءت الأم بصينية عليها أطباق من الحمّص والفلافل والسلاطة العربية والخبز الشامي.. جلست معهما تأكل وتشاهد الأخبار على قناة المستقبل اللبنانية.. وزير النقل يؤكد أن مطار رفيق الحريري سيعود للعمل خلال يومين، ثم تستعرض الشاشة صورًا لناقلة بحرية كبيرة، قال المذيع إنها نقلت السيّاح الأمريكيين من ميناء بيروت إلى قبرص، وأضاف أن الناقلة توقّفت في عرض البحر كي يمشطها الإسرائيليون بأنفسهم ويتأكدوا أنها لا تحمل سوى الأمريكيين.. الميناء أغلق الآن!

- **كيف الأحوال في بيروت؟**

هكذا تساءلت الجدَّة في وهن.. ردَّت فرح:

- **أسوأ مما تتوقعين! الكل يستعيد أجواء الحرب..**

قالتها فرح وغيَّرت القناة إلى محطة للفيديو كليب، وتعالت أغنية «يانا يانا» التي تغنيها صباح ورولا بتوزيع جديد.

- **كده أحسن.. كفاية أخبار كئيبة!**

قالها محمود وهو يختلس النظرات نحو فرح.. كيف ستمضي الليلة؟ تذكَّر أنه لم يأت معه بأي ملابس، وجاء معها من بيروت كما هو.. هل سينام وحيدًا في غرفة؟ هل يمكن أن تقضي فرح ليلتها معه هنا أيضًا؟ الجدَّة تعيش وحدها هنا، فهل ستتركهما يفعلان ما يشاءان؟

نظرت الجدَّة للتليفزيون باشمئزاز، ولعنت الزمن الذي جعل مطربة كبيرة مثل صباح تفعل بنفسها ذلك، وتغنِّي بوجهها العجوز المشدود بمشارط جرَّاحي التجميل.. كانت هذه آخر جملة كاملة فهمها محمود، لأن الجدَّة انهمكت في حديث سريع مع فرح باللهجة اللبنانية، لم يُميّز منه محمود سوى كلمات قليلة.. لم تأكل الجدَّة كثيرًا ونهضت إلى منضدة مجاورة، تناولت منها شريط أقراص، أخذت منه قرصين ثم جرعة ماء ومضت إلى غرفة صغيرة وأغلقت بابها.. وقامت فرح وأحضرت اللاب توب وجلست إلى جوار محمود.. سألها:



- **ماذا سنفعل هنا؟**
- **ستبقى معي كما اتفقنا.**

تطلّع لها في صمت، ثم أشار حيث اختفت الجدة وهمس:

- **وجدّتك؟**

ابتسمت وقالت:

- **لا تقلق.. زمانها نامت.. تحب تسمع فيروز؟**

فتحت فرح اللاب توب دون أن تنتظر رده.. لاحظ محمود صورة شاب أسمر وسيم ذي عينين عسليتين وشعر مجعّد كثيف، تحتل خلفية سطح المكتب.. تساءل محمود مشيرًا للشاشة:

- **من الأخ؟**

لم ترد فرح، وأسرعت تخفي الخلفية بالتجوال بين ملفات الويندوز حتّى وجدت ملف فيروز.. تعالت الموسيقى الساحرة في فضاء الغرفة.. مد يده بحذر يتحسّس كتفها، فلم تُبد أي رد فعل.. تشجَّع أكثر ومضت يده متسللة عبر جسدها الدافئ.. سألته:

- **هل تحب هذه الأغنية؟**

أجابها وهو يشعر بالدم يتدفق في عروقه:

- **لا أسمع فيروز.**

- **هـل هنـاك عربـي لا يعـرف هـذه الأغنيـة؟ كل العـرب الذين عرفتهم كانوا يحبون فيروز.**

ما أهمية هذا الحديث الآن؟ لا يهم، قرر أن يجاريها مادامت مستسلمة تمامًا ليده.. سألها وصورة الشاب الأسمر لا تزال في ذهنه:

- **هل عرفت مصريين في هولندا؟**

صمتت فرح وبدا عليها شيء من الارتباك.. لم يعرف محمود ما الخطأ، لكنَّه حاول أن يتجاوز هذه النقطة سريعًا.. بدأ صوت فيروز يمتزج بالموسيقى.. «سألتك حبيبي لوين رايحين.. خلينا خلينا وتسبقنا سنين».. نعم، هو يعرف هذه الأغنية لكنَّه لم يميّزها من الموسيقى.. قال لها بسرعة:

- **أعرف هذه الأغنية.. كان أحد أصدقائي يحبُها ويسمعها كثيرًا.**

- **أنت قلت إنك من الإسكندرية.. صحيح؟**

- **صحيح.**

- **فيروز غنَّت لكم «شط إسكندرية».. كيف لا تسمعها؟**

تنهَّد محمود ولم يقل شيئًا.. غيَّرت فرح الأغنية إلى «كان الزمان» وقالت:



- **كان والداي يكرهان كل ما يمتُّ بصلةٍ للبنان عندما كنّا في أمستردام.. كل شيء كان يذكرهما بالحرب وما ذاقاه خلالها.. كل شيء ما عدا صوت فيروز.. كنا نسمعه في بيتنا ليلَ نهارَ.. تقول أمي إنها كانت تنوي تسميتي باسم فيروز، لكنَّ أبي أصرَّ أن يسميني باسم أخته التي قتلها الفلسطينيّون في الحرب.**

سألها محمود مندهشًا، وهو يضمها من جانبها إليه:

- **فلسطينيّون؟ وما شأن الفلسطينيين بالحرب هنا؟**

تطلّعت له فرح في حيرة، ثم ابتسمت وقالت:

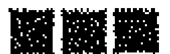
- **يبدو أنك لا تعرف شيئًا عن تاريخ هذا البلد.. لا بأس.. لقد انتهت الحرب منذ زمن وبقي لنا «نصر الله» كي يشعل لنا حربًا جديدة!**

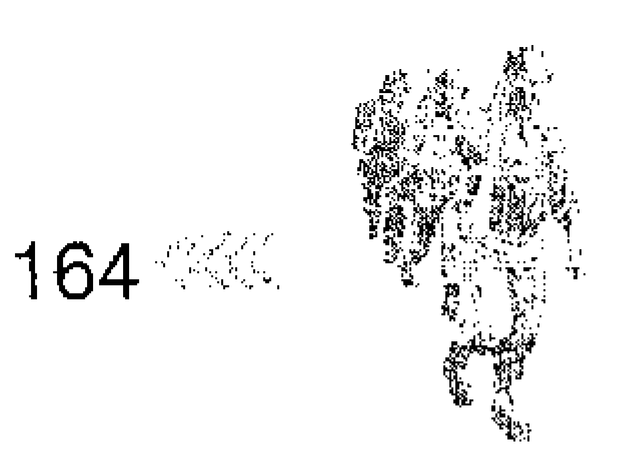
قال محمود وهو يضمها إلى صدره:

- **لقد ابتعدنا عن الحرب الآن.. ألم يحن وقت النوم بعد؟**

فوجئ بها محمود تتطلّع إلى عينيه مباشرة وتهمس:

- **محمود.. أنا أحبك.**





هل هذه الفتاة بلهاء؟

كان محمود مندهشًا من الطريقة التي تعامله بها فرح.. لم تتعامل معه لحظة بمنطق أنه يقضي معها أيامًا وسيرحل من جديد إلى الوطن.. كأنه حبيبها الأبدي.. كأنها تعرفه من زمن.. عندما أسمعته فيروز، توقَّعت منه أن يجزم لها بحبه لها، ولما قال إنه لا يسمعها رأى خيبة الأمل في عينيها.. كأنّها اعتادت منه أن يحب فيروز ويسمعها معها ثم تغيَّر فجأة.. وأمثلة كثيرة من ذلك.. تقول شيئًا باللبنانية فلا يفهمها، فتشرحه له في نفاد صبر، كأنها قالت له ذلك من قبل.. لا تطيق أسئلته عنها، لا لأنها تريد أن تحتفظ بخصوصيتها بل تبدو كأنها تتوقّع منه أن يعرف إجابة كل هذه الأسئلة مُسبقًا!

كما لم يسترح أيضًا لدرجة القرب التي وصلت إليها علاقتهما في أيام قليلة.. في اليوم التالي لمعرفتها له، صارت تتعامل معه كصديق حميم، وسلَّمت له نفسها بكل سهولة.. في البداية قال لنفسه إنها مجرد ساقطة تبحث عن عاشق لها في ملاهي بيروت، وستقضي معه ليلة وتتركه.. ظنَّها أُعجبت بقوته ورجولته ومصريَّته التي تزيح كل الحواجز.. لكنها اعتبرته حبيبها منذ البداية.. لم تضع حدودًا في العلاقة بينهما.. لا حدود على الإطلاق.. لو طلب منها مالًا لأعطته.. دعته إلى بيتها بسهولة.. أخذته لبيت جدَّتها بسهولة أكثر.. قالت له أحبك بأسرع مما توقَّع، وتوقعت منه أن يردَّ عليها.. أول مرة سمعها منها لم يجاوبها بالمثل، فرأى في عينيها نظرة ترقُّب وحيرة.. حينما قالتها له من جديد تلك الليلة،

اكتفـى باحتضانهـا وتقبيلهـا.. وعندمـا همسـت بهـا في أذنه بعـد أن انتهيا مـن نوبة الحب، وجد نفسـه يبادلهـا الكلمة حتَّى لا يخذلها.. كلمة بسـيطة هـي، لكنَّـه شـعر أنهـا مسـئولية ثقيلة يُلقـي بها عـلى عاتقـه.. «أحبك».. ما أبسط هذه الكلمة وما أثقلها!

أحيانًا يتساءل.. هل يحلم هو نفسه أن يرتبط بفتاة في مثل جمالها ورقتها؟ هي لبنانية هولندية وكل منهما ميزة.. تبدو من أسرة ثريَّة.. ألا تمتلك أسرتها شـقة جميلـة في حـي راقٍ في بـيروت، لا يقطن بهـا أحد؟ لكنْ مهـلاً.. فهي مسيحية.. مسيحية مارونية.. هل يمكنه أن يرتبط بمسيحية؟ دينه يسمح له بذلـك، فهل توافق هـي؟ أولًا هي لا تبدو له متديِّنة أصلًا، وثانيًا في أوروبا لا يبالـون بهـذه الأشـياء.. مهلًا، الأمر ليس مسـألة أديـان.. أولاً لا يمكنه أن يرتبـط بامـرأة تعامل معهـا كزوجـة دون أي علاقة شرعيـة معها.. لقد ذاق كل جـزء فيهـا، فماذا بقي كي يستكشـفه بعد الـزواج؟ ثانيًا هو لا يزال طالبًـا يـدرس، ومن المسـتحيل أن يرتبط الآن.. ثالثًا هي مـن عالم وهو من عـالم مختلـف.. لا يمكـن أن يتعامل معها بأكثر مما وضع لنفسـه في البداية.. «عاهـرة» يقضي معها يومين في لبنان ويرحل! لا بد أن تفهم ذلك حتَّى ولو كانت «طلعت معه جدعة» وهرَّبته من جحيم الحرب المستعرة في بيروت.

كان اليـوم الجمعـة.. اتفقـا أن يقضيا اليـوم معًا يتجـوَّلان في بشرى.. تنـاولا غداءهمـا في مطعم بيتزا صغير يُطل على جندل ماء عذب، ينسـاب من الجبل ويختفي خلف الأشـجار.. التقطـا الكثير من الصور على خلفية

من الوادي الجميل والكنائس القديمة، وأرته متحف جبران خليل جبران وقالـت لـه إن بشرى كانت مسـقط رأسـه، وأنـه أوصى أن يُدفـن في أحد أديرتهـا.. تظاهـر بالاهتمام رغم أنه ميَّز اسـم جبران بصعوبـة، وتذكَّر أنَّ إحدى قصائده كانت مقرّرة في المدرسة! قررا أن يدخلا المتحف لكنَّه كان مغلقًا بسبب الأوضاع السياسية.. هنا قالت له فرح وعيناها تلمعان:

- **الأرز.. أنت لم ترَ الأرز بعد..**

وعادا لبيتها حيث أخذا السـيارة وانطلقا بها صاعدين الطريق إلى قرية الأرز.. إلى أعلى الجبل حيث تقع محمية أشجار الأرز فائقة الشهرة.. كانت المحميـة مغلقة أيضًا، لكنهما وقفا أمام مدخلها يتطلّعان للأشـجار العالية الجميلـة.. جلسـا معًـا متعانقـين صامتين، وقـرر محمود أن يكسـر حاجز الصمت ويقول، ليلمِّح لها بما يشغله:

- **شهران وتبدأ الدراسة من جديد.. لا نصدّق أن تبدأ الإجازة حتَّى تنتهي!**

سألته فرح:

- **دراستك في مصر؟ ماذا تدرس؟**

- **إدارة أعمال في الأكاديمية البحرية.**

سـاد الصمت لحظات، بدا فيها أنَ فرح تحاول أن تسـتجمع أفكارها.. ثم قالت وهي تميل برأسها على صدره:



- **لماذا لا تأتي معي لاستكمال دراستك في هولندا؟**

صمت للحظات مفكرًا.. ثم قرر أن يجيبها ببطء:

- **صعب جدًا يا فرح.. أبي لن يوافق، ولا أعرف ما هي ظروف الفيزا.. يقولون إن تأشيرة الاتحاد الأوروبي صعبة جدًا للمصريين.. ثم لا بد أن هولندا غالية جدًا!**

- **كل الطلبة يدرسون نهارًا ويعملون مساء.. الطلبة في هولندا يصرفون على أنفسهم.. أنا أفعل ذلك لكنَّ أبي أيضًا يساعدني.. يمكنني أن أساعدك.. لا يمكن أن تتركني.**

قال محمود وقد قرر أن يكون واضحًا:

- **لا يا عزيزتي.. أعتقد أنني سأنتهي من إجازتي هنا وأعود إلى بلدي.. لا أحب الغُربة.. لماذا لا تزورينني في مصر؟ سأنتظرك!**

ثم أخرج الكاميرا وقال كي لا يعطي لها الفرصة لمناقشته:

- **لماذا لا نأخذ بعض الصور معًا؟ المنظر رائع حقًا!**

وأسرع نحو الجانب الآخر من الطريق يضع الكاميرا على جذع شجرة عريضة هناك، وضبطها أن تلتقط الصورة تلقائيًا بعد عشر ثوان.. عاد إلى جوار فرح واحتواها بين ذراعه فبدتْ له مستكينة مستسلمة، حتَّى لمع فلاش الكاميرا.. نهض محمود وذهب يأخذ الكاميرا وعاد لفرح يريها الصورة قائلاً:

• **صورة جميلة جدًا.. كأنني بصحبة ملاك!**

وناولهـا الكاميرا كي ترى الصورة، لكنَّـه فوجئ بالدموع تملأ عينيها.. وانفجرت باكية بين ذراعيه.

■■■

يناير 1982..

لبنـان يعيـش أظلـم سـنوات تاريخـه.. الحرب الأهليـة لا تـزال تدمِّر مـا لم يتـم تدميره، وتقتل من لا يزال حيًّا، وتُفـرّق من لا يزال متحدًّا، بينما الإسرائيليون يرتِّبون أوراقهم ويعدّون خططهم لاجتياح لبنان والوصول إلى بيروت المقسَّـمة بين شرقية مسيحية وغربية مسـلمة، وفقًا لما يسمى بـ «الخط الأخضر»، وشـارون يلتقي ببشـير الجميل - قائد القوات اللبنانية، الميليشـيا العسـكرية للجبهـة اللبنانية التـي يتزعمها المسـيحيون الموارنة- ليتحالفا معًا من أجل القضاء على منظَّمة التحرير الفلسطينية.

في بيت صغير في بيروت، ولدت فرح من الدكتور إلياس نعيم، أسـتاذ الهندسـة بالجامعـة الأمريكية في بيروت، والسـيدة كارول، مدرِّسـة اللغة الإنجليزيـة في إحـدى المـدارس الأمريكيـة.. لم تعش هناك سـوى خمسـة أعوام، كانت خلالها الأحوال تزداد سوءًا على سوء.. ثلاثة أعوام لا تكاد تتذكر منها سوى الرعب والخوف والرصاص والانفجارات التي تقع من حين لآخر.. وصوت فيروز.. كان دائمًا هناك.



ثم تغيَّر كل شيء في يوم من خريف 1987.. لقد سَئِم والداها الحياة هنا، حيث يدفعان دائمًا ثمن عقيدتهما.. الكل هنا يدفع ثمن عقيدته.. جاءت للأب فرصة للتدريس في جامعة أمستردام، اغتنمها على الفور وسافر مع فرح وأمها ليبدآ صفحة جديدة من حياتهم هناك في أوروبا.. بعيدًا عن نيران الحرب وضوضاء المعارك التي لا تتوقَّف.

ورغم الحياة الأوروبية التي حاول الأبوان فرضها بصفة مستمرة على فرح، فإنها كانت كثيرًا ما تفتقد وطنها الذي شهد سنوات طفولتها الأولى.. تتذكره كلما علا صوت فيروز الساحر في سكون الليل داخل المنزل.. فيروز هي ما تبقى لها من لبنان.

عاشت فرح مراهقتها دون أن تتخلى عن هويتها.. كانت دائمًا ترتبط بأصدقاء من العرب المهاجرين أو الشبان العرب الذي جاءوا للدراسة في أوروبا.. في المدرسة الثانوية تعرفت بكريم.. كان مثلها يعيش محتفظًا بهويته العربية كاملة.. كان مصريًّا يعشق جمال عبد الناصر ويسمع فيروز - مثلها - ويحب السياسة.. اعتادا أن يذاكرا معًا ويخرجا معًا طوال الوقت.. ارتبطا بشدة وصار صديقها الدائم، وعندما التحقا بالجامعة، صارا يعيشان معًا في شقة واحدة صغيرة استأجراها معًا.. لم تكن بحاجة إلى المال، لكنها قررت أن تعمل معه ليلًا في الملهى الليلي بأمستردام.. كان كل شيء جميلًا وكانت تعيش أسعد أيام حياتها معه.. الحب هناك لا يضع حدودًا كثيرة.. يكفيها أنه يحمل مثلها الجينات العربية بكل ما يعنيه ذلك

في بلـد غريب.. يسـمعان معًـا فيروز ويرقصـان الدبكة ويـأكلان الطعام الشرقي المحبب ويجلسـان ليناقشا الأوضاع السياسية في الدول العربية .. هو فعل معها كل ذلك وأكثر.

ثـم جاءت النهايـة العام المـاضي.. تحديـدًا في مارس.. في تلـك الليلة شاهدا معًا الأخبار، وتجادلا في المظاهرات المليونية التي كانت تجتاح لبنان تلـك الأيام.. الأوضاع مضطربة منذ اغتيـال رفيق الحريري، والاتهامات لسـوريا تـكال بلا حسـاب ومعارضوهـا يطالبونها بسـحب جيشـها من لبنان.. تذكر جيدًا ما قاله له يومها.. لا تزال كلماته ترنّ في أذنيها بنفس نبرة الحماس الشـديدة التي تُميّزه كلما تحدث في السياسـة.. منذ زمن ليس ببعيد كانت لبنان وسوريا وطنًا واحدًا وكيانًا واحدًا، ثم جاءت فرنسا وبريطانيا ليقسـما بينهما أراضي الإمبراطوريـة العثمانية المغلوبة، عقب الحرب العالمية الأولى، ويرسـما الحدود التي تقسم أراضي العرب اليوم، ولا يزال العرب يعيشون أوهام هذه الخطوط، ويجعلون منها حدودًا تفصلهم وتفرّقهم، بل ويقتلـون بعضهـم بعضًا من أجلها.. نفس الأوهـام التي تملأ اليوم قلوب شعبين كانا يومًا شعبًا واحدًا!

قـال لها ذلـك ثم تركها ليقضي مشـوارًا لـه.. منذ ذلك الحـين لم يعد.. حادث سـيارة.. في لحظة واحدة ضاع حبها الأول.. الموت المفاجئ الذي ينتزع منا أحبّاءنا بلا سـابق إنذار.. الموت المفاجئ بكل قسوته ووحشته.. الموت المفاجئ الذي يُغيّر حياتنا ويصدمنا بالقدر وقوانينه الصارمة.



استغرق الأمر منها ثلاثة أشهر من العلاج النفسي المكثَّف، كي تتجاوز الصدمة.. تركها كريم.. ذهب فتاها المصري ولم يعد هناك من يشاركها فيروز أو يرقص معها الدبكة أو يجادلها في السياسة.. عادت فرح تواصل حياتها من جديد، وعادت للحياة مع أسرتها، لكنها لم تنسَ «كريم» قط.. ظل دائمًا في أحلامها.. استكملت معه مناقشاتها التي لم تنته بعد، وغنَّت معه «سألتك حبيبي» التي يحبها مرارًا وتكرارًا، وخطَّطت معه لمستقبلهما.. كل ذلك في الحلم.

هذا الصيف جاءت فرح إلى لبنان كي تطفئ أحزانها العميقة في أرض الوطن.. كان والداها مشغولين فجاءت وحدها.. قضت أيامًا مع جدتها في مسقط رأس والدها في بشرى، ثم عادت إلى بيروت التي شهدت طفولتها المرعبة.. بيروت التي رأتها بعدها مرارًا في الإجازات الصيفية لوالديها.. رأت بيروت غارقة في الدمار بعد انتهاء الحرب.. ورأتها حُطامًا تعبث بها آلات شركة سوليدير التي أتت كي تعيد الإعمار.. ورأتها شابة جميلة تستعد لحفل زفافها، يُزيّنونها استعدادًا لاستقبال عريسها.. ثم رأتها خلال الأعوام القليلة الماضية في أبهى صورها.. صارت بيروت قطعة من أوروبا، واشترى والدها تلك الشقة الجميلة في وسط بيروت.. أفضل استثمار للمال هو شراء الشقق التي ترتفع أسعارها مع الوقت.. هكذا قال والدها.

منذ أتت لبيروت قبل أسبوعين راحت تخرج وحيدة وتقضي الليل بين ملاهي الجميزة الليلية.. تشرب كثيرًا وترقص وحدها أو بصحبة دينا..

ودينا مجرد فتاة وحيدة أخرى، تهوى صيد الفتيان وممارسة الجنس معهم مقابل المال.. عاهرة بمعنى آخر.. تعرّفت إليها فرح في الجميزة، وسهرت معها ثلاث أو أربع مرّات، وجدت فيها رفيقة لوحدتها خلال أيام إجازتها، وعلّمتها خلالها كيفية الإيقاع بالفتيان.. لم تحاول فرح قط؛ لأنها لم تكن مثلها تبحث عمن تقضي معه ليلتها، بل كانت تبحث عمن تحبه.. تبحث في الوجوه عمن يذكّرها بكريم.. كانت تريد فتى عربيًّا جديدًا.. فتى تحبه ويسمع معها فيروز ويرقص معها الدبكة ويحلل لها السياسة في لبنان.. تريد من يحكي لها كيف تستمر لبنان بعد رفيق الحريري.

عندما رأت فرح محمود للمرة الأولى، لم تدر ماذا أصابها.. من النظرة الأولى ذكّرها بكريم.. حدست أنه من بلد كريم.. شيء ما في عينيه السوداوين الواسعتين.. في وجهه القمحي المستدير.. في جسده الطويل ممشوق القوام.. رباه! كم كان أشبه بكريم.. لا، الحقيقة أنه لا يشبه كريم مطلقًا.. شيء غامض تعجز هي نفسها عن تفسيره جعلها تدرك أنه من بلد حبيبها.. وكان وحيدًا.. وحيدًا مثلها.. كان يرقص ويتقافز بطريقة مضحكة .. مثلما كان كريم يفعل.. وكانت عيناه تبحثان عمن يشاركه الرقص فتقدّمت له.. عندما لمسها للمرة الأولى وشعرت بأنامله الباردة على كتفها العارية، ولفحت أنفاسه الحارّة جانب وجهها خلال رقصتهما، خفق قلبها بقوة.. ماذا حدث إذن حينما قادها إلى تلك المائدة البعيدة في ركن الملهى، وأخبرها بكلمة السر التي فتحت له قلبها إلى الأبد.. أخبرها أنه من بلد عشيقها.

والآن.. الآن يا محمود.. تريد أن تتركني؟ تريد أن تتركني مثلما فعل كريم؟

■■■

هكذا إذن.. تريده بديلًا عن فتاها الأول.. هو ارتاب فيها من البداية.. هذه الفتاة ليست طبيعيَّة.. شك أنها تُخفي سرًّا خطيرًا.. تحمل خلفها قصة كبيرة.. راح ذهنه يربط أحداثًا كثيرة وقعت من فرح خلال اليومين الماضيين منذ عرفها.. الآن يفهم كل ما لم يفهمه من قبل.. هذه المجنونة!

لم يتحدثا طوال طريق العودة.. حكت له قصتها وطلبت منه أن يعدها ألا يتركها وهي تتطلع إليه في رجاء بعينين دامعتين.. هذه الفتاة لم تشف تمامًا من أزمتها النفسية. هكذا قال لنفسه وخطط أنه لن يتورَّط معها أكثر من ذلك.. صحيح أنه معها الآن في مسقط رأسها، لكنَّه لن يخسر شيئًا إذا قضى معها الأيام القادمة وواصل استمتاعه بها.. عندما تهدأ الأمور في بيروت سيعود.. طبعًا سيتركها.. مجنون هو كي يُعلِّق نفسه بهذه الفتاة الحمقاء لمجرد أنها ترى فيه بديلًا لفتاها هذا! ماذا كان اسمه؟ كريم الله يرحمه، لا بد أن الفتى عاش أجمل لحظات حياته بين أحضانها!

لم يعدها محمود بشيء.. فقط احتواها في حضنه ومسح دموعها بحنان.. لا بد أنه تعاطف معها.. وليس معنى أن يتعاطف معها أن يُحبَّها.. ما شأنه

هـو أن حبيبهـا رحل وتركها وحيـدة؟ هل يدفع الثمن لمجـرد أنه مصري يشـبهه؟ ثم إنـه لا يحب فـيروز ولا يجيد رقـص الدبكة، ولا يعرف شـيئًا عن السياسـة في لبنان.. وضحك في قرارة نفسـه ساخرًا.. بصراحة هو لا يجيد إلا الكلام في كرة القدم.. هل تقبل أن تشـاركه مناقشـاته الحامية عن تشيلسي والأرسنال وباقي أندية الدوري الإنجليزي؟

وصـلا بشرى، وذهبا للسـوبر ماركـت وابتاعا بعـض المعلَّبات.. كان حسـن نصر الله يُلقي خطابًا جديدًا على شاشة التليفزيون.. تعجب محمود وتساءل في سرِّهِ: ألا يمل هؤلاء القوم مشاهدة نصر الله؟!

كانت الشـمس قد مالت إلى الغـروب، فاقترحت فرح أن يقوما بعمل «بكنيـك»، ويتنـاولا طعامهـما في الهواء الطلـق.. أن يشـاهدا معًا غروب الشـمس على وادي قاديشـا وهما يأكلان.. عادت فرح إلى طبيعتها وبدت أكثـر مرحًـا، كأنها تحاول أن تُنسي محمود دموعها والـدور الدرامي الذي لعبتـه أمامـه منـذ قليل.. القلـق لا يزال في عينيهـا ولا تزال نظـرة الرجاء تسقط من نظراتها من حين لآخر، لكنها تتظاهر بالمرح..

قـادت السـيارة إلى جانـب منعـزل مـن الطريـق الصاعد تجـاه الأرز، وتوقَّفت إلى جوار جندل صغير، يتساقط من جانب الجبل ليسري في هدوء إلى المجهول.. غسـلا أيديهما في ماء الجندل البارد وافترشـا العراء وأخرجا المعلبـات والخبز.. كان المنظـر رائعًا، تجتمع فيه السـماء الصافية مع قرص الشـمس الذي يستعد للرحيل والوادي الكبير الذي يقسم الجبل نصفين،

مالئًا فراغه بالخُضرة التي تكسو الأفق تمامًا، بينما تبدو الكنائس والبيوت الصغيرة ذات الطراز الأوروبي مُشكِّلة مدينة بشرى تحتهما.. علا صوت فيروز من جوَّال فرح: «نسم علينا الهوا من مفرق الوادي».. وتساءل محمود في سرِّه: هل كان الأخ كريم يحب هذه الأغنية أيضًا؟

لم يجدَّ جديدٌ باقي اليوم.. في الليل شعر محمود بشوق غامر لصديقه عماد، وقرر أن يكلِّمه، رغم نظرات فرح المعترضة.. حاول أن يتصل به مرارًا، لكن جواله كان مغلقًا.. قاوم قلقه وقال إنه يعرف عماد.. يغلق هاتفه عندما تتزايد الاتصالات عليه، فيقرر أن يتجاهلها.. لا بد أن أقاربه لا يكفُّون عن الاتصال به.. فجأة خطر له أن يكون عماد قد ترك لبنان وهرب.. الكل يفر إلى دمشق.. معقول؟ يتركه ويهرب؟ ما المانع مادام هو نفسه قد تركه وهرب مع فرح؟

عندما جمعهما الفراش ليلًا، لم يكن محمود قويًّا كما اعتادته فرح، واعتذر قائلاً إنه مرهق جدًّا.. نام نومًا عميقًا استيقظ منه ظهر اليوم التالي على رنين جوَّاله.. كان الرقم الذي يتلاعب على الشاشة رقمًا لبنانيًّا، وقرر للوهلة الأولى ألا يرد ويكمل نومه، ثم فكَّر أن عماد ربما فقد جواله أو انتهى رصيده، فيحاول الاتصال به من هاتف لبناني.. رد بحذر:

- **هالو...**

جاءه صوت أنثوي مرتبك يقول بلهجة لبنانية:



- **هالو.. آسفة لكننا وجدنا رقمك على جوّال شاب مصري يدعى عماد.. كنت آخر من اتصل به.. هل تعرفه؟**

وثب محمود من الفراش منزعجًا، فهبت فرح جواره تتطلع له بقلق.. تساءل:

- **هو صديقي.. هل وجدت موبايله أم ماذا؟ ألا تعرفين أين هو؟**

ساد الصمت لحظات وسمع صاحبة الصوت تقول شيئًا لم يميزه لشخص آخر جوارها ثم جاءه الجواب المرتبك:

- **في الحقيقة صديقك عندنا هنا..**

■■■



14

ما سر العلاقة بين أسامة وداليا؟

رأيتهما هذا الصباح متشابكي الأيدي، وهما جالسان معًا على مكتب الأول.. أسامة على المقعد، وداليا على المكتب لتواجهه بوجهها.. .دخلت الغرفة حاملًا الصُّحف وألقيت التحيَّة، ثم أوليتهما ظهري وجلست على مكتبي أقرأ الصحف.. ظلا يتهامسان كثيرًا وانهمكت أنا في الانتقال من عنوان جريدة لأخرى.. ماذا سيحدث في لبنان؟ الله وحده يعلم ما يمكن أن تحمله الأيام القادمة.. صحيح أن إسرائيل مشغولة في غزَّة، لكن هذا لن يمنعها من الرد بقوة على حزب الله.. ربنا يستر.

عندما وصل مستر باهي، انصرفت داليا إلى مكتبها، وبدأنا العمل الجاد.. دخل باهي الغرفة ونظر لي نظرة صامتة طويلة، كأنه يقول: «جيِّد أنك جئت في موعدك اليوم.. فلتلتزم بذلك كل يوم»، ثم ناول أسامة ردًّا وصل بالفاكس من إحدى الشركات، وانصرف.. قال لي أسامة سعيدًا:

- **أرأيت؟ هذه شركة عصام الدين التي سألتك عنها؟ هل تذكرها؟**

لم أتذكرها لكني قلت شيئًا غير مفهوم من حنجرتي، كي يفهم أنني أسمعه.. واصل:

- **كانوا مخطئين.. السكرتيرة لا تُجيد الإنجليزية وظنَّت فاكسنا هو نفس الفاكس الذي جاءها من شركة أمريكية أخرى، ها هم قد فهموا، ووافقوا على الاشتراك معنا.. سأوقِّع العقد اليوم.**

- **مبروك..**

قلتها في فتور، وأنا أنتقل إلى جريدة رابعة.. عاد باهي للغرفة ونظر لي بحزم، كأنه يقول: «ألم يحن الوقت كي تترك الصحف وتبدأ عملك؟».. تجاهلته وواصلت تصفُّح الجرائد، فانشغل بتصفُّح مجلد دليل الشركات المصرية لبعض الوقت، ثم قال إنه يريد أن يقرأ الصحف.. وأخذ كل الصحف وترك لي جريدة الوفد التي كنت أقرؤها!

مضى الوقت مملًّا، بين المكالمات الهاتفية المعتادة، ووقَّعت ثلاثة عقود مع ثلاثة عملاء مختلفين.. شركات أخرى اتصلت وطلبت تأجيل تعاقدها.. أسهم البورصة تتراجع ورجال الأعمال مشغولون بمتابعتها.. عندما بدأت جولة بين مواقع الأخبار عرفت ما حدث طوال الليلة الماضية.. الأوغاد لم يتوقفوا لحظة عن قصف الجنوب اللبناني والضاحية.

انشغلت بقراءة تعليقات القراء على موقع العربية نت.. من يُحيِّي حزب



الله على خطوته الجريئة لمؤازرة إخواننا الفلسطينيين، ومن يلعن حزب الله ويلعن إسرائيل ويلعن كل الحكام العرب، ومن يؤكد بثقة مفرطة أن إسرائيل أخذت الضوء الأخضر من زعيمين عربيين كبيرين قبل شن حربها، ومن يعلن أنه «شيعي متعصب» ويدعو للنصر لإيران وحزب الله.. كانت التعليقات قد وصلت لأكثر من 500 تعليق، رحت أتجوَّل بينها مندهشًا من كم الطائفية والعنصرية التي تحتويها ولا يحذف الموقع منها حرفًا.. «فلسطيني فخور» يشتم الحكومة اللبنانية الضعيفة التي تهربت من مسئولية عملية الوعد الصادق، و«لبناني في لندن» يتنبأ بحرب طويلة مريرة تدمِّر البلاد ثم يسب نصر الله بألفاظ إنجليزية قبيحة، و«مصري حزين» يدعو بنصرة الإسلام والمسلمين على اليهود والكفار، فيرد عليه «من بلد المليون شهيد» متحسرًا على أيام عبد الناصر والقومية العربية، ثم يصب اللعنات على النظام المصري المتأمرك العميل، لتنهال بعدها اللعنات على الصهاينة والأمريكان والعملاء من الحكام العرب مع آيات كثيرة من القرآن الكريم.. شعرت بالصداع من كثرة التعليقات واختلاف الآراء، فأغلقت الموقع.. وتذكرت عماد.. ما الذي تفعله الآن يا صديقي؟

خرجتُ متعللًا بشراء بعض الساندويتشات من الخارج لآخذ موبايلي من مكتب الاستقبال.. سرت في شوارع جاردن سيتي الهادئة، واتصلت بعماد مرارًا، لم يرد.. بعد قليل وصلتني رسالة قصيرة يطمئنني فيها على أحواله بكلمات إنجليزية مقتضبة.. «لا تقلق.. كل شيء على ما يرام»

- **Don't worry. Everything is ok.**

لكنني ظللت قلقًا.. عندما عدت إلى شقتي بالهرم في الخامسة والنصف مساءً، رحت أتنقل بين المحطات الفضائية الإخبارية أتابع تطورات الحرب.. المراسل الشاب يتحدث من حيفا ويقول إن الحكومة الإسرائيلية قد أعلنت حالة الطوارئ وأن الملاجئ قد فتحت لاستقبال المدنيين في حال وصول صواريخ حزب الله إلى المدينة.. مدينة نهاريا تعيش في رعب حقيقي بعد أن توالت الانفجارات فيها منذ الصباح، وبدأ عشرات الآلاف في النزوح منها.. لم أصدِّق ما يحدث.. هل صواريخ حزب الله بكل هذه الخطورة؟ هل استطاع أن يثير ذعر الإسرائيليين إلى هذا الحد؟ هل حقًّا يمكن لنصر الله أن يذيقهم ولو شيئًا قليلًا مما يعانيه الفلسطينيون من رعب دائم؟ كيف سيرد الإسرائيليون؟ بل هل سترد أمريكا؟

جاء عمر وجلس يشاهد معي الأخبار، حتَّى أصابه الملل بعد أقل من دقيقة.. أصرَّ أن نبحث بين المحطات الفضائية عن فيلم ظريف نشاهده، قلت له إن هناك حربًا قد اشتعلت في دولة عربية شقيقة، وأضعف الإيمان أن نتابعها، ضحك وقال لي: «يا عم ارحمنا بقى من أم الوطنية اللي إنت عايش فيها.. إنت قاعد قدام التليفزيون بقى لك ساعتين ومش عارفين نشوف أي حاجة». في صمت ناولته جهاز التحكم عن بعد وقمت أجهِّز حقيبتي.. اليوم الخميس.. يوم عرسي كل أسبوع.. الرحيل إلى مدينتي العزيزة..



قضيت السهرة مع أصدقائي في نفس المقهى المفضَّل المطل على نيل المنصورة.. حاولت الاتصال مرارًا بعماد علّه يرد، لكن موبايله كان مغلقًا.. لماذا أغلق هذا الغبيُّ جوَّاله؟ حاولت مقاومة الشعور بالقلق، ظللت صامتًا طوال الجلسة أستمع إلى تعليقات الأصدقاء عن الحرب وسط أدخنة الشيشة والسجائر وأصوات قرع الدومينو وأغنية «إنت عمري» لأم كلثوم.. كان ياسر يؤكد أن «نصر الله ده راجل جامد وهيطحن الإسرائيليين». ومصطفى مُصرّ أن «نصر الله ده شيعي كافر ينفِّذ أجندة إيرانية لتشييع المسلمين»، وظل حسين يسخر من حديثهما الجاد طوال الوقت، ويتساءل عما تفعله نانسي عجرم وهيفاء وهبي في ظل هذا القصف اللعين.. فارقتهم بعد ساعة واتفقنا أن نُصلي الجمعة غدًا في مسجد النصر.

عندما وصلت إلى البيت، كانت مها تدردش مع شخص ما على الكمبيوتر.. طلبت منها أن تعدَّ لي العشاء، فوافقت على مضض.. هرعت إلى التليفزيون أبحث عن آخر التطورات، وهنا سمعت موبايلي يرن.. من يتصل بي في الثانية صباحًا؟! لدهشتي كانت ندى هي المتصلة.. أول مرَّة تتصل بي.. ندى؟ هل يكون لديها أخبار عن عماد؟

- **ندى.. كيف حالك؟**

جاءني صوتها مكتومًا وقد بدا أنها تبكي:

- **عماد يا شادي.. عماد لا يرد..**

■■■



لن تكون صلاة الجمعة عاديَّة هذه المرَّة..

لاحظت منذ البداية عربات الأمن المركزي الضخمة تصطف على جانبي الطريق.. استطعت أن أُحصي سبعًا أو ثماني عربات، وتأمَّلت على باب إحداها وجوه الجنود الغارقة في العرق.. تُرى، كيف تبدو الرائحة داخل هذه العربات المُكدَّسة بالجنود في هذا الحر؟ لا ريب أنهم يتوقعون مظاهرات اليوم، لا سيَّما بعد صمت مصر الغريب تجاه الاعتداءات الإسرائيلية.. ما الجديد؟ السعودية بجلالة قدرها انتقدت موقف حزب الله واعتبرته «مغامرة غير محسوبة العواقب»، فماذا نتوقّع من مصر؟ ربما يُفضلون الانتظار قليلًا حتَّى يجتمع الوزراء العرب ليعدُّوا بيان الإدانة.. إدانة حزب الله طبعًا!

امتلأ المسجد خلال الدقائق الأولى للخطبة.. بين الصفوف أمكنني أن أميّز بعض الرجال الأشدّاء الذين خمّنت أنهم خفراء أو عملاء لأمن الدولة.. في المسجد.. ولم لا؟.. وقف الخطيب يقول كلامًا كثيرًا مما يبدأ به الخُطباء خُطبهم، وأطال كثيرًا هذه المرّة.. أدعية كثيرة عامة رددها أكثر من مرة، قبل أن يبدأ موضوع الخطبة الذي يترقّبه الجميع .. النكاح في الإسلام!

تبادل البعض النظرات الساخرة، لكن الأغلبيّة بدوا غير مبالين.. شرد أغلب الجالسين، واستمعتُ قلة قليلة باهتمام إلى الخطيب وهو يشرح لنا بالتفصيل الحديث النبوي الشريف: «تُنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك».



شردت.. تذكرت ندى ومحادثتها الهاتفية الباكية أمس.. الفتاة تعيش في رعب حقيقي على عماد.. الأحمق أغلق موبايله ولا يرد على أحد.. كانت تبكي وحاولت تهدئتها وإقناعها أن الأمور على خير بإذن الله.. الإنجليز يقولون «ليس هناك أخبار فالأخبار جيدة» No news is good news.. كنت غبيًّا.. انفجرت فيّ صائحة: «من قال ليس هناك أخبار؟.. ألا تشاهد التليفزيون؟ كل هذه النيران والصواريخ ولا أخبار؟».. كيف تركتها تصيح فيّ غاضبة هكذا؟.. لا بأس، أنا أتفهّم موقفها تمامًا.. كما أنني لا أزال قلقًا مثلها.. لا بد أن أبحث عن رقم والد عماد، وأتصل به، أسأله عن ابنه.. ربما يكون لديه جديد.

انتهت الخطبة واكتفى الخطيب بمجموعة من الأدعية المحفوظة، كرر فيها «اللهم عليك باليهود ومن والاهم.. اللهم أرنا فيهم عجائب قدرتك.. اللهم خذهم أخذ عزيز مقتدر.. اللهم أحصهم عددًا.. واقتلهم بددًا.. ولا تُبق منهم أحدًا..» توالت الصيحات تردد بحماس آمين آمين.. تخيّلت جونا معنا في صلاتنا، وشعرت بالخجل عندما تخيّلته يسألني: لماذا يدعو المسلمون علينا؟ نحن لا ندعو عليكم في صلاتنا!

استعذت بالله من الشيطان الرجيم لأطرد عن ذهني التخيّلات وأخشع في الصلاة.. انتهينا، وبدأ المصلون يخرجون.. تعالت أصوات كثيرة تدعو الناس للتجمّع أمام المسجد للتظاهر ضد الصمت العربي تجاه الاعتداءات الإسرائيلية، وعكف عدد من الشبان على توزيع المنشورات..

أوراق منسوخة تحمل صورًا لأطفال شهداء ومقاطع مقصوصة من بعض الصحف عن استشهاد عشرات اللبنانيين خلال القصف أمس.. لمحت صديقي ياسر، فناديت عليه، وخرجنا معًا إلى شارع الجيش حيث كان جنود الأمن المركزي على أُهبة الاستعداد بالدروع الواقية والعصي الخشبية الطويلة، وقد وقفوا على طول الطريق في انتظار الخارجين من المسجد.. ماذا سيحدث؟ هل يتراجع منظمو المظاهرة؟ يبدو واضحًا أنهم من الإخوان، والإخوان لا يستسلمون بسهولة!

وبالفعل كانوا مُصرّين.. أكثر من ألف رجل تجمعوا معًا أمام المسجد ورفع أحدهم صورة كبيرة لحسن نصر الله، ورفع آخر عَلَمًا لبنانيًّا وثالث علمًا فلسطينيًّا، ثم دوّت الهتافات كالرعد في صوت واحد:

- **نصر الله يا حبيب.. اضرب اضرب تل أبيب.**
- **خيبر خيبر يا يهود.. جيش محمد سوف يعود.**

بدا التردد على وجوه عساكر الأمن المركزي، واتجهت أنظارهم نحو الضابط الذي يتحدّث في هاتف اللاسلكي.. انضم الكثيرون للمظاهرة، بينما أسرع باقي المصلين الخارجين من المسجد بالفرار مبتعدين.. جذبني ياسر كي نبتعد بدورنا، لكنّني ظللتُ واقفًا أمام المسجد وسط الزحام أتابع ما يحدث.. ازدادت الهتافات قوة وانضم مئات آخرون للواقفين.. رأينا عددًا آخر من عربات الأمن المركزي مُقبلًا، توقّفت العربات على جانب الطريق المجاور، ووثب منها الجنود بسرعة وانتشروا.. إنهم يطوقوننا..

• **يلا بينا نبعد!**

هكذا جذبني ياسر كي نبتعد لكنني استبقيته..

• **انتظر.. دعنا نر ما سيحدث..**

خلال دقائق قليلة، انضمت جموع أخرى لا أعرف من أين أتت للحشود أمام المسجد، واصطف عساكر الأمن المركزي في صفوف متجاورة متلاصقة، مشكّلين حائطًا بشريًّا لمنع المظاهرة إذا تقدّمت تجاه الشارع.. ارتفعت لافتات كثيرة تحمل شعارات تندّد بالعدوان الإسرائيلي، وتساند كفاح الشعب الفلسطيني واللبناني، رأيت رجالًا ملتحين يقودون المظاهرة، ويشجّعون الناس على التقدّم، وما إن تقدّمت الجموع تجاه الشارع، حتَّى اشتعل الموقف.. صدرت الأوامر وارتفعت عصي العساكر.. وفي الهواء رأينا قنبلة تطير، ثم امتلأ المكان بالدخان..

لم أعرف أين ذهب ياسر.. أسرعت بالركض مبتعدًا عن مجال الدخان وأنا أكتم أنفاسي.. توالى إطلاق القنابل المسيلة للدموع وأنا أبتعد أكثر وأكثر.. أين ذهب ياسر؟.. كلّمته على موبايله فلم يرد.. قررت أن أعود لأرى ما يحدث.. كانت جموع المتظاهرين قد ارتبكت، وبدأ الدخان يختفي من الهواء، وتعالت صفارات سيارات الإسعاف.. لمحت ياسر جالسًا على جانب، يمسح عينيه بمنديل ويسعل بقوة.. أسرعتُ إليه فلما رآني صرخ فيَّ:

- **رأيت ما فعلته فينا؟ مالنا ومال الإخوان؟**

هنا انقض علينا فجأة ثلاثة رجال، وأمسكني أحدهم من قميصي.. نظرتُ له مُندهشًا فدفعني بقوة وغلظة صائحًا:

- **قدّامي يا روح أمك!**

كان ياسر مدفوعًا بدوره.. صاح غاضبًا في الرجل الضخم الذي يمسك به:

- **والله العظيم لسنا من المتظاهرين.. كنا نصلي في المسجد وخرجنا توًا..**

لكن الرجال لم يسمعونا.. دفعونا بقوة دون أن ينصتوا لما نقول.. إذن الأوامر صدرت بالقبض على المتظاهرين.. رأيت العساكر يمسكون بمن أضعفهم دخان القنابل ويقبضون عليهم.. وجاءت سيارات شرطة كثيرة راحوا يدفعونهم داخلها في غلظة.. ورأيت الرجل ذا اللحية الكبيرة الذي كان يقود الهتافات في حماس، يبتسم بغير اهتمام وأحد العساكر يدفعه داخل البوكس.. بصق ياسر على الأرض، ونظر إلي قائلًا:

- **اتقفشنا يا حلو.. عجبك كده؟**

تكدّسنا مع ثمانية آخرين، داخل سيارة البوكس - لا أعرف كيف اتسعت لنا جميعًا!- ووقف اثنان من العساكر على بابها من الخارج وانطلقت بنا.. بهذه البساطة؟.. كنت لا أزال مندهشًا، وياسر لا يكف



عن إطلاق اللعنات والسباب في سرّه، وينظر لي في لوم.. وقال لي: - إحنا مال أمّنا بالإخوان؟

- **إلى أين؟**

تساءلتُ، فرد أحد الشبان الثمانية ببساطة:

- **طبعًا مديرية الأمن.**

كانوا جميعًا شبابًا.. اثنان منهم ملتحيان.. تعارفنا سريعًا.. ثلاثة في كلية الطب بجامعة المنصورة، وواحد في كلية التجارة، والخامس في كلية العلوم، الباقون لم يتحدّثوا، ولم يُعلنوا عن أنفسهم.. كان أكثرهم جرأة الشاب الملتحي طالب الطب.. ظل طوال الطريق يلعن النظام الحاكم، ويصبّ اللعنات على الحزب الوطني، والباقون يتطلّعون له مندهشين من جرأته، علّق أحدهم ساخرًا:

- **لو قلت هذا الكلام في المديرية، لن تخرج منها رجلًا!**

انتهى بنا المطاف في صالة واسعة في الطابق الثالث من مبنى المديرية، حيث تجمع أكثر من خمسين شابًّا.. بدأ البعض يُجري اتصالاته مع أقاربه، كي يجد واسطة تُخرجه، وجاء ضابطان جلس أحدهما على المكتب، ووقف الآخر يتطلع إلينا بنظراتٍ صارمة وهو يسب ويشتم الكل.. كان برتبة رائد.. نسر واحد على كتفه إذن هو رائد..

- **فاكرين نفسكم في غزّة.. عايزين تحاربوا يا روح أمكم؟**

هنا جذبني ياسر من قميصي وهمس في أذني:



- **ما تتدخل يا سيدي.. قل لهم من أنت..**

ضحكت وقلت:

- **ومن أنا؟.. لست ابن المحافظ أو نائب مجلس الشعب..**
- **أنت أهم من ذلك.. ألا تعمل في السفارة الأمريكية؟ لا بد أن لديك حصانة دبلوماسية!**

نظرت له مندهشًا.. نعم أعمل في السفارة الأمريكية، لكن هذا لا يعني شيئًا.. أسرع يقول لي:

- **ألا تحمل كارنيه السفارة؟**

أخرجتُ البطاقة التي تحمل اسمي وصورتي وشعار السفارة الأمريكية من محفظتي، فاختطفه مني ياسر.. قال:

- **وساكت من ساعتها؟ سنخرج حالًا..**

ثم رفع صوته قائلًا للضابط:

- **حضرة الضابط.. نحن جئنا هنا خطأ.. من الخطأ أن تقبضوا على موظف في السفارة الأمريكية.. أليس كذلك؟**

نظر له الضابط باحتقار ثم تساءل:

- **السفارة الأمريكية؟**

تجرّأ ياسر أكثر وتقدّم نحوه ولوّح في وجهه بالبطاقة قائلًا:

- **نعم.. انظر.. هذا صديقي.. دبلوماسي في السفارة الأمريكية.. يمكننا الآن أن نُجري اتصالًا بوزارة الخارجية ونخبرهم بما يجري هنا..**

لم تعجب لهجة التهديد في عبارته الضابط، أخذ البطاقة من ياسر وراح ينظر لها بشك، ويقلّبها بين يديه.. تقدّمت نحو ياسر لأقول له شيئًا، لكنّه أشار لي بثقة أن أنتظر.. راح الشبان يتطلّعون لنا بدهشة، وتعالت همساتهم.. طلب مني الضابط أن أتقدّم، فتقدّمت.. سألني وقد تغيّرت لهجته كثيرًا:

- **أنت شادي الهوسني؟**

لم يعرف كيف يقرأ الاسم بالإنجليزية.. أومأت برأسي أن نعم، وقال ياسر مُصحّحًا:

- **شادي الحسيني يا باشا.**

نظر له الضابط بحزم وقال:

- **أنا أسأله هو.**

وعاد يتطلّع لي بعمق، وهو يتأمّل ملابسي ووجهي.. نعم، ربما يبدو جسمي ضئيلًا نحيلًا على «منصب عظيم» كهذا كما يعتقد العامة.. سألني:

- **ماذا تفعل في السفارة الأمريكية؟**

ابتلعتُ لعابي وقلت بصوت حاولت إكسابه أكبر قدر من الخطورة:



- **أعمل في القسم التجاري.. نتبع وزارة التجارة الأمريكية مباشرة.**

قلّب الضابط البطاقة بين يديه من جديد.. أشار لياسر باشمئزاز وسألني:

- **وهذا؟ هل تعرفه؟**

ابتسم ياسر في تحدٍّ، وقلت:

- **نعم.. هو صديقي..**

طلب منه الضابط بطاقته الشخصية، فأعطاها له ياسر في بساطة.. ألقى عليها الضابط نظرة سريعة ثم أعادها له وسألني:

- **ولماذا كنتما في المظاهرة؟**

أسرع ياسر يجيب:

- **لم نكن فيها يا باشا.. كنا خارجين من جامع النصر.. هل صلاة الجمعة مخالفة للقانون يا باشا؟**

رمقه بنظرة غاضبة وقال:

- **أنا أسأل صاحبك.. لماذا كنت في المظاهرة يا شادي؟**
- **كما قال ياسر.. كنا خارجين من الصلاة فحسب.**

تركنا الضابط وذهب بالبطاقة إلى حيث يجلس الضابط الآخر الذي يبدو أكبر رتبة.. نسر ونجمة على كتفه.. مقدم حسبما أعتقد.. وقف ياسر

يتابع الحوار الهامس بين الضابطين، مبتسمًا في ثقة، وأنا أشعر بالنظرات الحانقة التي يرمقنا بها الشبان الآخرون تخترقنا كالسهام.. نهض الضابط المقدّم واتّجه إلينا مع الضابط الآخر وصافحني باحترام وقال:

- **آسفين يا شادي.. كنا نظنّك مع المتظاهرين.. ما الذي جاء بك إلى المنصورة؟**
- **أنا أصلًا من المنصورة.**
- **آسفين جدًّا.. تحب تشرب حاجة؟**

قلت له وياسر يشبك يده بذراعي كي يعرف الضابط أنه معي:

- **لا، شكرًا جزيلًا.. فقط نريد أن ننصرف.**

قلتها ضاغطًا على حرف «النون» في «ننصرف».. همس ياسر في أذني مازحًا:

- **ليه يا عم.. ما نشرب شاي؟**

نقل الضابط عينيه بيني وبين ياسر، فأسرع ياسر يقول:

- **ربنا يعين الداخلية يا باشا.. تتعبون كثيرًا وعهد الله!**

تجاهله الضابط، وقال لي وهو يناولني بطاقة السفارة:

- **تحب نرسل سيارة شرطة لتوصيلك؟**
- **لا.. شكرًا.. سنأخذ «تاكسي»..**



سمح لنا الضابط بالانصراف.. لوّحت بيدي مودّعًا للآخرين متمنيًا لهم حظًّا سعيدًا، وصافحت طالب الطب الملتحي الذي كان معنا في سيارة البوكس.. صافحني بغير ترحاب، وهو ينظر إليَّ كأنما خدعته.. ما إن غادرنا مبنى المديرية حتَّى انفجرت في ياسر:

- **تبًّا! ما هذا الذي فعلناه؟!**

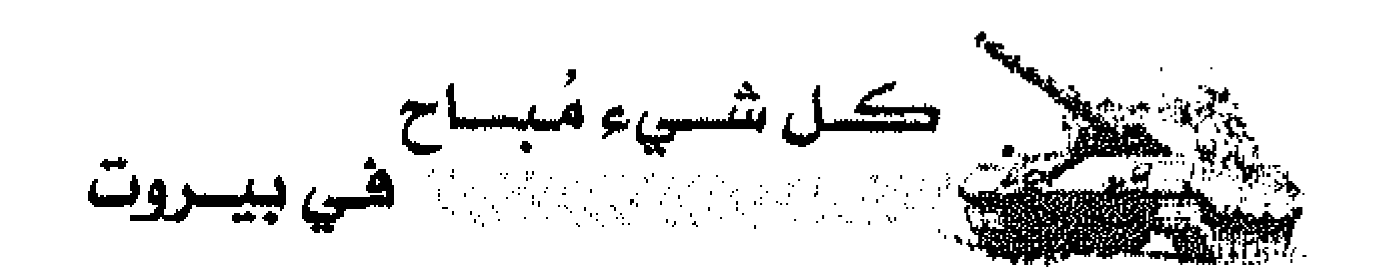
وكان ياسر يضحك.. يضحك بشدة.

■■■

اجتمعنا مساء السبت في الحرم اليوناني للجامعة الأمريكية..

كانوا خمسة، سادسهم أنا.. جلسنا في دائرة في الساحة المواجهة لمدخل المكتبة.. كنت أعرفهم جميعًا.. كانوا من أكثر الطلاب نشاطًا في الجامعة، وكنت الوحيد الذي تخرّج بالفعل.. أحمد فضالي المشهور بتحمّسه للإخوان المسلمين - يقال إنه أحد أبناء القيادات السرّية للجماعة لكنّه ينكر ذلك، حازم السباعي الذي تزعّم ناديين من الأندية الخيرية في الجامعة خلال العامين الماضيين، بلال عبد العظيم رئيس اتحاد الطلبة، سميّة فتحي الفلسطينية رئيسة نادي القدس، وماري لويس التي تكتب في جريدة القافلة التي يصدرها قسم الإعلام بالجامعة.. كنت أعرفهم جيدًا، وتعاملت معهم كثيرًا خلال سنوات الدراسة، ولم أتردّد في قبول دعوة فضالي عندما اتصل بي بالأمس وقال لي:





- **عاوزين نعمل حاجة للبنان وفلسطين في الجامعة.**

أستطيع أن أفهم لماذا يريدونني معهم؟.. خبرتي خلال أربعة أعوام في الجامعة في التعامل مع الإدارة، والتفاوض معهم من أجل تنظيم المظاهرات والاحتجاجات والاعتصامات داخل الحرم.. ثمة سؤال واحد كان يشغلني بشدّة، هل يعرفون حقًّا أنني أعمل الآن في السفارة الأمريكية؟ كيف يَخْفَى خبرٌ كهذا؟

بدأ أحمد فضالي الاجتماع.. بَسمل وتلا الفاتحة ثم فتح كشكول محاضراته، حيثُ يسجّل بعض الملاحظات.. عرض بسرعة ما حدث خلال الأيام الماضية، منذ انتقل العدوان الإسرائيلي من غزة إلى لبنان، وقال إنه تحدّث مع بلال أمس الأول واتفقا معًا أننا كطلبة لا بد أن نفعل شيئًا لمؤازرة أشقّائنا في فلسطين ولبنان.. وطلب أن يسمع اقتراحاتنا.. ما الذي يمكن أن نفعله؟

توالت الاقتراحات: حملة تبرّعات.. .النزول إلى الجامعات الأخرى.. حملة توعية بين الطلبة.. مخاطبة رجال الأعمال والشركات كي تدعمنا.. أشياء كهذه اعتدنا عليها.. ظللتُ صامتًا حتَّى جاء الدور عليّ، فلم أجد جديدًا أضيفه.. فقط تساءلت:

- **هل يعرف أحد من الإدارة بأمر هذا الاجتماع؟**

قال بلال:



- **ليس بعد.. الاتحاد سيتولّى الأمر.. علينا أن نضع خططنا للحملة وشعارها ونصمم ملصقاتها الدعائية، ثم نُعلن عن أنفسنا.**

انتهى الاجتماع بالاتفاق على اسم «وحدة»، كاسم مبدئي للحملة، قالت ماري إنها ستصمم لنا «لوجو» الحملة، وترسله لنا على بريدنا الإلكتروني.. أحمد فضالي سيُنشئ «جروبًا» على الفيس بوك، لنبدأ في جمع الاقتراحات من زملائنا في الجامعة.. لا بد أن نتحرّك بسرعة.

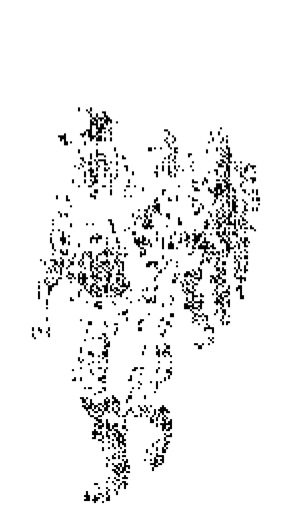
صعدتُ مع فضالي لنُصلّي العشاء جماعة في المسجد الصغير داخل الحرم، وبعدها اتجهنا للبستان حيث تركت سيارتي.. ركب فضالي معي في السيارة، وطلب مني أن أُوصله إلى بيته في المهندسين.. سألني بابتسامة ساخرة وأنا أنطلق بالسيارة في ميدان التحرير:

- **ما أخبار السفارة الأمريكية؟**

أجبته بابتسامة صامتة، وأنا أنطلق تجاه كوبري أكتوبر، قال فضالي:

- **لا أحد يفهم كيف قبلتَ العمل هناك.. هل يتخلّى المرء عن أفكاره عندما يتخرّج في الجامعة؟.. ألم تكن أنت من يتزعم حملة مقاطعة المنتجات الأمريكية والإسرائيلية منذ عامين؟ من يُصدّق أنك كنت توزّع علينا فتوى القرضاوي وتتلوها على مسامعنا كل يوم؟**

- **كنت.. .الأمور تتغيّر يا عزيزي..**



قلتها ببرود.. ثم سألته:

- **إذن فكلكم تعرفون بأمر عملي هناك؟**
- **لا شيء يخفى يا شادي.. البعض يتفهّم موقفك.. لا بد أن الراتب الكبير والمنصب الرفيع أكثر إغراء من المبادئ.**

استفزّتني تلميحاته.. أفرغت توتري في دواسة البنزين، وقلت:

- **اسمع يا فضالي.. لا يمكنك أن تغيّر رأيك في صديق لمجرد أنه بدأ حياته العملية في مكان لا تُحبه.. كلّنا نقدّم تضحيات في بداية مشوارنا المهني.. لم أجد حتّى الآن فرصة عمل أفضل في أي مكان.. هل تصدّقني إذا قلت لك إنني لا أبالي إطلاقًا لا بالراتب ولا بالمنصب؟.. كانت السفارة الأمريكية عالمًا مثيرًا في البداية؛ لكنني الآن رأيته ومللته.. هات لي فرصة عمل محترمة وسأستقيل غدًا.**

ورمقته بنظرة جانبية فوجدته يتابعني بابتسامة متهكمة.. أضفت بحزم:

- **ثم إنني لم أسجد للعَلَم الأمريكي، ولم أُقسم بالولاء لبوش وكونداليزا رايس، ولم أقل God Bless America.. أنا مجرد موظف مصري في مؤسسة أمريكية.. هناك مئات المصريين يعملون في مؤسسات أمريكية، فهل كل هؤلاء عُملاء؟**

قلتها ثم شغلت المذياع.. تحولت إلى إذاعة نجوم إف إم، وانساب صوت عمرو دياب يملأ السيارة.. نظر لي فضالي مُعترضًا فهو يعرف أنني أعرف أنه لا يسمع الأغاني.. تجاهلته والسؤال ذاته يلحّ عليّ.. أين أنت يا عماد؟

15

ظلام دامس راح يخفت رويدًا رويدًا، ومعه بدأت تتعالى تلك الأصوات.. صوت خافت يتحدث بالفصحى ولا يميّز منه شيئًا.. اثنان يتحدثان بلهجة لبنانية.. يتحدثان بسرعة ولا يفهم شيئًا.. أين هو؟

فتح عماد عينيه ببطء، واستغرق نصف دقيقة ليفهم وضعه.. كان نائمًا على ظهره فوق سرير أبيض.. الغرفة صغيرة وحوائطها بيضاء.. ثمة إبرة مغروزة في يده.. كان عنقه يؤلمه.. استطاع أن يحرّك رأسه كي يرى كيس المحلول الأبيض المعلّق على حامل بجواره، وينساب منه السائل الشفاف في أنبوبة بيضاء إلى دمه.. ماذا جرى له؟

صدرت منه آهة خافتة، فالتفت إليه مجاوراه.. للمرة الأولى انتبه عماد للسرير المجاور، حيث يرقد صبي، يجلس بجواره رجل أشيب الشعر بلحية قصيرة ويرتدي جلبابًا ناصع البياض.. هرع إليه الرجل ووقف يتأمّله مليًّا، ثم تهلّلت أساريره.. قال شيئًا ومضى خارج الغُرفة.. هبّ الصبي جالسًا على سريره وصاح:

• **حمد الله على السلامة يا عماد..**

ميّز عماد بوضوح اللهجة اللبنانية.. نظر له عماد ولم يرد.. دار بعينيه في أرجاء الغرفة، وتوقّفت عيناه عند جهاز التليفزيون الصغير المُعلّق في يسار الغرفة، يبث الأخبار.. هذه غرفة مستشفى.. حاول أن يتحرك ليجلس على سريره، لكنّه شعر بالألم يملأ جسده.. قال الصبي شيئًا، فهم عماد أنّه ينصحه أن يبقى كما هو.. عاد الرجل بصحبة فتاة باهرة الحسن ترتدي زي الممرضات.. ألقت عليه نظرة سريعة وابتسمت قائلة:

• **بونسوار عماد.. كيفك؟**

الكل يعرف اسمه، وهو لا يعرف أحدًا.. تطلع لها في حيرة، وتساءل:

• **أين أنا؟**

• **في مستشفى AUB.. لا تقلق.. كل شيء على ما يرام..**

اللهجة اللبنانية ومستشفى الجامعة الأمريكية في بيروت!.. انهمكت الممرضة - التي قالت إن اسمها كاترين- في قياس ضغطه، ثم وضعت ترمومترًا تحت لسانه، والرجل يتطلّع له باهتمام شديد.. هو في بيروت إذن.. ماذا حدث له؟.. آخر ما يذكره أنه كان مع محمود في تلك الطائرة المتجهة إلى بيروت.. توالت على ذهنه وجوه شادي وندى ووالده.. لا يذكر شيئًا منذ وصلت به الطائرة إلى مطار بيروت..

حاول أن يجلس، فنصحته الممرضة ألا يتحرّك.. قال الرجل آسفًا:

- **أنا دكتور محمد قاسم.. للأسف أنا سبب وجودك هنا..**

لم يفهم عماد ما يعنيه.. انتظر حتَّى أخرجت الممرضة الترمومتر من فمه، وتساءل بصوتٍ واهنٍ:

- **ما الذي أفعله هنا؟ أين محمود؟ أين موبايلي؟**

تحرّك الرجل إلى الكومدينو المجاور للسرير، والتقط موبايل عماد.. وقال:

- **ها هو ذا.. لقد اتصلنا بصاحبك وهو قادم.. لا تقلق.**

التقط عماد الموبايل، ونظر إلى الأرقام التي اتصل بها.. اليوم السبت 15 يوليو.. لا يذكر أي شيء منذ وصل إلى بيروت فجر الثلاثاء.. ضباب ثقيل يُخفي تمامًا ما حدث عن ذهنه.. رفع عينيه ببطء نحو الدكتور قاسم وتساءل:

- **ما الذي أتى بي إلى هنا؟**

ثم تذكّر جواب الرجل، فصاح:

- **ومحمود.. تقول إنه قادم.. قادم من أين؟ أريد أن أفهم ما يحدث.**

في هذه اللحظة كان محمود يخوض نقاشًا حادًّا مع فرح.. كان مُصرًّا أن يسافر إلى بيروت مهما كان الثمن، وهي تقنعه بأن ذلك مستحيل..

- **هل جُننتَ يا محمود؟.. كل الطرق المؤدّية إلى بيروت، قصفتها**



إسرائيل.. الكل يهرب من بيروت وأنت تريد الرجوع إليها.. الذهاب إلى بيروت الآن معناه الانتحار!!

نظر لها منفعلًا، وصاح:

- **ليس هناك مستحيل.. لقد وصلنا هنا رغم أنهم قصفوا الطريق ونحن قادمان.. هناك دائمًا طرق بديلة.. إذا رفضت توصيلي سأعرف كيف أقنع أي سائق «تاكسي» بأخذي إلى هناك..**

صرخت في وجهه:

- **افهم.. لن تجد سائقًا يُوصلك.. القصف مستمرّ على كل المُدن.. دمّروا الجسور والطُرق، ويُطلقون النيران على السيارات والناس بلا تمييز.. السفر لبيروت معناه الموت.. بيروت كلها في مرمى الطائرات الإسرائيلية.. قصفوا محطات الوقود ومولّدات الكهرباء وكل شيء.. مجنون أنت؟**

صمت محمود للحظات مفكرًا.. كانا جالسين في كافتيريا صغيرة بجوار مبنى الكنيسة الرئيسية.. استعاد ذهنه المكالمة الهاتفية التي جاءته من مستشفى الجامعة الأمريكية.. قالت له الممرضة إن عماد أصيب في حادث في جادّة باريس أو طريق الكورنيش، ونقله من أصابه إلى المستشفى لتلقي العلاج.. عماد في غيبوبة كما أخبرته.. كل ما أصابه بعض الكسور والكدمات، لكنهم لا يزالون يشتبهون في ارتجاج بالمخ.. لا بد أن يبقى قيد

الملاحظة داخل المستشفى.. وقع الحادث منذ يومين.. لم يستطع أن يغفر لنفسه قط أنه كان يلهو مع فرح، بينما أعزّ أصدقائه راقد يصارع الموت في بيروت.. كيف طاوعته نفسه أن يتخلى عن صديق عمره في ظروف كهذه؟ ومن أجل من؟.. من أجل ساقطة؟.. يا للعار!

واصلت فرح مجهوداتها التي بدأتها منذ تلقى محمود المكالمة.. قالت:

- **اسمع يا محمود.. كُن عاقلًا.. صديقك الآن في أفضل مستشفى في لبنان، وسيعرف الأطباء كيف يعتنون به.. الإسرائيليون لن يقصفوا مستشفى AUB وبالتالي صديقك في أكثر الأماكن أمانًا.. فكّر بعقلك وتغلّب على مشاعرك.. أنت تريد أن تخاطر بحياتك وحياتي لآخذك إلى بيروت.. في أي لحظة يمكن أن يصلنا القصف.. الحرب اليوم صارت مفتوحة.. كل شيء صار مباحًا للصهاينة.. ماذا يفيدك لو بدأنا رحلتنا وحدث لنا مكروه على الطريق؟**

ابتسم محمود متهكمًا، وتمتم:

- **كل شيء صار مباحًا.. كل شيء حقًا!**

ثم واجهها تمامًا، وصاح بصرامة مفاجئة:

- **اسمعي أنت يا فرح.. لقد اتخذت قراري ولا رجعة فيه.. سأذهب إلى بيروت مهما كلّفني الأمر.. لستُ أنا من يترك صديقه في هذه**



الظروف.. لو كنت تحبينني حقًا، أعتقد أنه ليس من الصعب أن تخاطري قليلًا وتأخذيني إلى بيروت..

- **وأنا لن آخذك.. ولن تجد أحدًا غيري يفعل ذلك..**
- **حسنًا، أشكرك..**

قالها بحدّة ونهض واقفًا.. أخرج من محفظته ورقة بخمسة آلاف ليرة رماها على منضدة الكافتيريا ثمنًا للشاي الذي شربه وتركها.. نادت عليه أن ينتظر فتجاهلها.. اغرورقت عيناها بالدموع وهي تنظر إليه في ضراعة.. لا تريد حقًّا أن تفقده.. تعرف جيدًا أنه إذا عاد إلى بيروت فسيتركها ويبقى مع صديقه، وربما يجدان طريقة ما للفرار من لبنان.. عندئذ تكون قد فقدته إلى الأبد..

أما محمود فقد انطلق في طُرقات القرية.. كان يبحث عن هذا الرجل المصري الذي قابله مصادفة في محطة البنزين أمس، عندما كانت فرح تتزوّد بالبنزين.. ميّزه الرجل من لهجته المصرية، وتعارفا.. كان اسمه عبد الله، قال له إنه من قويسنا وخريج معهد خدمة اجتماعية.. يعمل منذ خمس سنوات في لبنان بطريقة غير شرعية، سافر من مصر إلى سوريا ومنها تسلل إلى لبنان، ومن يومها لم يَعُد إلى مصر.. «من يرغب في العودة إلى مصر؟» كما قال!

وصل محمود إلى المحطة.. سأل العامل الشاب عن عبد الله، فنادى عليه.. خرج عبد الله من داخل المكتب، فلما رأى محمود أشرق وجهه.. أخذه إلى الغرفة الصغيرة حيث كان يشاهد التليفزيون كالعادة.. الكل يشاهد التليفزيون ويتابع الأخبار.. سأله عما يريد أن يشرب..

• **ربنا يخليك يا كبير.**

ثم مال نحوه وهمس:

• **تحب تخدم ابن بلدك؟**

بعد قليل رجع محمود إلى بيت فرح.. لم تكن قد عادت بعد، فاتصل بها وأخبرها أنه ينتظرها هناك.. بعد دقائق كانت معه، سألته عما فعله، فقال لها إنه كان بحاجة للانفراد بنفسه بعض الوقت، وإنه فكر ووجد أنها على حق.. سيبقى معها في بشرى حتَّى تنتهي الحرب إذا قدّر لها الله أن تنتهي حقًّا.. قضيا الليلة في مشاهدة مسرحية «الواد سيد الشغال» التي عرضتها الفضائية المصرية، ولاحظت فرح أن محمود يبدو شاردًا أغلب الوقت، وكلما نظرت إليه تصنّع ضحكة ما أو ابتسم لها ابتسامة سخيفة، لمّا طلبت منه أن يذهبا للنوم، قال لها أن تسبقه وأنه سيلحق بها..

غَفَت فرح ولم تستيقظ إلا مع أضواء الفجر الأولى التي تسللت إلى الغرفة.. لم يكن محمود إلى جوارها.. نهضت في قلق تبحث عنه فلم تجده.. نادت عليه مرارًا بلا مجيب.. عادت إلى الغرفة تبحث عن أي أثر له.. هنا لاحظت تلك الورقة المعلّقة على مرآتها.. بكلمات إنجليزية مختصرة وخط ركيك قرأت:

«آسف يا فرح.. لم أستطع التخلي عن صديقي.. شكرًا على كل شيء».

■■■



قضى عماد أسوأ ليلة في حياته..

حصيلة الحادث ضلعان مكسوران، وكسر في ساقه تطلّب تركيب مسمار بلاتيني.. الفحوصات أثبتت أن مخه سليم وأن الصدمة التي تلقاها في رأسه لم تؤثر عليه.. لا بد أن يبقى قيد الملاحظة؛ لأن احتمال النزيف الداخلي وارد، كما أنه بحاجة لمن يعتني بكسر ساقه.. والحكاية أن الدكتور قاسم فوجئ به يعبر أمام سيارته في طريق الكورنيش، ولم يستطع تفاديه.. كان عماد شاردًا وسماعات مُشغّل الأغاني تملأ أذنيه، فلم يسمع صوت كلاكسات السيارة.. صدمه دكتور قاسم.. فقد عماد وعيه، فنقله الرجل إلى مستشفى الجامعة الأمريكية وتكفّل بمصاريف علاجه كاملة.. الدكتور قاسم ليس طبيبًا، لكنّه حاصل على دكتوراه في العلاقات الدولية من جامعة أوكسفورد، كان في طريقه لنقل ابن شقيقه حيدر - الصبي الراقد على السرير المجاور- إلى المستشفى بعد أن أصيب بشظية خلال القصف لحارة حريك في الضاحية.. غاصت الشظية في جانبه وأصابته بجرح عميق وهو واقف في نافذة المنزل يتابع القصف المجنون الذي يستهدف-حسبما يقول- أي منزل، أي حي يرزق، أي شيء صار هدفًا محتملًا للقصف الإسرائيلي في الضاحية.. تحدّث حيدر بعض الوقت مع عماد هذه الليلة بعدما انصرف الدكتور قاسم..

رغم آلامه الشديدة، كان حيدر سعيدًا بما يحدث.. قال لعماد بحماس: «نصر الله عم بيربي الإسرائيليين، واللي بده يصير يصير».. أنصت له عماد مندهشًا، كاد الصبي يموت نتيجة لعملية حزب الله، وها هو ذا لا يزال متحمسًا لحسن نصر الله!

أخـذ حيدر يصفّق بحرارة عندمـا أذاع التليفزيـون لقطات -نقلًا عن قنـاة المنار- لبارجـة إسرائيلية واقفة في عرض البحـر، أعلن حزب الله أنه نجح في اسـتهدافها، واعترفـت إسرائيل بمقتل أربعة مـن جنودها داخل البارجة.. صاح حيدر بحماس: «الله أكبر.. الله أكبر»، وعماد يراقبه صامتًا.. أعلنت القناة أن نصر الله سـيُلقي خطابًا بعـد قليل، فنادى حيدر الممرضة وطلـب منهـا أن تغيّر التليفزيـون إلى قناة المنار، حيث أبرزت الشاشـة أن «خطاب سماحة الشـيخ حسن نصر الله بعد قليل»، وتعالت بعض أناشيد حزب الله.. راح حيدر يُغنّي مع النشـيد: «حـزب الله الجبار.. يهزم جيش الأشرار»، عندما بدأ الخطاب على الشاشـة، أخـرج حيدر موبايله ونهض مستندًا إلى قائم سريره ليقترب من التليفزيون، ووضع يدًا على جراح جانبه وبيـده الأخـرى رفع الموبايل تجـاه شاشـة التليفزيون ليسـجّل الخطاب.. جاءت كاترين ومعها ممرضتان أُخريان ووقفن يشـاهدن الخطاب أيضًا في صمت، وحيدر يصيح من حين لآخر مُستحسـنًا شيئًا مما يقوله نصر الله.. هلل بصوت عالٍ عندما قال نصر الله:

- **«أنتـم تقاتلـون أبنـاء محمد وعلي والحسـن والحسـين وأهل بيت رسـول الله.. أنتم تقاتلـون قومًا يملكون إيمانًـا لا يملكه أحد على وجه الكرة الأرضيـة.. الأيام القادمة بيننا وبينكم والنصر آت إن شاء الله».**

المشكلة أن عماد لم يتذكر شيئًا بعد.. الطبيب قال إنه فقدان ذاكرة مؤقّت



نتيجة الصدمة في رأسه.. مع الوقت سيعرف ما حدث.. عماد يريد أن يفهم كيف انقلبت رحلته السياحية التي طال انتظاره لها إلى حرب شعواء.. ثم ما الذي جعل محمود يفارقه ويذهب للشمال كما قالت كاترين؟.. لا بأس، سيتذكر كل شيء لاحقًا.. الطبيب قال ذلك.. حسنًا، إلى متى سيظل في المستشفى؟.. أسبوع على الأقل كما قالت كاترين.. اللعنة! جاء إلى بيروت ليقضي أيامه في المستشفى، والأسوأ أن ذلك يحدث وسط حرب دامية كما يرى على شاشة التليفزيون.

لم يشأ عماد في البداية أن يهاتف والده أو ندى ليخبرهما بما جرى له، لكن مع شعور الوحدة والغربة الشديدين اللذين امتلأ بهما قلبه، قرر أن يكلّمهما.. بدا والده منزعجًا بشدة وراح يصرخ فيه أن يجد وسيلة للهرب من لبنان مهما كان الثمن.. حاول أن يقنعه أن الأطباء يرفضون أي حركة منه، وأنّ عليه أن يبقى مُرغمًا.. «تفضل في بلد الموت فيها بقى أسهل حاجة يا عماد؟.. إنت مش بتشوف الأخبار؟».. أول مرة يشعر أن والده يحبّه حقًّا ويقلق عليه!

أما ندى فقد بكت.. مزقته دموعها الغزيرة التي وصلته عبر الأثير.. كلما أخبرها أنه في خير حال لم تصدّقه.. جعلها تتحدّث للطبيب الذي أكّد لها ما قاله، إلا أنها لم تقتنع.. «إزاي أصدّق إنك كويس وإنت في المستشفى وهتقعد أسبوع كمان؟.. عماد، أنا بحبك قوي».. لماذا يكون سببًا في تعذيب هذا الملاك الطاهر؟

كان شـادي هو من اتصل به.. لكم يفتقد هذا الفتى.. يشـتاق لابتسـامته الهادئـة وحديثـه الدافئ وثقافته التي لا يدّخر جهـدًا لإظهارها.. في مكالمتهما بدا شادي شديد القلق، وتفهّم الأمر.. «يا حظك الفقر يا بني.. تروح بيروت الدنيا تولّع هناك وتعمل حادثة.. الله يخرب بيت نحسك» هكذا قال له محاولًا أن يبدو مرحًا.. محاولة فاشلة للأسف، لأنه أحسَّ بالدموع في عيني صديقه.. رغم مئات الكيلومترات التي تفصلهما فإنه تخيله أمامه وشعر به..

قـضى عـماد ليلتـه على سريـره وسـط الظـلام، إلا من الضـوء الخافت الذي يتسـلل مـن الخارج.. حيدر نائـم على الفراش يئـن من حين لآخر، يبـدو أن جراحه لا تـزال تؤلمه.. صوت القرآن الكريم يتعالى من مسـجل صغـير وضعه الدكتور قاسـم جوار حيدر، ليسـلّيه طـوال الليل.. لم يميز عماد سـوى سورة يوسف من بين السور الكثيرة التي تلاها المُسجّل طوال الليل.. تذكر كيف سـأل حيدر في حذر عما إذا كان الشيعة يسمعون نفس القرآن الكريم الذي يسمعه السُّنَّة، فلمّا ضحك حيدر ساخرًا، تساءل عماد مندهشًا: «كيف تسمعون القرآن ولا تؤمنون بسيدنا محمد؟».

كان طنـين الطائـرات يعلو من حين لآخـر.. الإسرائيليـون لا يزالون يلهون في سماء بيروت.. تساءل: أما من صواريخ مضادة للطائرات في هذا البلـد؟.. أما من جيش يقاتل ويدافع عن هذه المدينة الجميلة؟.. حاول أن ينـام بلا جدوى.. انقطع التيار الكهـربي للحظات قبل أن تعمل المولّدات ويعود من جديد..



تزايد عليه الشعور بالغربة والوحدة.. هل كان يتصوّر أن تكون الليلة الأولى التي يقضيها في مستشفى ستكون بعيدًا عن أهله ووطنه؟.. تذكّر قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.. هل يمكن أن يموت هنا؟.. ولم لا؟.. ما شاهده على التليفزيون يؤكد أن الموت احتمال وارد.. «اللي بده يصير يصير» كما قال حيدر.. لدقائق وجد نفسه يشعر بالحنق من دكتور قاسم؛ لأنّه سبب وجوده هنا، ثم فكر ووجد نفسه يدين للرجل بجميل كبير.. ماذا لو كان الرجل تركه جريحًا يلفظ أنفاسه الأخيرة على قارعة الطريق وهرب؟ إنها الحرب ولن يبالي أحدٌ كثيرًا بمن صدمه أو قتله!

ووجد نفسه يبكي.. أدهشه ذلك.. عماد قوي الشخصية الذي يجيد التعامل مع أكثر المواقف صعوبة.. يبكي؟!.. نعم، كان يبكي.. شعر بأن حياته كلها بلا معنى، كان من الممكن أن تنتهي في لحظة في الحادث.. كيف كان والده سيستقبل خبر مصرعه؟ هل حقًّا يمكن أن يبكيه والده؟ كيف يستقبل الأصدقاء في الجامعة وفي الإسكندرية خبرًا كهذا؟ بل كيف تستقبله ندى؟!

وانشغل ذهنه بندى.. الفتاة التي تكاد تموت قلقًا عليه، وهو لم يكن متأكدًا إذا كان يحبها حقًّا أم لا.. كم يريد من الوقت كي يعرف؟.. تذكّر ما قالته له كاترين.. «مين ندى هاي؟ كنت عم بتحكي اسمها وإنت بالغيبوبة»، أليس ذلك دليلًا على أنه يحبّها؟

غفل عماد قليلًا واستيقظ على ضجة.. صوت المذياع الداخلي يطلب من الأطباء التوجّه لقسم الاستقبال فورًا.. لا بد أن المستشفى يستقبل عددًا من جرحى الغارات في الضاحية الجنوبية.. ورأى عماد ممرضات يركضن في الممر المقابل لغرفته، وسمع صرخات وصيحات مختلطة.. دخلت إحدى الممرضات الغرفة واقتربت من سريره تتفحص كيس المحلول، فسألها في قلق:

- **ماذا يحدث؟**

انتبهت الممرضة أنه مستيقظ.. وقالت:

- **حالات حرجة قادمة من الضاحية.**

وخرجت الممرضة مسرعة، وعادت بعد دقائق وأعلنت:

- **الطبيب يحتاج هذه الغرفة.. سننقلكما إلى عنبر آخر..**

■■■

لم ينم محمود طوال الليل.. فقط تمدّد على الفراش إلى جوار فرح بضع ساعات، لم يستطع خلالها النوم.. في الرابعة صباحًا تأكد من تنفّسها الهادئ المنتظم، وناداها بخفوت فلم ترد.. نهض بهدوء وارتدى ملابسه والتقط ورقة وقلمًا، وكتب لها رسالة صغيرة علّقها على المرآة.. تأمّل جسدها الساكن لدقيقة أو يزيد، قبل أن يستجمع إرادته ويتحرّك في خفّة تاركًا البيت.. للحظات وقف أمام البيت يرمق سيارتها وقلبه يخفق بقوة.. نعم، سيفتقد هذه الفتاة الجميلة كثيرًا.. سيفتقد كل شيء فيها!



سار في سكون الليل في الشوارع الخالية حتَّى بلغ محطة البنزين.. كان عبد الله ينتظره وبجواره سيارة «تاكسي» قديمة وشاب نحيل.. عرف أنه عراقي اسمه أبو الحسن، وينادونه حسن.. شكر محمود عبد الله بشدة، واحتضنه.. قال له عبد الله وهو يقبّله على خديه:

- **على إيه بس.. إحنا إخوات ..**

وأضاف هامسًا في أذنه:

- **مائة دولار لا غير.. أعطه خمسين الآن والباقي لما توصل بسلامة الله..**

صاح حسن وقد بدا أنه لاحظ ما قاله:

- **والله يا أخ لم أكن لآخذ منك كل هذا المبلغ لولا الظروف.. هذا المشوار مخاطرة كبيرة..**

وتصافح محمود وعبد الله للمرة الأخيرة، وأوصى عبد الله حسن به خيرًا.. وبدأت الرحلة.. كان الطريق منحدرًا على جانب الجبل وبدا الوادي جميلًا مبهرًا تحت أضواء الفجر الأولى.. بعد ساعة راح حسن يتخذ طُرقًا جبلية عسيرة، موضّحًا أنه يتجنّب القرى المسلمة.. بعدما قصفوا طرابلس، صارت كل القرى المسلمة الواقعة في الشمال هدفًا محتملًا.. الإسرائيليون لن يقصفوا قرى الموارنة.. هكذا قال حسن..

بعد قليل انقطع الطريق.. كان الأسفلت محطّمًا وثمة سيارتان مدمرتان تمامًا على جانبه.. ابتسم حسن وقال وهو يتراجع بالسيارة:

- **كنت مخطئًا.. حتَّى قرى الموارنة قصفوها..**

بعد ساعتين وصلا بيروت.. أمام مستشفى الجامعة الأمريكية تصافحا وتمنى كلٌّ منهما للآخر حظًّا سعيدًا.. ركض محمود إلى داخل المستشفى يسأل عن صديقه.. كان قلبه يخفق بشدة.. تخيّل كيف سيكون لقاؤه به.. هل يحتضنه بقوة ويطلب منه أن يغفر له تخلّيه عنه؟.. لا، لن يلمح له بأي شيء من ذلك.. ليترك الأمور تمضي كما يريد الله.

سأل في مكتب الاستقبال فأخبروه.. وصل إلى العنبر.. تباطأ وهو يدخله.. كان يخشى المواجهة.. دارت عيناه في الأسرَّة الكثيرة والمرضى الراقدين عليها، حتَّى رأى عماد في آخر سرير على اليمين.. أحس بقشعريرة تنتاب جسده وهو يتأمل صديق عمره يرقد جريحًا على فراش المرض.. هرع إليه وتوقّف يستوضح إذا كان منتبهًا أم لا، ثم صاح:

- **عماد..**

رفع عماد عينيه إليه ببطء، واستغرق لحظتين حتَّى تبيّنه.. وهتف:

- **حودة...**





16

في تمام السابعة صباحًا، كنت أمام المدخل الخلفي للسفارة.. استقبلتني هبة مديرة العلاقات العامة بابتسامة متوترة، وتفحصتني بدقة.. كنت في كامل أناقتي بالبذلة السوداء ورباط العنق الأحمر كما طلبت مني بالأمس.. أشارت لي نحو سيارة سوداء كبيرة وقالت:

- **انتظر هناك.. سيتحرك الموكب خلال دقائق..**

أخذتُ مكاني في الصف الثالث للمقاعد داخل السيارة، التي توقَّعت أن تكون بكل هذه الفخامة من الداخل.. أول مرة في حياتي أركب سيارة مصفَّحة تحمل على مقدمتها شعار «هيئة دبلوماسية».. جاءت ثلاث سيارات سوداء أخرى، وتوقفت أمام مدخل السفارة مباشرة، وخلال لحظات، خرج بعض الموظفين بالبذلات الكاملة وركبوا السيارات.. ظهر السفير الأمريكي محاطًا بأربعة من رجال الحراسة الضخام، وركب إحدى السيارات.. أقبلت هبة مسرعة وجلست أمامي، وانضم إلينا رجلان آخران أغلق أحدهما باب السيارة، قبل أن ينطلق السائق بالسيارة وينضم

إلى الموكـب.. طلب منا السـائق أن نحزم أحزمـة مقاعدنا جميعًا، والموكب يتحرك باتجاه ميدان التحرير.

إلى جوار مبنى مجمَّع التحرير، رأيت أكثر من خمس عربات أمن مركزي مصطفَّـة، وأمامها صـفٌّ من الجنود يمتد إلى قلب الميـدان.. هل يتوقعون مظاهرة اليوم؟ انطلق الموكب بسرعة وسـيارتنا في نهايته، وتقدَّمتنا سـيارة شرطة أطلقت بوقها وانطلقت تقود الموكب.

ألقيـت نظرة طويلة على قلب الميدان حيث بدا مبنى الجامعة الأمريكية في الخلفية.. يا لها من ذكريات جميلة! مازلت أتذكر تفاصيل ذلك اليوم كأنه أمـس.. كنا في الفصل في محاضرة الثامنة والنصـف صباحًا، عندما تحدث البروفيسـور د.سعيد سـلام عن بدء الحرب المتوقعة فجر اليوم.. خرجت مـن المحاضرة قبل انتهائهـا وتحدثت مع زملائي.. كانـت موجة الغضب تنتاب الجميع.. كل من كلمتهم شاركوني حماسي وأكثر.. راحت الرسائل تتدفـق من موبايـل لآخر حاملة أخبار الحرب.. لم يسـتغرق الأمر سـوى ساعتين، حشدنا فيهما قوتنا واندفعنا بالعشرات إلى مكتب رئيس الأنشطة الطلابية وضغطنا بقوة حتَّى حصلنا على موافقة الإدارة.. طبعنا الملصقات ووزَّعناها، سـاندنا بعض الأسـاتذة، أعلنوا التفاصيل في محاضراتهم.. في الواحدة ظهرًا احتشـدنا في سـاحة الحـرم اليوناني نهتف ونـنـدد بالعدوان الأمريكي على العراق.. لا أعرف من أتى بالعلم الأمريكي، لكنَّه جاء من مكان ما.. أحرقناه في قلب سـاحة الجامعة الأمريكية على مرأى من رجال



الأمن المندهشين الذين لم يتدخلوا، وتركونا نفعل ما نريده.. من كان يجرؤ على التدخل لإيقافنا؟ وصلت الأخبار بأن طلاب جامعة القاهرة في مظاهرة حامية أخرى وأنهم خرجوا إلى الشوارع في طريقهم لميدان التحرير.. اشتعلنا حماسًا.. حين تحركنا صوب البوابة، صدرت التعليمات أن يمنعونا.. قالوا لنا إن جنود الأمن المركزي يحاصرون مباني الجامعة من الخارج ولن يسمحوا لنا بالتقدُّم.. الأفضل أن نبقى داخل حرمنا.. «عشان ما تتبهدلوش».. هكذا نصحونا أو هددونا.

لكن هل خفنا؟ هل ارتعدنا؟ مزَّق الغضب مشاعر الخوف داخلنا.. كنت أتقدَّم الجميع وأصرخ وأصيح في الجميع.. نحن طلبة هنا في جامعتهم لكننا في البداية والنهاية مصريون.. الطلبة في أمريكا خرجوا في مظاهرات ونحن هنا صامتون.. كان شامة الأردني وغسان الفلسطيني يتقدماننا ويصرخان محمِّسين الجميع.. انضم إلينا دكتور سعيد بنفسه، فلم نعد نبالي بأي شيء.. لا بأمن الجامعة ولا البوابات المغلقة ولا جنود الأمن المركزي.. وصار هدفنا واحدًا.. أن نمضي إلى السفارة الأمريكية!

وانطلقنا خارج الحرم إلى شارع محمد محمود.. لم يستطع أحد منعنا، خشي ضباط الداخلية استعمال القوة ضدنا.. .لم يجرؤ أحد على منعنا بالقوة باعتبار أن بيننا أبناء الكبار.. انضممنا للمظاهرة الضخمة التي ملأت ميدان التحرير يومها.. كيف أستطيع أن أنسى هذا المشهد العظيم، يوم وقفنا مع عشرات الآلاف نهتف ضد أمريكا وضد الصمت العربي

ونندد بالعدوان؟ لم يضربنا الجنود ولم نصمت لحظة عن الهتاف والصياح.. ارتفع علم العراق وأُحرق علم أمريكا.. تدفق الآلاف من الشباب من طلاب جامعة القاهرة إلى ميدان التحرير والتحمنا جميعًا.. ثم صاح صائح: «السفارة الأمريكية». فاستدارت الجموع وانطلقنا تجاه السفارة الأمريكية.. أغلقوا شارع قصر العيني أمامنا، فتحركنا صوب مسجد عمر مكرم.. كنا آلافًا مؤلَّفة، دوَّت أصوات هتافاتنا كأنها صادرة عن ملايين.. فجأة صدرت الأوامر ولم يعد التقدم ممكنًا.. تدخلت جحافل الأمن المركزي واعترضت طريقنا ثم ضربونا.. بالعصي ضربونا.. أطلقوا الرصاص في الهواء وقذفونا بالقنابل المسيلة للدموع.. لم يفرِّقوا بين فتى أو فتاة.. بين طالب جامعة القاهرة وطالب الجامعة الأمريكية.. بين شاب متحمِّس أو أستاذ جامعة محترم.. الكل صار سواء أمام عصي الأمن المركزي.. أصابتني ضربة عصا في وجهي يومها وخارت قواي، جريت نحو ساحة مجمَّع التحرير وارتميت أرضًا أستعيد أنفاسي.. رأيت ناردين زميلتي في مادة الكتابة الصحفية فاقدة الوعي أمام مدخل محطة المترو وحولها عشرات من زملائنا.. عرفت أن أحد الجنود انهال على جسدها بعصاه.. الوغد لم يعرف أنها تحمل أيضًا الجنسية الأمريكية.. لم يعرف أنها قضت أغلب سنوات عمرها في أمريكا وأنها كانت ذاهبة لسفارة بلادها كي تعلن غضبها كما علَّمتها الديمقراطية في بلادها.. الديمقراطية التي باسمها أيضًا جاء الأمريكان كي يحتلوا العراق ويخربوها، وباسمها أيضًا



ارتفعت عصي الجنود كي تضرب أدمغة بناتنا.. فالديمقراطية تختلف من بلد لآخر!

قالوا لي بعدها إن مباحث أمن الدولة قد أخذت اسمي، وأنهم فتحوا لي ملفًّا هناك.. كم كنت فخورًا بذلك! قبضوا على غسان واعتقلوه شهرًا، ورحَّلوا شامة إلى الأردن بلا رجعة.. ازددت حماسًا، كتبت في جريدة الجامعة لاعنًا بوش وسياساته، ومن قبله حكامنا العرب.. لم يمنعوا مقالاتي.. أشاد بها الأساتذة في محاضراتهم.. صرت بطلًا جامعيًّا.. كنت في عامي الأول في الجامعة، لكنني صرت أشهر الطلبة.

كان هذا شادي الحسيني الذي أعرفه.. اليوم من أنا؟ لا أزال شادي الحسيني، لكنَّه شادي آخر.. شادي موظف السفارة الأمريكية الذي يعمل في خدمة مصالح الأمريكان ويقبض مرتبه بالدولار.. شادي الذي يترك أعزَّ أصدقائه جريحًا في بيروت ويذهب في موكب رسمي مع السفير الأمريكي لافتتاح مشروع للمعونة الأمريكية.. هذا ما صرته للأسف الشديد.. لكم تغيِّرنا السنون.. لكم تغيِّرنا الحياة!

بالأمس حاولت الاعتذار عن هذه الزيارة.. ذهبت إلى مستر باهي وطلبت أن أحدِّثه في أمر مهم.. حكيت له عما حدث لعماد في بيروت.. شرحت له كيف كنا صديقين وأنني متأثر نفسيًّا بدرجة كبيرة بإصابته.. لم يفهمني.. قال لي في نفاد صبر: وماذا يعنيني أنا في كل هذا؟ طلبت منه الاعتذار عن عدم الذهاب مع سيادة السفير في زيارته للمنصورة..

تأمَّلني مليًّا وقال غاضبًا: هل تمزح؟ اسمك الآن في كشف الزيارة والسفير يعرف ذلك ولن أستطيع أن أتدخَّل.. كيف تطلب شيئًا كهذا؟! لا بد أنه رأى خيبة الأمل في وجهي وعرف أنه كان قاسيًا.. تظاهر بالطيبة ومال ناحيتي وقال بلهجة أب يُبدي النصح لابنه: يا شادي أنا أعزّك كثيرًا.. كلنا نواجه مشاكل شخصية كثيرة في حياتنا.. الإنسان الناجح هو من يفصل تمامًا بين حياته العملية وحياته الشخصية.. ومادمت في العمل فلا تفكر إلا في مصلحة هذا العمل.. انس مشاكلك وهمومك وتذكر فقط مشاكل العمل.. هكذا يفعل الإنسان الناجح.. أنت تعمل في أهم مؤسسة أجنبية في البلد، فقدِّر ما أنت فيه.. وغدًا ستكون بصحبة سفير أقوى دول العالم وأهم دبلوماسي أجنبي في مصر كلها.. فكيف تُضحِّي بكل ذلك من أجل مشكلة شخصية؟

ولم أستطع أن أنطق بشيء بعدها.. مضيت إلى مكتبي في صمت وجلست أتابع عملي.. تلقَّيت مكالمة هاتفية من سكرتيرة إحدى الشركات التي أبدت موافقتها من قبل على الاشتراك في برنامجنا.. جاءني صوت السكرتيرة حادًّا جافًّا قائلة:

- **آسفة يا مستر شادي.. رئيس مجلس الإدارة رجع في قراره.. نحن لا نتعامل مع حكومة الأمريكان.**

■■■



على مائدة الاجتماعات البيضاوية الطويلة في الطابق الثاني من مبنى محافظة الدقهلية دار اجتماعنا مع قياداتها.. جلس المحافظ على رأس المائدة يدير الاجتماع، وبجواره مباشرة السفير الأمريكي والقنصل الثقافي وعدد من رجال السفارة اتخذوا الجانب الأيمن، جلست أنا في آخر المائدة، وعلى الجانب الأيسر اصطفت قيادات المحافظة وكلهم من الرجال.

جلست صامتًا أتابع ما يحدث.. افتتح مساعد المحافظ الاجتماع بالبسملة وتلا قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾، ثم قدَّم لنا «السيد اللواء الوزير المهندس محافظ الدقهلية»!

تنحنح المحافظ وبسمل أيضًا، ثم بدأ خطابه.. راح المحافظ يتكلم كثيرًا عن إمكانيات المحافظة، وكيف أنها واحدة من أكبر وأعظم محافظات مصر، وأنها أكثر المحافظات احتياجًا لجهود المعونة الأمريكية وأموالها، وراح يقرأ من أوراق أمامه الأموال التي تصرفها المعونة في محافظات الصعيد، ويقارن بينها وبين ما تنفقه في الدقهلية.. كان هناك رجل أشيب الشعر يجلس بجواره.. كتب له شيئًا في ورقة صغيرة وناوله إياها كي يقرأها، فألقى عليها نظرة سريعة وواصل كلامه لدقيقتين أو ثلاث، قبل أن يعطي الكلمة للسفير الأمريكي.

بلغة عربية فصيحة وسليمة، تحدَّث السفير مُبديًا فخره بزيارة محافظة عريقة مثل الدقهلية، وقال إنه يسعد كثيرًا بالتجوال في محافظات مصر،

وابتسم مضيفًا: مدينة المنصورة مدينة جميلة وباسلة، لها تاريخ عريق، والكل في مصر يتحدث عن بناتها الحلوين.

تعالت الضحكات المفتعلة من الجميع، انتظر السفير مبتسمًا في هدوء حتَّى ساد الصمت، وعاد يتحدَّث عن اهتمام المعونة الأمريكية بدعم المشروعات الصغيرة والتعليم بصفة خاصة، فقاطعه المحافظ - وقد بدا أن إطالة السفير في حديثه لم تعجبه- وطلب منه أن تنال الدقهلية أيضًا شيئًا من هذا الدعم، إلى جانب تمويل محطات الصرف الصحي، وأضاف بوضوح: لقد طلبنا من المعونة ستة ملايين جنيه لتوسعة محطة مياه ميت خميس، ونرجو من سيادة السفير التدخل للموافقة على مطلبنا.

أجابه السفير بابتسامة ولم يقل شيئًا، بدأ المحافظ يطلب من بعض رجاله الحديث عن الإنجازات التي تُحققها المحافظة.. لم يطل كلام من يختارهم المحافظ، وكان كل منهم يشيد بمجهودات المحافظ نفسه، وأن كل ما تحقَّق كان بفضل توجيهاته ورؤيته الثاقبة، وفي النهاية شكرهم المحافظ وقال في تواضع إن الفضل يرجع أولًا لله سبحانه وتعالى ثم للسيد رئيس الجمهورية، حفظه الله لشعب مصر!

كانت هبة واقفة في نهاية الغرفة، تنظر في ساعتها بقلق، وتشير للرجل الأشيب نحو ساعتها بمعنى أن الاجتماع قد تجاوز الوقت المحدد له، فتجاهلها الرجل في البداية ثم كتب شيئًا آخر في ورقة ووضعها أمام

المحافظ.. ألقى عليها المحافظ نظرة سريعة وبدت في عينيه نظرة غضب، قبل أن يكمل حديثه ويعطي رجلًا آخر من رجاله الكلمة.

انتهى الاجتماع بعد ساعة، نهضنا جميعًا لنتخذ أماكننا في الموكب المتجه إلى قرية اسمها تلبانة، لا تبعد أكثر من عشرين كيلومترًا عن مدينة المنصورة.. عندما خرجت من مبنى المحافظة كانت لافتات الترحيب بالسفير في كل مكان، وجنود الأمن المركزي وضباط الشرطة يُشكِّلون دائرة واسعة حول مدخل المحافظة المُطلِّ على النيل.. سار المحافظ إلى جوار السفير الأمريكي يتبادلان حديثًا باسمًا، ودعاه السفير كي يركب معه في سيارته، فوافق المحافظ مُرحِّبًا.. وانضم موكب المحافظ إلى موكب السفير، وانطلق صف السيارات في شارع المشَّاية الذي أخلاه الأمن تمامًا.

داخل السيارة، كانت هبة تغلي من الغيظ وتشكو أن جدول أعمال السفير قد اختل.. سألتها باهتمام عما سنفعله بعد ذلك، فقالت إن السفير سيفتتح محطة الصرف الصحي في تلبانة، ثم يتوجه لجامعة المنصورة للقاء رئيس الجامعة، وبعدها سيقوم بجولة في مركز الكلى الشهير، ويختتم اليوم بزيارة دار ابن لقمان..

كنت قد بدأت أشعر بالإثارة والأهمية.. قضيت حياتي كلها واحدًا من العامة الذين يمنعهم الأمن من دخول الطرق إذا عبر وزير أو دبلوماسي مهم، واليوم أنا جالس في سيَّارة مصفَّحة تحمل شعار «هيئة دبلوماسية» في موكب واحد مع أهم شخصية في المحافظة، وأهم شخصية أجنبية في

مصر - كما قال مستر باهي - ومن أجل سلامتي يصطف مئات من الجنود والضباط وتُغلق الطرق والشوارع وتُعلَّق اللافتات المرحبة!

انتبهت عندما ظهرت اللافتة - التي بدت نظيفة ولامعة على غير العادة - «الوحدة المحلية في تلبانة ترحب بكم»، ورأيت أهالي القرية رجالًا ونساء بالملابس الريفية - الرجال بالجلابيب والنساء بالفساتين المزركشة والعباءات - واقفين على طول الطريق يصيحون ويهتفون مهلّلين، ويرفعون اللافتات القماشية.. «مرحبًا بالسيد اللواء الوزير المحافظ».. «أهلا بالدكتور رضا عبد المنعم» -نائب مجلس الشعب- «شرفت يا سيادة السفير الأمريكي».. لم أتبين الهتافات من فرط قوتها وتواليها بلا انقطاع، بينما تحرَّك الموكب بسرعة حتَّى وصلنا إلى مبنى حديث الإنشاء، أمامه ساحة واسعة خالية، يحيط بها الضباط وأُمناء الشرطة.. توقَّف الموكب وقفز رجال الحراسة من السيارة السوداء الكبيرة التي تتقدَّم الموكب، وأشاروا لمن في الموكب أن يبقوا في السيارات قليلًا.. انتشر الرجال هنا وهناك، ثم عاد أحدهم وتقدَّم ليفتح باب سيارة السفير.

اضطررت من جديد لسماع الكثير من المديح للمحافظ، ونائب مجلس الشعب، من الرجل الذي وقف يلقي خطاب الافتتاح، وخلفه انتصب العلم المصري.. جاء أحد موظفي السفارة بالعلم الأمريكي ليضعه إلى جواره، لكنَّه لسبب ما لم يستقر أبدًا في موضعه.. تقدَّم المحافظ للمنصة وخطب مجددًا متحدثًا عن اهتمام المحافظة بالقرى، وبتجديد البنية التحتية

للمحافظة، وطال حديثه - كثيرًا ما كانت تقاطعه هتافات الأهالي العالية.. أخيرًا تقدَّم المحافظ ووقف إلى جوار السفير أمام النصب الصغير في وسط الساحة، ووضعا معًا الطوبة الأولى فوق النصب، وتسمَّرا في وقفتهما ليسمحا للصحفيين ومصوري المحافظة بالتقاط الصور على خلفية من شعار المعونة الأمريكية الشهير.. اليد الأمريكية الهوية تصافح يدًا أخرى، والعبارة الشهيرة «من الشعب الأمريكي From the American people»!

ابتسمتُ وأنا أتخيَّل الصورة تتصدَّر صفحات الصحف غدًا، بجوار أخبار الاعتداءات الإسرائيلية في لبنان.. تذكّرت ما قاله لنا البروفيسور الألماني ذات مرة، في محاضرة العلوم السياسية، عن الفارق بين الإمبريالية والديمقراطية.. الإمبريالية أن تعطي الفقراء أرزًا، والديمقراطية أن تعطيهم أرزًا مختومًا.. مختومًا بختم الشعب الأمريكي الصديق!

انتهت المسرحية، وعدنا من جديد إلى مدينة المنصورة.. في مبنى الجامعة استقبلنا رئيس الجامعة، وجلسنا حول مائدة واسعة نشرب عصير المانجو، ونشاهد عرضًا تقديميًّا جميلًا على شاشة كبيرة عن الجامعة وتاريخها وكلياتها.. وقف رئيس الجامعة بنفسه يتكلّم وينتقل بين شرائح power point لما يقرب من نصف ساعة، والسفير يُبدي اهتمامًا مفتعلًا ويسأل بعض الأسئلة السطحية من حين لآخر.. عندما هممنا بالمغادرة، استوقفني السفير وسألني مبتسمًا عما إذا كان لديَّ أصدقاء يدرسون في جامعة المنصورة وعن رأيهم فيها.. تبادلنا حديثًا سريعًا، وسألني السفير

عن انطباعي تجاه العمل بالسفارة، فابتسمتُ وقلت له: «إنه يُشعرني بكثير من الخطورة».. تحدث معي بالعربية الفصحى ورددت عليه بالإنجليزية.. شعرت بأن السفير رجل طيب القلب حقًّا، ويعرف كيف يكون ودودًا، وفكرت أنه ليس كل رجال الحكومة الأمريكية مثل بوش.. هناك أناس طيبون فعلًا!

تحرَّك الموكب من جديد داخل الحرم الجامعي.. قيل إننا متجهون لمبنى كلية التربية، حيث سيلتقي السفير بعدد من الطلبة المتفوقين.. ابتسمت في قرارة نفسي.. لا بد أن أمن الجامعة قد قضى أسبوعه الماضي في اختيار هؤلاء الطلبة بعناية من كشوف أعضاء الحزب الوطني واتحاد الطلبة الذي تعيِّنه الجامعة في انتخابات صورية.. ما إن بدا مبنى الكلية واضحًا في الأفق، حتَّى لاحظت أن سيارة رجال الحراسة التي تتقدم الموكب، قد انحرفت فجأة لتعترض مسار الموكب وتوقفه، فتوقفت سيارتنا فجأة بدورها، واندفعنا للأمام بفعل القصور الذاتي.. وتساءلت هبة منزعجة:

- **ماذا يحدث يا سليمان؟**

أشار لها الرجل الجالس في المقدمة أن تنتظر وتحدَّث في الهاتف اللاسلكي.. هنا رأيت مجموعة كبيرة من الطلبة أمام كلية التربية يهتفون ويصيحون بصوتٍ عالٍ، ورأيت علمًا أمريكيًّا مرسومًا على قطعة قماش كبيرة يحملها أحدهم، ويحاول آخر أن يُشعل طرفه بقدَّاحة.. الأمر واضح..



وأعلن سليمان بصرامة:

- **الزيارة ألغيت.**

وبمنتهى السرعة، استدارت سيارتنا مع باقي سيارات الموكب.. رأيت عددًا من رجال أمن الجامعة يركضون أمام الموكب يوسعون الطريق لنا، ويبعدون الطلبة بغلظة، بينما فتحت سيارة الحراسة أبوابها دون أن تتوقف، وبرز على أبوابها رجال حراسة أربعة شاهرين مدافعهم الآلية في الهواء.. كانت عيون الطلبة تتابعنا بنظرات كلها مقت وكراهية، وكان الموكب ينطلق الآن من بوابة الجلاء نحو الشارع الذي اعترضته عربة أمن مركزي وسيارة شرطة لتوقف سيره، وكانت هبة تسب وتلعن بألفاظ نابية.. بالإنجليزية.

■■■

17

ندى لم تعد كما كانت..

الكل لاحظ صمتها الدائم.. وجهها الشاحب الذي نحل وبرزت عظامه.. اهتمامها غير المألوف بمتابعة نشرات الأخبار لفترات طويلة.. صوت نحيبها الذي يتعالى أحيانًا من خلف باب غرفتها المُغلق.. جلساتها مع رشا التي تأتي لزيارتها كل يوم تقريبًا، وتقضي معها ساعة أو ساعتين.. صلواتها الطويلة التي تمتد كل ليلة.. يستطيع المار أمام غرفتها أيضًا أن يسمع صوتها وهي تقرأ القرآن الكريم، وتنتهي منه فتظل تتضرَّع إلى الله بأدعية كثيرة تقرؤها من كتابي الأربعين النووية وأذكار المسلم.. ماذا جرى لندى؟

أمها كانت تعرف كل شيء.. ندى نفسها أخبرتها.. فتاها الذي لم تحب غيره طوال حياتها، جريح في مدينة صار الموت فيها حدثًا يوميًّا على قارعة الطريق.. عماد حبها الأول هناك وسط المعمعة التي تدور رحاها على شاشات التليفزيون في بث مباشر.. تفهّمت الأم موقفها وكانت كثيرًا

ما تواسيها وتطلب منها أن تصبر، والله مع الصابرين.. شجَّعتها على الصلاة والدعاء بأن ينتهي الأمر على خير بإذن الله عز وجل.

وسط صور القتلى والجرحى التي تنقلها محطات التليفزيون، كانت ندى ترى شبح عماد هنا وهناك.. هو نفسه يحكي لها عما يراه كل يوم في المستشفى.. يحكي لها عن الوجوه المشوَّهة والأطراف الممزقة والأشلاء التي تأتي مع أصحابها كي يجد الأطباء لهم حلًّا.. ما تشاهده هي على الجزيرة أو العربية كفيلم رعب، يعيشه حبيبها في موقع التصوير.. في أرض الحدث!

أدمنت ندى مشاهدة الأخبار، وهي التي لم تكن تطيقها.. صار مراسلو الجزيرة كنجوم السينما الذين تتابعهم في شوق .. تشعر بالتعاطف مع بشرى عبد الصمد المراسلة الشابة الواقفة بالخوذة والسترة الواقية في قلب الجنوب اللبناني، تتحدث عن آخر المعارك بين قوات حزب الله والجيش الإسرائيلي.. يعجبها إلياس كرام الواقف على تل صخري يتابع الصواريخ المنصبة من لبنان على حيفا الإسرائيلية، وتصفِّق بحماس طالبة المزيد والمزيد.. تفتقد كاتيا ناصر وتتساءل لماذا غابت عن هذه النشرة.. تدمع عيناها وهي تشاهد التتر الذي تعرضه الجزيرة من حين لآخر جامعًا صورًا مختلفة للدمار والأطفال القتلى والجرحى، ثم تتوالى صور قديمة ممتزجة بالأعوام 1956 - 1967- 1973- 1982 - 1984 قبل أن يبرز العنوان المخيف.. «الحرب السادسة».

الأخبار التي تهمُّها بحق كانت تأتيها عبر الموبايل.. مكالماتها المتكررة المتتالية مع عماد.. ترقبها وتنتظرها، ويبدو أنه هو أيضًا ينتظرها ويشتاق إليها من مكالمة لأخرى.. صوته واهن حقًّا لكنَّه يملؤه قوة ومرحًا كلَّما سألته عن حاله.. يمكنها أن تتبيَّن في نبرات صوته، الألم الذي يخفيه عنها باستمرار.. وفي كل مرة لا تستطيع أن تغالب دموعها، فتنهمر رغمًا عنها.. تطلب منه في النهاية أن يخبرها أنَّه يُحبُّها، فتعرف أنه يبتسم وتسمع صوته يقول: ماينفعش.. الممرضة جنبي دلوقتي.. !

في كل يوم تسأله: متى ينتهي كل هذا؟ متى تأتي؟ يخبرها أن الأطباء مُصرُّون أن يبقى.. ضلعاه لم يلتئما بعد ويحتاج لعناية الأطباء بكسر ساقه.. لقد زرعوا له مسمارًا بلاتينيًّا.. صار «عماد أبو مسمار».. هكذا قال لها ضاحكًا، قبل أن يحكي لها عما فعله اليوم.. يخبرها أنه يتحسَّن باستمرار.. اليوم ذهب للحمام دون مساعدة.. اليوم تجوَّل مع محمود في العنبر.. اليوم خرج مع حيدر والدكتور قاسم وشربوا الشاي بالزعتر في الحديقة.. كان يتحسَّن .. سيخرج قريبًا، هكذا قال لها!

في غرفتها تجلس في شجن، تستعيد ذكرياتها معه.. تستعيد مزاحه ودعاباته ولقاءاتهما.. كل ما جرى بينهما منذ عرفته مُسجَّل بتفاصيله الكاملة في عقلها.. تخرج من دائرة الذكريات إلى أشعار «نزار قباني».. كانت قد بدأت تقرأ أشعاره عن بيروت في الفترة الأخيرة.. ديوان «يوميات مدينة كان اسمها بيروت» الذي ابتاعته ضمن أعماله الكاملة

ولم تمسه قط، فتحته أخيرًا وقرأته، وجدت نفسها تتجوّل في شوارع مدينة جميلة غدر بها أهلها.. قرأت قصيدة «بلقيس» التي لم تكن تحبها رغم أنها سمعت كثيرًا أنها أروع ما كتب «نزار».. تذكر أنها عندما قرأتها للمرة الأولى شعرت بكم هائل من الحزن والألم تبعثه في قلبها، كما كانت تفعل بها أشعار الخنساء في كتاب الأدب أيام الثانوية.. عندما عاودت قراءتها منذ أيام لم تستطع كبت دموعها وهي تتخيل زوجة «نزار» - أجمل الملكات في تاريخ بابل كما وصفها - تسقط ضحية تفجير السفارة العراقية في بيروت.. راحت دموعها تتدفق بغزارة من عينيها وهي تقرأ:

«بيروت تقتل كل يوم واحدًا منا..

وتبحث كل يوم عن ضحية..

والموت في فنجان قهوتنا..

وفي مفتاح شقتنا..

وفي ورق الجرائد..

والحروف الأبجدية.. ».

وكل ليلة تتوضأ ندى، وترتدي عباءة الصلاة السوداء الفضفاضة، وتقف لتصلي العِشاء وركعتي السُّنَّة ثم الشفع والوتر.. بعدها تتناول المصحف الشريف وتجلس على سريرها، تقرأ ما تيسَّر لها بصوت مسموع، حتَّى تشعر بالسكينة تغمرها تمامًا، ويملأها الأمل أن تنتهي الحرب ويعود

عماد سالمًا.. تتخيله يأتي إلى منزلها مع والده مرتديًا بذلته السوداء الأنيقة وحاملًا علبة الحلوى.. يطرق الباب فتفتح له وتصافح والده في حياء، ثم تنادي والدتها وتمضي مسرعة إلى غرفتها.. يجلس عماد ووالده في الصالون مع والدها، تنهمك أمها في إعداد الشاي أو الحاجة الساقعة.. وحسام، هل يفوِّت فرصة كهذه؟ لا، طبعًا سيحشر أنفه كالمعتاد، ويهرع إلى الصالون ليتابع ما يحدث.. يظل عماد صامتًا متظاهرًا بالرزانة، بينما يثرثر والده قليلًا عن عماد وتعليمه ومستقبله المبشِّر، ثم يطلب يدها لابنه الوحيد.. يعتدل والدها في مقعده ويقول إننا لن نجد لابنتنا خيرًا من عماد، لكنَّه في حاجة لأن يسمع رأي صاحبة الشأن.. هنا تدخل الأم الصالون حاملة المشروبات وهي تزغرد زغرودة عالية مجلجلة تملأ أرجاء العمارة.. فهي تعرف رأي صاحبة الشأن!

هذا الحلم الجميل طالما راودها وهي تقرأ القرآن.. تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، وتواصل التركيز في الآيات البيِّنات، تنتقل من سورة الكهف إلى سورة الرحمن وأحيانًا تقرأ سورة مريم.. وما إن تنتهي حتى ترفع يديها بالدعاء.. قبل النوم لا بد من مكالمة سريعة مع عماد تطمئن فيها عليه، وبعدها تستسلم للنوم وتشعر كأنها ملاك طاهر، يخضع لاختبار سماوي للصبر وقوة الإيمان سينتهي بها بالجنة مع من تحب..

جاءها حسام ذات يوم وهي تقرأ القرآن.. لم تنظر له وواصلت القراءة..



- **صدق الله العظيم..**

هكذا قاطعها بصوت عالٍ كي تكفَّ عن القراءة.. صمتت، فجلس جوارها واقترب منها.. نظرت في الاتجاه الآخر.. لن تكلِّمه.. سألها بصوتٍ حاول أن يجعله حنونًا:

- **ما لك يا ندى؟**

- ....

ينظر لها بعمق.. يحاول أن يستشفَّ ما بداخلها بنظراته الحادة.. كبرياؤه ترفض أن يعتذر لها عما فعله.. يتركها بعد لحظات من الصمت ويمضي.. على مائدة الغداء، في اليوم التالي، قال لها الأب إنها لم تعد كما كانت.. لم تعلِّق.. قال وهو ينهض بعدما انتهى من طعامه:

- **ندى يا بنتي.. نحن لن نفرض عليك شيئًا.. انسي ما حدث تلك الليلة.. أنت حرَّة في موضوع الحجاب هذا.. أنا لم أفرض عليك شيئًا من قبل، ولن يكون الحجاب أول شيء أفرضه عليك.**

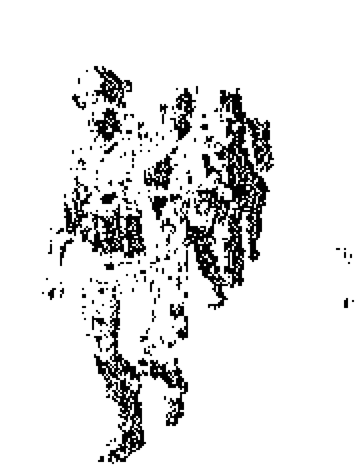
بعدها توقفت تساؤلاتها.. أمها أخبرتها بما يقلقها.. لا بد أنها فعلت ذلك، لأنها بدأت تلاحظ نظرات التعاطف في عيني الأب ونظرات الغيظ في عيني حسام.. صارا يفهمان ولا يريدان الكلام في هذا الموضوع كما لا تريد هي.. هذا هو «سرها» والمفترض ألا تعرفه سوى أمها.. الحب دون ارتباط رسمي يبقى سرًّا لا يمكن للبنت أن تبوح به لوالدها أو شقيقها..

الـكل يعـرف الآن، لم تعـد تواجـه تسـاؤلاتهما، أصبحا يتفهَّـمان كل شيء ويتبادلان النظرات في صمت: «هذا هو الحب».

هذا الصبـاح أيقظها عمرو دياب بأغنيتـه «الله لا يحرمني منك».. لماذا يتَّصـل عـماد الآن؟ مدت يدها في لهفة إلى جوَّالهـا، وردت.. .أتاها صوت حبيبها يقول بكلمات مبحوحة من فرط الانفعال:

- **ندى.. هل رأيت ما فعله الكلاب؟**

■■■



18

في صالة المستشفى، تجمَّعوا يشاهدون قناة العربية على شاشة التليفزيون الكبيرة..

الكل سمع الأخبار منذ الصباح الباكر.. الكل كان يتحدث عنها.. البعض أجرى اتصالات بأقاربه هناك، أو بزملائه في المستشفيات في الجنوب.. وصلت بعض الصور عبر الجوَّال، فتناقلها البلوتوث.. ترقرقت الدموع في عيون البعض.. تعالت الصيحات اللاعنة والساخطة طوال الوقت.. يقولون إن الطبيب الأمريكي جون رئيس قسم الجراحة رأى بعض الصور التي وصلت لجوَّال أحد الأطباء، فانفجر باكيًا يضرب كفًّا بكف ويقول:

- **لعن الله بوش.. لعن الله رايس.. فعلها الإسرائيليون ورايس في بيتهم.. لا أستبعد أن يكونوا قد رتَّبوها معًا.**

على شاشة الجزيرة، بدا الغضب العارم واضحًا.. الكاميرا تنقل ما يحدث على بعد دقائق في وسط بيروت.. الآلاف من اللبنانيين الغاضبين

يحاولون اقتحام مبنى الأمم المتحدة، الجيش عاجز عن السيطرة على الغضب المتدفِّق، الصيحات تدوِّي فلا يميز منها سوى «لبيك يا نصر الله»، وعلى إحدى اللافتات «الأمم المتحدة الراعي الرسمي للمجازر الإسرائيلية».. أظهرت الكاميرا عددًا من الشباب ينتزعون حاجزًا حديديًّا كبيرًا كان مكتوبًا فوقه «مسكن خاص لموظفي الأمم المتحدة»، وتعاونوا لرفعه عاليًا، قبل أن ينهالوا به فوق الواجهة الزجاجية للمبنى.

عندما قيل إن قناة العربية تنقل بثًّا حيًّا من قلب قانا، حوَّلوا على الفور محطة التليفزيون.. كانت كلمة «Exclusive» على جانب الشاشة الأيسر، والمستطيل الأزرق يُعلن «مقتل وإصابة العشرات في قصف إسرائيلي لقرية قانا».. صاح صوت أحد الأطباء يسبُّ العربية؛ لأنها قالت «قتلى» ولم تقل «شهداء»، فأشار له الآخرون أن يصمت كي يسمعوا ما يقال.

يقف المراسل الشاب أمام أنقاض مبنى ضخم - أو كان كذلك، تتحرَّك الكاميرا يمينًا ويسارًا، تغوص بين الأنقاض لنتبيَّن جثث الأطفال الغارقة في الدماء.. نرى الوجوه المتفحِّمة تمامًا حتَّى لا نكاد نتبيَّن إذا كان صاحبها ذكرًا أم أنثى.. رجل إنقاذ يتحدَّث صارخًا أن الضحايا معظمهم من الأطفال والنساء.. أحد الناجين يبكي كالنساء أمام الكاميرا.. يُصرُّ المراسل على التحدُّث إليه، فيحكي باكيًا كيف ترك أولاده وزوجته داخل المبنى أمس مع العشرات غيرهم، ممن لجئوا للاحتماء به، وذهب هو للبحث عن مكان يجلب منه الطعام، ورجع بعد القصف ليجدهم جميعًا مدفونين تحت الأنقاض..



سأله المراسل إذا كانت القوات الإسرائيلية قد طلبت منهم مغادرة المبنى قبل قصفه كما تقول المصادر الإسرائيلية، فنفى الرجل مذهولًا.. ثم لطم الرجل كالنساء وركض يبحث عن جثث أولاده بين الأنقاض..

وسط المتفرجين، جلس عماد مُمسكًا بصدره ومُسندًا ساقه المجبسة على مقعد مجاور.. جواره محمود يتطلّع للتليفزيون.. قال محمود وهو يبعد عينيه عن الشاشة:

- **خلاص يا عماد.. لم أعد أحتمل.. دعنا نجد وسيلة للهروب من هذه البلاد.**

لم يردَّ عماد.. منذ أيام وعماد لا يتكلّم معه إلا قليلًا.. هل فعلاً تذكر ما حدث؟ ألم يغفر له بعد فراره من بيروت مع فرح؟ الأطباء قالوا له إن عماد مصاب بفقد ذاكرة مؤقّت، يزول مع الوقت، فهل تذكَّر عماد كل شيء الآن؟

ثم مهلًا.. كيف لا يغفر لمحمود شيئًا بسيطًا كهذا، وهو قد رفض الهروب، وقرر البقاء معه رغم كل شيء؟ رغم توسُّلات والده وبكاء أمِّه اللذين يطلبان منه كل يوم أن يفرَّ من المَعمعة.. رغم نظرات الأثرياء اللبنانيين الذين ملئوا الفندق بعدما خلا من السُّيَّاح.. صار وجهه معروفًا لهم وأغلبهم يعرفون أنه مصري.. يرى في عيونهم تساؤلات حائرة، ويتشجَّع بعضهم ويطرحون عليه السؤال مباشرة: «ليش ما فلِّيت يا

مصري؟».. الكل «يفلُّ»، اللبنانيون أنفسهم «يفلون».. البعض يفلُّ إلى الضيعة، البعض يفلُّ خارج الوطن، فلِمَ يبقى هو؟

الأهم هل يقدِّر عماد تضحيته العظيمة؟ لقد خاطر بحياته وجاء من أجله من بشرى إلى بيروت، بل وبقي إلى جواره طوال الأيام الماضية، في أسوأ ظروف ممكنة.. بقي وحده في هذا الفندق من أجل صديقه.. صحيح أن عماد اقترح عليه في حذر في البداية أن يرحل مع الراحلين، لكنَّه رفض بإباء.. لن يرحل إلا معه.. «رجلي على رجلك يا صاحبي».. لعب دور الصديق المخلص بجدارة.. رفض حتَّى مناقشة هذا الاقتراح.. رفضه أمام عماد، ورفضه أمام أُسرته، لكنَّه لم يرفضه تمامًا في قرارة نفسه.. لماذا يدفع ثمن عجز صديقه؟ الصداقة مهما كانت لها حدود.. هل يستحق صديقك أن تخاطر بحياتك من أجله وتبقى إلى جواره في ظروف كهذه؟ لا بد أن طلب عماد منه أن يفرَّ هو ما زاده تشبُّثًا بالبقاء إلى جواره.. هو نفسه لا يفهم كيف يتصرَّف.. حسنًا، محمود لا يمكنه أن يتخيَّل نفسه يصل إلى مصر وحيدًا دون صديقه، ويعترف لوالد عماد وأصدقائهما أنَّه قد تركه و«فَلَّ»!

بعد لحظات من الصمت قال عماد دون أن ينظر له بجفاء:

• **وماذا بيدنا كي نفعله؟**

أجابه محمود بحماس:



- **بالأمس تحدثت مع موظف الاستقبال في الفندق.. أعطاني رقم سائق «تاكسي» لا يزال ينقل الراغبين من بيروت إلى دمشق.. ما زال بإمكاننا أن نهرب!**
- **لكنهم قصفوا كل الطُرق..**
- **اسمع.. هناك دائمًا طُرق جبلية تقود إلى الحدود.. يقولون إنها خَطِرة لكنها أفضل كثيرًا من البقاء في هذه الظروف.. أنا مللت من كل هذا يا عماد.. لم أعد أحتمل.. أهلي يكلمونني كل يوم ويبكون.. عماد، أرجوك.. هذه ليست بلادنا.. ليست حربنا.. ليست قضيتنا.. دعنا نعد لوطننا.. يمكنك أن تحتمل السفر إلى دمشق، أليس كذلك؟**

لم يردَّ عماد وانشغل بمتابعة ما يحدث.. تعالى صوت الطائرات على الشاشة، وهرع المراسل بعيدًا عن أنقاض المبنى موضحًا أن اختراق الطائرات لحاجز الصوت قد يسبب تفريغًا للهواء، يسقط معه ما تبقّى من المبنى.. انقطع البث من قانا، واعتذر المذيع وانتقلت الشاشة لبث آخر من حيفا.. مراسل آخر يقف على تل، تبدو من خلفه مدينة جميلة وعمارات حديثة وسماء يُعكِّر صفوها الدخان.. يتحدث عن صفارات الإنذار التي لا تنقطع في المدينة، وأصوات الانفجارات التي تعلو من حين لآخر.. تقترب الكاميرا ليبدو في الأفق دخانٌ كثيف يتصاعد من وسط المباني.

بين المتفرجين صاح صائح يدعو أن يدمرهم حزب الله تدميرًا.. جاوبه آخر أن حزب الله سيدمِّرهم وهم سيدمِّروننا، وفي النهاية سيقول العالم إننا الإرهابيون وهم الضحايا!!

بدا ألم غير مفهوم على وجه عماد، نهض واستند على عكازه وتحرَّك ببطء مُتجهًا إلى العنبر.. أسرع محمود يساعده، فاستند عليه عماد بذراعه اليمنى وأمسك العكاز بذراعه اليسرى.. راح محمود يثرثر منفعلًا راجيًا من عماد أن يوافق.. دعنا نكلِّم «التاكسي».. دعنا نفر من هذا الجحيم.. لنهرب إلى مصر.. «وبعدين يا أخي، مش عايز تشوف صاحبتك؟».

على سريره استرخى عماد صامتًا، بدا أنَّه يُفكِّر بعمق.. واصل محمود حديثه، وحيدر على السرير المجاور يُنصت في اهتمام.. أشركه محمود في الحوار، وطلب منه أن يقنع عماد.. ابتسم حيدر ابتسامة شاردة، وقام يجلس جوار عماد، ربت كتفه برفق، فتأوَّه عماد وأمسك بصدره.. سحب حيدر يده وقال:

- **محمود على حق يا صديقي.. هذا قدرنا - نحن اللبنانيين - ولا يمكننا أن نترك وطننا ونرحل.. هذا ليس وطنك.. خذ القرار ولا أعتقد أن الأطباء سيمنعونك.. صرت قادرًا على السير فلماذا تبقى هنا؟ توكَّل على الله يا صديقي.. ندى في مصر تنتظرك.. وهذا الفتى الآخر صاحبك.. ماذا كان اسمه؟ نعم، شادي.. كيف أنساه وقد غنَّت له فيروز واحدة من أجمل أغانيها؟**

ووقف حيدر يلوِّح بيده ويغني:



• **أنا وشادي غنَّينا سوا.. لعبنا على الثلج وركضنا بالهوا.. كتبنا ع الأحجار قصص صغار.. ولوحنا الهوا..**

لكن حيدر سكت حينما تقلص وجه عماد فجأة، وانحنى على الأرض يفرغ ما في معدته.

■■■

وصلتُ المكتب غاضبًا هذا الصباح.. دخلت فرأيت داليا تقريبًا في حضن أسامة.. ارتبكا عندما رأياني، لم أُبعد نظري عنهما كما كنت أفعل في كل مرة.. واجهتهما وقلت بلهجة حادة:

• **ألسنا في مكان عمل محترم؟**

جلست على مكتبي.. أخذها أسامة وتركا الغرفة في صمت.. في ستين داهية.. رحت أتنقَّل بين مواقع الأخبار العالمية باحثًا عن الجديد.. وصلتني رسالة إلكترونية من فضالي بتفاصيل المذبحة الجديدة في قانا، مع صور من منتدى لبناني.. رددت عليه وقلت إن الوقت قد حان لنعلن إطلاق حملة «وحدة» بعد ما جرى فجر اليوم.. عند منتصف النهار غادرت السفارة في موعد الغداء، وكلَّمت فضالي واتفقنا.. سننظِّم اعتصامًا بالجامعة غدًا ونعلن إطلاق «وحدة».

جلست في المطعم الشعبي الصغير في شارع قصر العيني، ألتهم ساندويتشات الفول والطعمية، وأتابع نشرة الأخبار على القناة الفضائية المصرية في التليفزيون الصغير المُعلَّق، أعلن المذيع أن فؤاد السنيورة –رئيس

الحكومة اللبنانية- يرفض استقبال كونداليزا رايس في بيروت، أظهرت الشاشة رايس تتحدث للصحفيين، وتُبدي حرجها من وقوع مذبحة قانا، بينما هي في زيارة رسمية لإسرائيل، وأضافت - بصوت المترجم-: «الوقت قد حان لوقف إطلاق النار».. تطلَّع لها عامل الكاشير بقرف، وسبَّها في شرفها وشرف أمها.. فقدت شهيتي وتركت الساندويتشات وغادرت المطعم.. لم أحتمل نظرات العامل المُفعَمة بالكراهية تجاهي.. هل يعرف حقًّا أنني أعمل في السفارة الأمريكية أم أنني أتوهَّم ذلك؟

سمعت ما يقال عن مظاهرة كبيرة أمام مقر الجامعة العربية.. أسرعت بالسير تجاه ميدان التحرير، ووقفت أنظر للناس المعتصمين أمام مبنى الجامعة، يحيط بهم الجنود ليمنعوهم من الوصول إلى الطريق.. قال المارة إن المتظاهرين من نوَّاب المعارضة والمستقلين في مجلس الشعب.. لم أهتم بمن يكونون، أثارتني هتافاتهم الحماسية ضد إسرائيل وأمريكا.. كانوا يرفعون صور حسن نصر الله عاليًا ويصيحون بصوت واحد مُجلجل:

- **هنردِّدها جيل ورا جيل.. بنعاديكي يا إسرائيل..**

عندما عدتُ للقسم التجاري، صادفت مستر باهي، سألني لماذا تأخرت، قلت إنني كنت أتناول الغداء.. نظر لي نظرة لائمة سخيفة، وطلب مني أن أُعدَّ قائمة بأربعين شركة أخرى لأرسل لها فاكسات خلال ساعة.. سألته ببرود: هل تتوقع أن يُرحب أحد بالتعاون معكم في ظروف كهذه؟

نظر لي مندهشًا وقال:



- **معكم؟ مع من؟**

ثم فهم ما أقصد.. استطرد في جدية:

- **الأذكياء يُرحِّبون بالتعاون مع الأمريكان دائمًا.. مصلحتهم مع الأمريكان..**

عدت إلى مكتبي وعكفت على ما اتفقت عليه مع فضالي.. دخلت على جروب الفيس بوك، كتبت بحماس أننا سنُنظِّم وقفة احتجاجية بالجامعة غدًا.. كتب فضالي التفاصيل وطلب من كل الأعضاء دعوة كل أصدقائهم وزملائهم في الجامعة.. أرسلت دعوات لكل أصدقائي على الموقع، ووضعت وصلات من مواقع أخبار كثيرة عن مذبحة قانا.. رأيت ندى قد وضعت في صفحتها قصيدة لنزار قباني عن قانا.. مذبحة قانا الأولى.. فتحتها وقرأت بأنفاس متلاحقة وقلب خافق:

كيف إسرائيل لا تذبحنا؟

كيف لا تلغي هشامًا وزيادًا والرشيدا؟

وبنو تغلب مشغولون في نسوانهم..

وبنو مازن مشغولون في غلمانهم..

وبنو هاشم يرمون السراويل على أقدامها..

ويبيحون شفاهًا ونهودا..

ما الذي تخشاه إسرائيل من بعض العرب

بعدما صاروا يهودا؟!

ازددت حماسًا.. حيَّيت ندى على ما كتبت، وطلبت منها أن تكون معنا غدًا.. غدًا يوم كبير.. وصلتني رسالة جديدة من ماري حاملة صورًا من وكالات أنباء مختلفة من قانا.. هالني ما رأيته، توقَّفت أمام الأجساد المُتفحِّمة تمامًا والأشلاء المتناثرة.. بلا تردد أرسلت رسالتها لقائمتي البريدية التي تحمل أكثر من مائة بريد إلكتروني من أصدقائي ومعارفي.. كان أسامة جالسًا على مكتبه، وبدا أنه يتابع ما أفعل.. هو عندي على القائمة البريدية، ولابد أن الرسالة وصلته.. قال بلهجة رسمية جافة:

- **شادي.. المفروض أن تكون قد انتهيت من قائمة الفاكسات التي طلبها مستر باهي الآن..**
- **لم أبدأ فيها بعد..**

جاوبته بنفس اللهجة الجافة.. سألني في غيظ:

- **ومتى ستبدأ؟**
- **فيما بعد..**

رمقني أسامة بنظرة غاضبة، ثم ترك مكتبه وغادر الغرفة.. ليذهب إلى الجحيم! لم أعد أبالي بشيء.. لا بالسفارة ولا بالعمل ولا بمستر باهي ولا بالحكومة الأمريكية كلها.. وصلني رد من جونا يقول إنه سيأتي غدًا



وسألني عن عملي بالسفارة.. الكل يسأل عن عملي بالسفارة.. رددت على الفور وقلت له: مرحبًا بك غدًا.. اجلب معك من تهمُّه دماء الأبرياء التي ضاعت في قانا بنيران بلادك.. لنرى إذا كنتم حقًّا مهتمين بدماء العرب.

أرسل لي وصلة من BBC لتحقيق صحفي يُحصي عدد القتلى من الجانبين، اللبناني والإسرائيلي، وعلَّق: لتذهب الحكومات إلى الجحيم.. بوش ورايس وأولمرت ونصر الله.. كلهم ملعونون.. ما يهمني هم الأبرياء الذين يدفعون الثمن.. الأبرياء في حيفا.. والأبرياء في قانا.

استفزَّني رد آخر وصلني من طالب لا أعرفه، لا بد أنه زميل لأن بريده الإلكتروني على موقع الجامعة.. كتب مُتهكِّمًا بحروف لاتينية تمتزج فيها العربية بالإنجليزية: إيه اللي حرقك قوى كده على كام واحد مات في لبنان؟ كم شخصًا ماتوا في قانا؟ خمسون؟ مائة؟ مائتان؟ طب واحنا مالنا؟ هناك ألف مصري ماتوا في ساعات دفعة واحدة على متن العبَّارة السلام 98 منذ أشهر.. على الأقل في قانا جاءت الضربة من عدوِّنا، وهذا ليس غريبًا.. ما معنى أن تأتيك الضربة من ابن بلدك؟ من قتل الناس في العبَّارة؟ ألم تكن الشركة مصرية ورئيسها مصريًّا وموظفوها مصريِّين، ومن يتستَّرون عليهم ويحمونهم الآن هم كبار المسئولين في مصر؟ يا عم فكَّر في خيبتنا بدلًا من التفكير في خيبة الآخرين! يتنيِّل الفلسطينيون على اللبنانيين على اليهود كلهم! مصر أكثر دولة ضحَّت بدم أولادها من أجل القضية الفلسطينيَّة وهم عمرهم ما قدَّروا ده.. عمرك شفت واحد فلسطيني بيحب مصر؟

دخل أسامة الغرفة ومضى إلى مكتبه صامتًا، وخلفه أقبل مستر باهي ووقف يتطلَّع لي.. تجاهلته وواصلت ما أفعله.. لم أنظر حتَّى إليه.. نعم كنت أتعجَّل النهاية.. لينتهِ هذا الكابوس الآن.. ترك الغرفة ومضى كأنه يُزمع أمرًا.. ليفعل ما يشاء.. تذكَّرت ما قاله لنا مستر باهي في أول أيامنا في العمل، أكد لنا أن أجهزة الكمبيوتر في السفارة مُراقبة طوال الوقت من قبل خُبراء الأمن في وزارة التجارة الأمريكية، ولهذا فغير مسموح لنا باستخدامها لأي أغراض شخصية كالبريد الإلكتروني والفيس بوك.. قال لنا ذلك وفى اليوم التالي مباشرة وجدت مستر باهي مشغولًا بالدردشة مع شخص ما عبر الماسنجر!

فتحت ملف وورد، ورحت أكتب بحماس بالإنجليزية.. قتلت دراستي باللغة الإنجليزية طوال سنوات الجامعة قدراتي على التعبير بالعربية.. كم أشتاق إلى الكتابة! منذ نحو عام ونصف لم أكتب شيئًا.. كتبت بحماس شديد عن قانا.. عن عماد صديقي الذي أَسَرته الحرب في بيروت ليكون شاهدًا حيًّا على جريمة إبادة شعب في القرن الحادي والعشرين.. هنَّأت حكامنا العرب على المذبحة الثانية.. عقبال مذبحة قانا الثالثة والرابعة والعاشرة.. ذكرت صبرا وشاتيلا والثلاثة آلاف ونصف فلسطيني الذين قتلتهم الكتائب والإسرائيليون في غفلة من العالم.. يومها لم تكن هناك أقمار صناعية ولا إنترنت ولا كاميرات تبث المذبحة على الهواء، انتظر العالم أسابيع وشهورًا كي يعرف الحقيقة.. اليوم صرنا نرى المذابح والمجازر في

بثٌّ مباشر.. صارت الحقيقة بلُغة الصوت والصورة.. بلُغة البث المباشر، ما الذي اختلف؟ هل انتهت المجازر؟ هل تحرَّكت الجيوش العربية؟ انتهيت من كتابة مقالي وقلت في سري: ليت خبراء الأمن في واشنطن يشاهدون ما أفعله الآن!

فتحت مدونتي التي لم أمسسها منذ زمن.. وضعت المقال وأضفت إليه صور الشهداء البائسة.. أرسلت وصلته لقائمتي البريدية، ووضعتها على جروب «وحدة» على الفيس بوك.. كنت مُفعمًا بالحماس، ولا أدري بما يجري حولي حتَّى وجدت مسز بيث أمامي، تطلب مني أن أترك مكتبي وأذهب معها إلى مكتبها.. لا بأس، لأذهب معها.. أغلقت شاشة الكمبيوتر وتبعتها.

في مكتبها كان مستر باهي جالسًا ينتظرنا.. جلست صامتًا واستمعت إليها في هدوء.. قالت إنني أخالف كل قوانين العمل المعمول بها في السفارة، وإنني مُحوَّل للتحقيق غدًا، وسألتني إذا ما كنت أفهم أسباب ذلك.. ماذا تنتظر مني؟ أن أضطرب أو أعتذر؟ أن أُبدي أسفًا أو أعدها ألا أفعل ذلك ثانية كالأطفال؟.. لا يا سيدتي.. سأقول في التحقيق إنني أفعل ما يمليه عليَّ ضميري.. سأقول في التحقيق إنني عربي أولًا وأخيرًا.. سأقول في التحقيق إن بوش مجرم وأولمرت مجرم ورايس أيضًا مجرمة.. وما لدي أقوال أخرى!

نظرت لي مسز بيث تتفحَّصني، وما زالت تنتظر ردي.. ابتسمت في لامبالاة، وقلت:

- **حسنًا.. سأنتظر التحقيق.. هل من شيء آخر؟**

غادرت مكتبها متجهًا إلى مكتب هايدي.. استقبلتني بابتسامة كبيرة وعطرها القوي، سألتني عما إذا كنت قد سمعت عما جرى في قانا.. جلست أمام مكتبها وقلت:

- **هايدي.. أريد أن أستشيرك في أمر مهم.**

■■■



19

استيقظ محمود مبكرًا هـذا الصباح.. أجرى اتصالًا مع أبو طه سـائق «التاكسي» واتفقا على كل شيء.. حشر ملابسه وملابس عماد كيفما اتفق في حقيبتيهـما، وأنزلهما إلى بهو الفندق .. حجز تذكرتي الطيران من دمشـق إلى القاهرة ودفع حسـاب الفندق.. اتصلت به فرح للمرة الثالثة فردَّ عليها.. وقال:

- **سأنتظرك في ردهة الفندق..**

تتصـل فرح به كل يـوم تقريبًا منـذ تركها ورحل.. غفرت له ببسـاطة أنه فرَّ من بيتها دون أن يخبرها.. بالأمس فقط خاطرت وجاءت بسـيارتها مـن بشرى.. قطعت كل هذه المسـافة في مثل هذه الظـروف كي تراه.. هو أيضًا كان مشـتاقًا لها .. ليس حُبًّا.. فقط الشـوق الذي يحمله فتى مثله تجاه امرأة في مثل جمالها وحنانها.. تجاه الفتاة التي قضى معها أروع ليالي عمره.. وتساءل في قرارة نفسه: هل يسمح لهما القدر بجولة حب أخيرة؟

قابلهـا في الردهـة.. ألقـت بنفسـها في حضنـه، فاحتواها بـين ذراعيه،

انهمرت هي بالقبلات على وجهه.. جلسا، سألها بهدوء عما تريده.. نظراتها كلها لوعة وألم، حكت له عن أهوال الليلة الماضية التي قضتها بين الطُّرق المُدمَّرة، ورعبها من السقوط في أيدي العصابات وقُطَّاع الطُّرق الذين يستغلُّون حالة الاضطراب في البلاد.. سألته عن أخباره، فقال لها إنه قرَّر الرحيل.. الهروب من المعركة.. لم يعد يحتمل وصار صديقه أخيرًا قادرًا على الفرار معه.. سيفعلانها اليوم.

حاولت أن تُثنيه بالكلام، فاستمع لها في صمت.. حدَّثته عن الحياة في هولندا.. كلَّمته عن الحرية والديمقراطية والتعليم المتميِّز وفرص العمل والمُرتَّبات الكبيرة.. لم يرد، رأت نظرة التصميم في عينيه.. انفجرت باكية، ظلَّ يتطلَّع لها صامتًا وقلبه يخفق بقوة.. كيف يكون سببًا لبكاء امرأة بكل هذا السحر وكل هذا الجمال؟ يا له من قاسٍ! اقترب منها ومسح دموعها بأنامله في حنان.. قرر أن يُنهي علاقتهما بهدوء..

- **انتهى الأمر يا حبيبتي.. اتفقت مع سائق «التاكسي» وحجزت تذاكر الطيران إلى مصر.. أهلي وأصدقائي ينتظرون في الإسكندرية.. أنت أيضًا لا تزال أمامك حياة حافلة في هولندا.. ستنتهي الحرب وتنتهي إجازتك وستستمر الحياة.. قصص الحب تبدأ وتنتهي كل يوم.. ليكن ما حدث بيننا ذكرى جميلة نتذكرها معًا على الإنترنت، وفي مكالماتنا الهاتفية.. وربما أيضًا نلتقي قريبًا.. سأنتظرك في مصر في أي وقت.. أعدك أن أقضي**



إجازتي الصيف القادم في هولندا.. على الأقل هولندا آمنة ولن تفاجئنا حرب هناك!

هدأت دموعها، أدرك أنه قد نجح.. أحاط رأسها بذراعه وقبّلها على خدها.. وأضاف:

- **على شرط واحد.. أن تستضيفيني في بيتك في أمستردام.. هولندا غالية جدًا وأنا لست ثريًا.**

ابتسمت له في حزن، ضمَّها إلى صدره بحنان، امتزجا معًا لأكثر من دقيقة، أخذت فرح تنصت لدقات قلبه، وهو يستنشق رائحة شعرها الجميل.. وفى النهاية أزاحها برفق وقال:

- **آسف يا حبيبتي.. أنا مضطر للذهاب.. عماد ينتظرني..**

وقفت فرح وأعلنت:

- **سأوصلك..**

- **ولكن..**

تردَّد مفكرًا.. لم يشأ أن يراها عماد معه، وفي النهاية استسلم عندما تقدَّمته ودفعت أمامها إحدى الحقيبتين.. تبعها محمود وفكَّر أن عماد منذ الحادث لم يناقشه أبدًا فيما حدث ذلك اليوم.. هل يمكن أن تثير رؤيته فرح هذه الذكريات المسكوت عنها؟

وصلا إلى مستشفى الجامعة الأمريكية، تركها محمود تنتظر في السيارة



وأسرع إلى العنبر.. كان عماد ينتظره.. لما رآه بدا عليه الحزن.. لقد حانت لحظة الوداع أخيرًا..

وقف حيدر يتظاهر بالمرح.. صافح عماد بقوة واحتضنه برفق، ثم تبادلا القُبلات على الخدَّين على الطريقة العربية كما قال حيدر.. وقال له عماد مازحًا:

- **خلِّي بالك من نفسك يا حيدر.. حاول أن تبتعد عن حزب الله كي لا تضيِّع مستقبلك..**

حاول حيدر أن يبتسم وقال:

- **ما تقلق حبيبي.. حزب الله هنا قوة سياسية معترف بها، تشارك في السياسة اللبنانية.. لسنا كالإخوان عندكم!**

وربت كتف عماد برفق، وطلب منه أن يتَّصل به ليطمئنه فور وصوله للحدود السورية.. تمنَّى له حظًّا سعيدًا، وصافحه للمرَّة الأخيرة وقال له:

- **لا إله إلا الله..**

نظر له عماد مندهشًا، لم يكن يعلم أن الشيعة أيضًا ينطقون الشهادة.. قال حيدر وقد لاحظ دهشته:

- **أأنا مخطئ؟ أسمعكم تقولون ذلك في الأفلام المصرية عند الوداع..**

استند عماد إلى العكاز، وابتسم مُجيبًا:



• **محمد رسول الله...**

لم ينس عماد أن يسأل عن كاترين، ذهب لها في صالة الاستراحة ليصافحها.. هي من كانت تعتني بالتغيير على جراحة ساقه.. أحبها عماد وشعر أنها ملاك رحمة حقيقي يجد معه الحنان.. كل صباح كانت تأتي وتقول له بوداعة: «بدك تتروَّق؟» فيضحك ويقول لها إن لسؤالها معاني أخرى لن تحبها عند المصريين، تدوِّي ضحكتها اللذيذة ثم يجيبها بجدية: «نعم، عايز أتروَّق»، فتأتي له بالإفطار.. كانت تناديه بـ«المصري» وتجلس إلى جواره وتسأله عن الإسكندرية وأهلها.. عانقته كاترين وتمنَّت له الوصول بالسلامة إلى الوطن.. ولم تنس أن تضيف:

• **لا تَحْكِ لندى عني.. ربما تغار مني!**

في مكتب الاستقبال، قال الموظف إن حساب عماد مدفوع بالكامل.. الدكتور قاسم دفع كل شيء.. أبدى عماد رغبته أن يرى الدكتور قاسم ويشكره، لكنَّه لم يكن موجودًا.. أراد أن يعود للعنبر ويأخذ رقم هاتفه من حيدر، فاستعجله محمود..

• **موعدنا مع «التاكسي» خلال ربع ساعة..**

وصلا إلى مدخل المستشفى.. قال محمود في حذر إن صديقته فرح تطوَّعت مشكورة لتوصيلهما إلى حيث ينتظرهما «التاكسي».. لم يرد عماد، كانت عيناه معلَّقتين بشيء ما في حديقة المستشفى.. ترك عكَّازه لمحمود،

وسار خطوتين داخل نطاق الأشجار، ثم انحنى أرضًا يقتطف وردة حمراء جميلة.. نظر له محمود مندهشًا، لم يقل عماد شيئًا.. فقط طوى الوردة برفق ووضعها في جيب سرواله القصير.. لا يمكن أن يعود لندى دون هدية.. صحيح أن الوردة ستكون حينها ذابلة ميتة، لكن هل هناك أكثر دلالة على بيروت اليوم من وردة ميتة؟

خرجا من المستشفى ومحمود يكرر بارتباك إن فرح ستوصلهما.. لم يرد عماد.. نظر له محمود يحاول أن يتبيَّن تغيُّرًا في وجهه، فلم يجد سوى نظرات شاردة، كأنه لم يسمعه من الأساس.. ركب في المقعد الخلفي لسيارة فرح، رحَّبت به فرح وسألته عن حاله ومدَّت يدها تصافحه.. تطلَّع عماد لحظة ليدها، خفق قلب محمود بقوَّة خشية أن يُحرجها صديقه، لكن عماد صافحها ببساطة، ولم يرد تحيتها.. فقط سألها عن دينا! تبادلت فرح نظرة قلقة مع محمود، وارتبكت قائلة إنها لا تعرف شيئًا عنها.

انطلقت فرح بالسيارة.. رغم أن الشوارع كانت خالية تقريبًا، تعمَّدت فرح القيادة ببطء كأنها تستبطئ فصل النهاية.. استرخى محمود في مقعده بجوارها يتأمَّل شوارع بيروت باهتمام، محاولًا أن يحفظها.. ربما تكون هذه هي المرة الأخيرة التي يراها فيها..

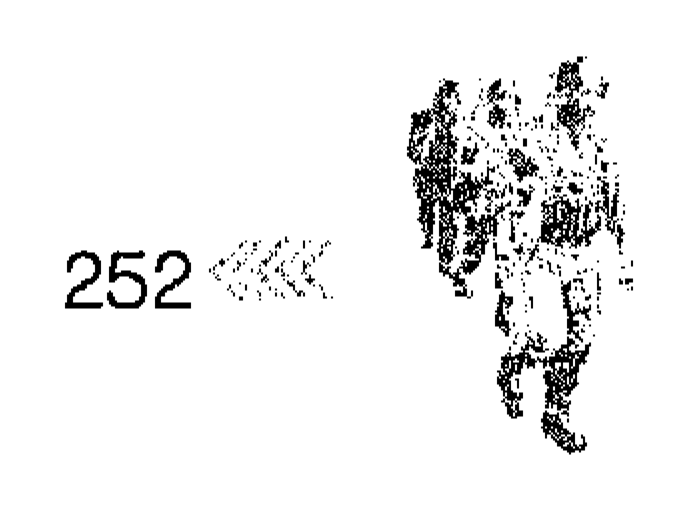
عند ساحة الشهداء نزلوا جميعًا.. كان أبو طه سائق «التاكسي» ينتظرهما بسيارته الصفراء.. قال عماد إنه سيأخذ المقعد الخلفي حتَّى يمكنه الاسترخاء عليه طوال الطريق، وساعده محمود والسائق أن يدخل

السيارة، ويتخذ وضعًا مُريحًا داخلها.. ثم قال عماد بحزم وهو يتجنَّب النظر لفرح:

- **يالّلا يا محمود.. بسرعة..**

استدار محمود كي يواجه فرح.. لحظة الوداع التي يخشاها قد جاءت.. بكت فرح، فاحتضنها محمود.. تذكَّر وقفتهما معًا في نفس المكان عند تمثال الشهداء في ثاني لياليه في بيروت عندما قبَّلها للمرة الأولى.. بدا له ذلك وكأنه قد وقع منذ سنين.. تبادلا القبلة الأخيرة وسط دموعها، ثم سحب محمود يده من يدها وركب «التاكسي».. راحت هي تلوِّح له بيدها حتَّى اختفت السيارة عن الأنظار متخذة طريقها نحو الحدود.. نحو دمشق!

■■■

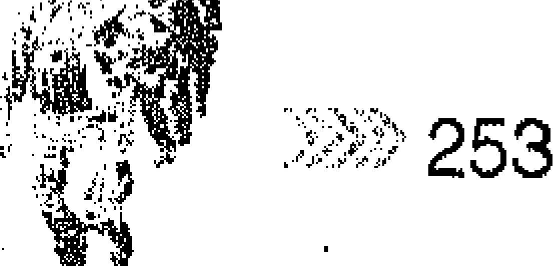


20

في تمـام الحادية عشرة صباحًا، امتلأت سـاحة الحـرم اليوناني بأكثر من مائتي طالب.. كان الطقس حارًّا، ولم أتوقَّع حضور الكثير، لقد أعلنَّا عن الاعتصـام بالأمس فقـط، كما أن الجامعـة قد أنهت محاضراتهـا الصيفية.. أغلب الطلبة الآن في الساحل الشمالي، فهل يتركون البحر والرمال ويأتون من أجل قانا؟

رأيت أعلامًا فلسـطينية ولبنانيـة ترتفع هنا وهنـاك.. لافتات بالعربية والإنجليزية ضد أمريكا وضد إسرائيل.. كان جونا واقفًا مع عدد من الطلبة الأمريـكان، يحملون لافتة كبـيرة مكتوبًا عليهـا بالإنجليزية: «عار عليك يا بوش.. .كفاك دمًا».. عندما رآني لوَّح لي بيده عاليًا!

على المدرج المواجه للساحة، أخذ فضالي يروح ويجيء، يُشرف على كل شيء.. جرَّبنـا مكبِّر الصوت والسـَّماعات الضخمة.. نصبنـا ملصقًا كبيرًا يحمـل لوجو حملـة «وحدة»، كان عبارة عن رسـم لقبة الصخرة تتوسَّـطه شجرة الأرز، وتحته شعار «وطن واحد.. قدر واحد» One nation.. One



destiny. كان حازم يخوض نقاشًا حادًّا مع رجال أمن الجامعة، وسمية توزِّع المنشورات التي طبعناها على الطلبة. وقفت ماري بكاميرتها الرقمية تلتقط الصور.. جاء بلال وقال إن الطلبة أصيبوا بالملل، ولابد أن نبدأ في أسرع وقت، قلت ذلك لفضالي فاقترح أن نشغل بعض الأغاني حتَّى نستعدَّ.. سألته عما يؤخِّرنا، فأجاب في اقتضاب: ننتظر بعض الأساتذة..

علا صوت فيروز بأغنية «بحبك يا لبنان»، فتعالت صيحات الطلبة.. وقف بلال يتحدَّث في الموبايل، وتحرَّك مبتعدًا كي يتجنَّب الضوضاء.. جاءت ماري وأخبرتني أن هناك بعض الصحفيين أمام الحرم، والأمن يمنعهم من الدخول، وطلبت مني أن أتولَّى الأمر.. ركضت إلى حافظ موظف إدارة الجامعة المُشرف على الاعتصام، وطلبت منه تصريحًا بدخول الصحفيين.. قال لي:

- **يا عم شادي.. مش عاوزين مشاكل.. أمن الدولة واجع دماغنا من الصبح عشان اللي انتم بتهببوه ده..**

صحت غاضبًا:

- **مالنا ومال أمن الدولة؟ إحنا في جامعة أمريكية.. ملهمش دعوة بينا..**

لم أتركه إلا بعد أن وقَّع لي على التصريح.. قابلت عددًا من الصحفيين ومصوري الصحف أمام بوابة الحَرم، كان هناك فريق من محطة فضائية، بينما وقفت عربة أمن مركزي بجوار مبنى المكتبة في شارع محمد محمود،

وحولها بعض الضباط.. خُضت نقاشًا مع رجلي الأمن عند البوابة، انتهى بالسماح بدخول الصحفيين بدون كاميرات؛ لأن التصريح كان بدخول أشخاص وليس كاميرات!

رنَّ جوَّالي، ووجدت رقمًا تابعًا للسفارة الأمريكية يتلاعب على شاشته.. لم أردّ.. عدتُ للساحة حيث وقف الدكتور عبد العظيم -أستاذ العلوم السياسية- يتحدَّث عن تاريخ المذابح الإسرائيلية ضد العرب.. وقفت مع الواقفين وفضالي يُوزِّع مزيدًا من المنشورات عن أرقام الضحايا منذ بدء الحرب الإسرائيلية على لبنان، فجأة رأيت ندى تتَّجه نحوي.. لم تكن ندى التي أعرفها.. وجهها نحيل وشعرها غير متناسق، ولم تضع أيًّا من مساحيق التجميل التي كانت تُسرف في توزيعها على وجهها.. صافحتني بحرارة وقالت شيئًا لم أسمعه من الضجَّة.. أخذتها من يدها واتجهنا إلى داخل مبنى العلوم الاجتماعية.. لم نكن أبدًا صديقين، لكن هذه الظروف الاستثنائية جعلتنا نتحدَّث كثيرًا عبر الهاتف ونتبادل أخبار عماد.. قالت لي في قلق إن (عماد) أرسل لها أنه انطلق من بيروت في طريقه إلى دمشق.

كانت الرسالة نفسها قد وصلتني منه.. دعوت له بسلامة الوصول، وطمأنتها أن كل شيء سيكون على ما يرام بإذن الله.. بدت مضطربة قلقة، لكنها ابتسمت وأخبرتني أنها نذرت نذرًا وأنها ستفي به فور وصول عماد للقاهرة بإذن الله، ثم استأذنتني وقالت إنها ذاهبة لشراء بعض الأشياء..



عُدنا للساحة حيث كان فضالي واقفًا يدعو، والكل يردد وراءه «آمين»، ثم طلب من الرجال أن يصعدوا للساحة لتأدية صلاة الغائب على أرواح شهداء قانا.. كانت أول مرة أُصلِّي هذه الصلاة في حياتي، ووجدت ذهني يستعيد صور ضحايا قانا التي لم تملَّ قنوات التليفزيون من عرضها ليلة أمس.. استعدت صورة الطفلة التي تفحَّم وجهها وبرزت أشلاء بطنها وانفصلت ساقها عن جسدها.. أصابتني هذه الصورة بالغثيان أمس، عندما أطلت النظر لها.. كان عمر جالسًا جواري وراح يصرخ طالبًا أن أغيِّر القناة.. لم أستجب له.. اتهمني بأنني مريض نفسيًّا، فضحكت ساخرًا.. قلت له:

- **انظر يا صديقي.. كانت هذه الدمية المحروقة طفلة جميلة تلعب وتغنِّي وتأكل وتشرب منذ ساعات لا أكثر.. كان بوسعها أن تضحك وتجري وتملأ الدنيا بهجة وصخبًا.. انظر كيف صارت؟ ما الذنب الذي ارتكبته؟**

قال لي: «إنت رايق يا عم.. بلاش وجع دماغ»، فاستطردت:

- **دعني أَقُل لك.. ذنبها.. ذنبها أنها عربية.. والعرب لا ثمن لهم يا صديقي.. العرب بالملايين صحيح، لكن ثمنهم ملاليم!!**

لم يسمعني.. قال لي: وماذا تريدنا أن نفعل؟ نحارب من أجلهم؟ نحارب مع حسن نصر الله؟ الشيعي الكافر الذي شتم السيدة عائشة وسبَّ الصحابة.. يا عم روح العب بعيد!

انتهـت صـلاة الغائـب.. حـان الوقت كـي أُنهـي مهمّتـي الأخيرة.. غـادرت الحَرَم وأسرعت الخطى نحو شـارع قـصر العيني.. عند الحواجز الأسـمنتية العريضة، عبرت الشارع حيث بدت مباني السفارة الأمريكية، وأمام سـورها يقف الجنود المصريون.. اليوم لم أرتدِ ملابسي الرسمية ولن أكـون مضطرًّا لترك جوَّالي في مكتب الأمن.. لـن أكلّم الشركات وأقنعها بالتعـاون مـع الحكومـة الأمريكيـة.. لن أرسـل الفاكسـات.. لـن أتلقى المكالمات السخيفة.. لن أضطرَّ للامتثال لأوامر باهي.. لن أواجه نظرات السـخرية في عيـون الأصدقاء والأقـارب بعد اليوم.. لـن أقول في خجل إننى أعمل في سفارة الأمريكان.

أخيرًا 8 شـارع كمال الدين صلاح.. وصلت إلى مدخل السفارة.. دخلت وحيَّيـت رجـلي الأمـن اللذين أعرفهـما جيـدًا ويعرفانني.. تبادلنا السـلام.. أخرجت من جيبي ظرفًا وفتحته.. فردت الورقة التي بداخله وأعدت قراءتها بسرعة، ثم أخرجتُ بطاقة السفارة من جيبي ووضعتها داخل الورقة المطويَّة، ثم أغلقت الظَرف وسلَّمته لأحد رجلي الأمن كي يصل لمستر باهي.

غـادرت السـفارة.. انطلقت في شـوارع جاردن سـيتي شـاعرًا بقوة لم أحـسَّ بها من قبل.. راودتنـي رغبة مجنونة أن أصير طائرًا يُحلِّق في السـماء ويمر فوق سـاحة السـفارة ويبصق عـلى العلم الأمريكـي المرفرف فيها.. كأنَّ حِمـلًا ثقيـلًا قد انزاح أخيرًا.. كابوس السـفارة قد انتهى.. اسـتعدت كرامتي.. صرتُ حرًّا من جديد.



وصلت إلى النيل.. درتُ بعينيَّ على الجانب الآخر من النيل، وتوقفت عند برج القاهرة.. ها هو ذا البرج يقف عاليًا شامخًا، يلمع تحت أشعة الشمس الحامية، شاهدًا على أكبر «لا» لأمريكا في التاريخ.. تذكرت القصة الشهيرة، عندما تلقَّى الرئيس جمال عبد الناصر بضعة ملايين من الدولارات من الحكومة الأمريكية للتأثير على سياساته الداعمة للقضية الجزائرية ضد الاحتلال الفرنسي، فإذا به يرفض الاستجابة للأمريكان، ويستعمل هذه الملايين لبناء هذا البرج العظيم - رغم احتياج البلد الشديد لهذا المال- حيث أراد عبد الناصر أن يوصل للأمريكان رسالة قوية، ويؤكد البعض أن تصميم البرج كان مقصودًا، حتَّى إن الأمريكان أسموه «شوكة عبد الناصر».

ما أجمل أن تقول «لا»! لقد قالها عبد الناصر للأمريكان منذ خمسين عامًا، وهأنذا أقولها من جديد.. صحيح أن الأمر استغرق مني شهرًا كاملًا، لكن الأهم أنني قلتها في النهاية.

لقد استقلت أيها العالم.





21

اختفت بيروت وبدأت الرحلة..

خيَّم الصمت لدقائق على السيارة المُنطلقة وسط الطُرق الخالية تقريبًا.. لا أحد يسافر في زمن الحرب.. منذ زمن هرب من هرب وبقي من بقي.. ظل السائق صامتًا، وراح يختلس النظرات لمحمود الذي لم يكف عن التقاط الصور بكاميرته من نافذة السيارة.. لاحظ محمود نظراته الثاقبة، فظنَّ أن السائق يريد أجرته في البداية، ويخجل من الإفصاح عن ذلك.. مدَّ يده في جيبه وأخرج ورقتين بمائتي دولار، ولوَّح بهما للسائق قائلاً:

- **تريد الأجرة الآن؟**

رمقه السائق بنظرة جانبية، وقال:

- **كما تريد.. ثلاثمائة دولار.**

انتفض محمود وصاح غاضبًا:

- **ألم نتفق على مائتين فحسب؟**

- **يا حبيبي والله لا أريد منك شيئًا.. لم أكن أعلم أن الإسرائيليين**



قصـفوا المصـنع.. هو المعبر الحدودي الأقرب لبـيروت، وكنَّا نفرُّ إليـه سـالكين الطُرق التي لم يطلها القصـف.. فجر أمس قصـفها الـكلاب.. الآن سـنتخذ طريقًا أطـول.. ثلاثمائة دولار أقل سـعر يمكنك أن تحصل عليه اليوم.

- **وهل توجد معابر حدودية غير المصنع؟**
- **العبودية في الشمال.. أبعد كثيرًا عن دمشق لكنَّها الحل الوحيد.**
- **إذن مائتان وخمسون دولارًا؟**

أصر السائق:

- **يا حبيبي أنا أخاطر بحياتي من أجلك وأنت تُقدِّر هذه التضـحية بمائتي وخمسين دولارًا.. تفرق معك خمسون دولارًا إضافية؟**

بقي محمود صامتًا للحظات، يحاول السيطرة على أنفاسه المتلاحقة من فرط انفعاله.. لا يجب أن يستغلَّه أحد.. نظر لعماد علَّه يشاركه جداله مع السـائق، فوجده قد استرخى تمامًا في المقعد الخلفي، مُغمضًا عينيه، مسندًا رأسـه على النافذة، فاردًا ساقه المكسـورة أمامه.. في ظروف أخرى لم يكن محمود ليستسـلم أبدًا، هذه المرة لم يشـأ أن يجادل طويلًا.. سيقتسم الأجرة في النهاية مع عماد.. قال حانقًا:

- **تبًا! أنتم تسـتغلُّون الظروف وتضاعفون أسعار كل شيء بدلاً من أن تتضامنوا معًا!**

ضحك السائق وقال وهو يعبث بالمذياع:



- **يا حبيبي أنت لا تفهم شيئًا.. لا تعرف كيف أحصل على البنزين الذي يُحرِّكنا الآن.. شو بدك تسمع؟**

لم يرد محمود وتظاهر بالحنق.. تنقَّل السائق بين محطات الإذاعة، فقال محمود بصوت خافت:

- **لو سمحت.. لا أخبار.**

ضحك السائق ساخرًا.. فتح التابلوه وراحت يده تقلب محتوياته، حتَّى أخرج شريطًا قديمًا وضعه في مُسجِّل السيَّارة وقال:

- **أم كلثوم..**

تعالت الموسيقى الساحرة، فاسترخى محمود في مقعده وآثر الصمت.. لم يتجاوز السائق سرعة مائة كيلومتر في الساعة، وانتقل من الطريق الرئيسي إلى طريق آخر يصعد الجبل، فبدت الأشجار الخضراء الجميلة تكسو الوادي تمامًا، وتمنحه منظرًا مبهرًا خلابًا، راح محمود يتأمَّله، والسائق يُدندن مع أم كلثوم براحة بال.. بعد قليل سأله محمود بقلق:

- **ألا يقصف الإسرائيليون هذه المناطق؟**
- **الإسرائيليون يقصفون كل شيء.. والله ما تركوا شيئًا يا حبيبي.. نحن سعداء الحظ فحسب!**

شعر محمود أنه يبالغ، وأن كل شيء هادئ حقًّا.. السماء صافية جميلة، والطرق خالية، ولا أخطار.. على أقل تقدير هذه الطرق في قلب الوادي

أكثر أمانًا من بيروت التي لا ينقطع عن ضاحيتها القصف.. بدأ السائق يثرثر ويحكي عن زبائنه خلال الأسابيع الثلاثة الماضية.. منذ اندلعت الحرب وكل المشاوير إلى دمشق، لكن الزبائن يختلفون.. السعودي الذي أعطاه ألفًا من الدولارات ثمنًا للرحلة إلى دمشق، وكانت تنتظره طائرة خاصة في مطار دمشق لتقله مع زوجته المُنقَّبة إلى المملكة.. مجموعة السيَّاح الفرنسيين الذين كانوا يرتعدون خوفًا داخل السيارة، وبكى أحدهم لمَّا سمعوا صوت الطائرات الإسرائيلية، ورأوها تُحلِّق فوقهم.. لحسن الحظ لم تكن طائرات حربية بل مجرد طائرات استطلاع.. تُصوِّر الطُرق وتأتي الطائرات الحربية لتنفيذ المهمَّة فيها بعد.. والفتى الأمريكي السخيف الذي أصرَّ على تسجيل الرحلة بالكامل، مُستخدمًا كاميرا الفيديو، وراح يطلب من السائق أن يُعلِّق بلغته العربية ذاكرًا أسماء الطرق وواصفًا مشاعره، على أمل أن يتمكَّن من بيع الفيلم لاحقًا لإحدى وكالات الأنباء العالمية.. وزبائن الأيام السابقة من السيَّاح الذين قرروا الرحيل أخيرًا.. الكل يعتقد أن الجسور التي ضربتها إسرائيل ستُوقف مسيرة الفارين إلى الحدود.. كلهم مخطئون.. في بلد مثل لبنان، لا يمكنك أن توقف إرادة الشعب أبدًا.. هكذا علَّق السائق ساخرًا..

فجأة دوى هزيم الرعد.. الأزيز المكتوم الذي يملأ الآذان.. نظر محمود حوله مذعورًا، باحثًا عن الطائرات فلم ير شيئًا.. استيقظ عماد من سُباته وبدا عليه الفزع.. بدا السائق كأنّه لم يسمع شيئًا.. وقال:

- **لا تخافا.. هذا صوت ضغط الهواء..**

لكنهما لم يُصدِّقا.. تبادلا النظرات الجزعة للحظات، والتفت محمود يرمق الوادي والسماء باحثًا عن الطائرات.. لم يجد شيئًا.. علا الصوت من جديد ثم اختفى.. ازداد محمود توترًا ونقل عينيه بين الطريق والسائق، ثم مدَّ يده لحقيبة ظهره التي وضعها عند ساقه وفتحها.. أخرج منها الخريطة، وطلب من السائق أن يقول له إلى أين يتجهان بالضبط.. ألقى السائق نظرة لامبالية على الخريطة وقال له:

- **ما تقلق حبيبي.. ما هيصير لك أفظع من اللي صار للناس بقانا أمس.**

التفت محمود تجاه عماد، علَّه يشاركه الضغط على السائق ليعرفا طريقهما، رأى عماد قد أغمض عينيه من جديد، وهو يمسك صدره.. هل عاد ضلعه يؤلمه؟

أخرج السائق موبايله، واتصل بأحد ما.. لم يميِّز محمود أغلب ما قاله لكنَّه فهم أنه يسأل عن الطريق.. هل قصفوه أم لا؟ أنهى المكالمة وصاح: «يلعن أبوهن كلاب».. للمرة الأولى يبدو غاضبًا.. ماذا يحدث؟

ولم يسأله محمود عمَّا حدث.. فقط تطلَّع إليه في ترقُّب، علَّه يقول شيئًا.. ما الذي أغضبه؟ لماذا لم يعد باردًا يُدندن مع أم كلثوم ويحكي عن زبائنه؟ رنَّ موبايل محمود، إنها أمه.. طمأنها وقال إنه في الطريق.. كانت تبكي وحاول هو أن يُهدِّئها.. قال لها كاذبًا إنه عَبَر الحدود من لبنان وإنه

في طريقه إلى دمشق بالفعل.. انتهى الخطر.. أنهى المكالمة فضحك السائق بعصبية وقال:

- **عم تكذب على أمك؟ شو بتعمل لو قصفنا الإسرائيليون هلا؟ بتموت كذاب؟**

وانفجر يضحك ومحمود ينظر له مندهشًا.. «شو بتعمل لو قصفنا الإسرائيليون هلا؟».. يا لفأله السيئ! بدأ الرجل حديثًا جديدًا يلعن فيه الإسرائيليين واحدًا واحدًا.. وأضاف: بيروت هذه هي البيت الثاني لليهود.. كلَّما ملُّوا من مضاجعة الفلسطينيين جاءوا إلينا.. لبنان فتاة لعوب لا يطيق اليهود الابتعاد عنها طويلاً..

نظر محمود إلى ساعته.. أربع ساعات مرَّت ولا يزالون في الطريق.. السائق ينتقل من طريق لآخر، ويُجري مكالمة هاتفية من وقت لآخر.. يسأل عن الطرق.. انتهى شريط أم كلثوم، ولم يُعِد السائق تشغيله.. ساد الصمت.. قرَّر محمود أن يستسلم لقضاء الله وينتظر.. انشغل بترديد بعض الآيات القرآنية التي يحفظها كما نصحته والدته.. لماذا لا ينتهي هذا الطريق أبدًا؟

فجأة زمجر الرعد من جديد.. هذه المرة لم يتطلَّب الأمر تفسيرًا؛ لأنَّ مصدر الصوت أعلن عن نفسه بوضوح.. طائر الرخ ينقض فاردًا جناحيه من قلب الوادي.. طائرة هليوكوبتر لا يحتاج المرء لكثير من الذكاء ليدرك أنها إسرائيلية.. سماء لبنان كلها صارت ملكًا للإسرائيليين..

سـاد صمت رهيب.. خفض السـائق مـن سرعته تلقائيًّـا وصاح: الله يسـترنا.. الله يسـترنا.. لـو كان الوقـت ليـلًا لركن على أول جنـب وأطفأ الأنوار.. لكنهم في وضح النهار، ولابد أن السيارة تبدو هدفًا هيِّنًا واضحًا كالشـمس أمام الطيَّار الإسرائيلي.. تجمَّد محمود خوفًا ووثب يلتفت لعماد في فـزع، ليتأكـد أنـه يعي ما يحدث.. رأى صديقه شـاحب الوجه، متَّسـع العينـين، يُحدِّق في السـماء.. لم يتوقَّف السـائق عن الصيـاح وهو يبطئ من سرعتـه حتَّى توقَّف.. لا يمكنه الفرار من الهليوكوبتر مهما أسرع.. لا مفرَّ من المواجهة.

أغلـق محمـود عينيه وانتظر.. ارتجفت شـفتاه بالشـهادة.. ماذا لو مات الآن؟ الجنة أم النار؟ هل يحتسـبه الله حقًّا شـهيدًا رغم ما اقترفه من آثام؟ قفزت إلى ذهنه صورة أمِّه الحنون ووالده.. كيف يستقبلان خبر مصرعه؟ تخيَّل مشهد الجنازة المهيبة المُنطلقة من مسجد القائد إبراهيم، ورأى الآلاف يندفعون مكبِّرين، حاملين جسـده وجسد عماد على محفَّتين ملفوفتين بعلم مصر -كما يرى جنازات الشهداء في فلسطين.. أهي النهاية حقًّا؟

مضـت لحظات ثقيلة، حتَّى تعالى صوت السـائق مُكـبِّرًا.. فتح محمود عينيـه ورأى الطائرة تُحلِّق مبتعدة.. تواصل طريقها.. للحظة تسـاءل لماذا لم يقصفهم الطيار الإسرائيلي؟ ألم يرهم؟ هل نفدت ذخيرته؟ أم أن مهمته هي الاستطلاع فحسب؟ على أي حال.. الحمد لله.. الحمد لله.

انطلق السـائق بالسيارة بأقصى سرعة، كطائر أسير فك قيده توًّا.. راح

يُكبِّر ومحمود لا يصدِّق أنهم قد نجوا حقًّا.. استدار نحو عماد وهزَّه برفق.. التقت عيناهما.. ابتسم عماد ولم يقل شيئًا.. كان يضغط بيده على صدره، وبدا على وجهه الألم.. سأله محمود عما به، فابتسم بصعوبة ولم يقل شيئًا..

بدأت الشمس تميل للغروب .. أشارت لافتات الطريق إلى اقتراب الحدود السورية.. العبودية 30 كيلو،20 كيلو،10 كيلو.. وأخيرًا، الحدود اللبنانية السورية..

كان المعبر خاليًا تقريبًا.. لم تستغرق الإجراءات الجمركية طويلاً.. تأمَّل الضابط السوري (عماد) بنظرة متفحِّصة توقفت عند ساقه، وقال:

- **يبدو أنك استمتعت كثيرًا بإقامتك في لبنان.. نتمنى أن نراك في ظروف أفضل.**

وما إن ختم جواز سفره، حتَّى وجد محمود جواره.. تطلَّع له بنظرة طويلة صامتة، ثم فتح ذراعيه على وسعهما واحتضنه بقوة.. بدا عماد مندهشًا للحظة لرد فعل صديقه أمام عيون الضبَّاط السوريين، ثم أحاط ظهره بذراعيه وشاركه الحضن بدوره.. وهمس في أذن محمود بصوت واهن:

- **الآن.. أقرب مستشفى!**

■■■

كانت الساعة قد تجاوزت السادسة مساء، عندما أعلنت الإذاعة



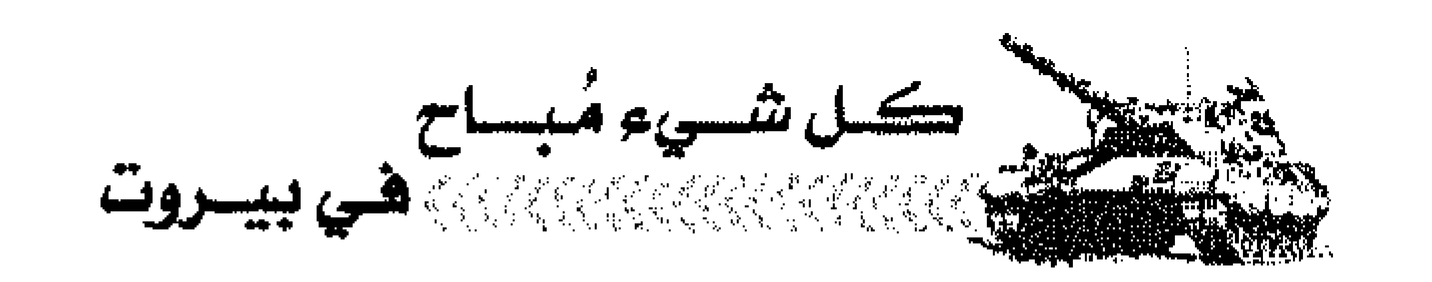
الداخليـة بصالـة الوصـول في مطـار القاهـرة، عـن هبوط طائـرة «مصر للطيران» القادمة من دمشق..

وقفـت بجـوار ندى أنتظر في صمت.. بدت غريبة في شـكلها الجديد، وباركـت لها كثـيرًا.. وقف والد عماد وعمُّه مـع أسرة محمود -والده وأمه وأختيه وأخيه الطفل- التي أتت بالكامل من الإسكندرية، وكانت والدته تبكـي بـلا انقطاع وهـي تقرأ في المصحـف.. ذهبت لمصافحـة والد عماد، وعرَّفتـه بنفسـي، لكنَّه لم يُبـد اهتمامًا بمعرفتي.. شـغله القلق عن أي شيء آخر..

ظللـتُ واقفًا أنقل عيني بين وجوه الخارجين من بوابة الوصول، حتَّى سمعت ندى تهتف باسم عماد.. نظرتُ حيثما تشير، فرأيت (محمود) يدفع أمامه عربة الحقائب بيد، ويسـند (عماد) بيد أخرى.. بدا عماد مرهقًا بشدَّة وهو يسير ببطء، مرتكزًا على عكَّازه.. اندفعنا جميعًا نستقبله، وأخذه والده في حضنـه.. خفق قلبي بقـوة وأخذته بدوري في حضني.. تأوَّه وأمسـك صدره وابتسم قائلاً:

- **بالراحة يا كابتن.. أنا قادم من حرب..**

ثـم التفـت نحو نـدى التي وقفـت تنتظـره، والدموع تلمـع في مقلتي عينيها.. وقف عماد يتطلَّع لها، وهو يراها للمرة الأولى في الحجاب.. تأمَّل الطرحة الحمراء التي تُخفي شـعرها وتحيط بوجهها، الذي بدا أكثر إشراقًا



وجمالًا عما كان عليه هذا الصباح.. طالت النظرات الصامتة المتبادلة بينهما، دون أن يأخذ أحدهما الخطوة التالية.. ملتُ على أذن عماد وقلت:

- **ماذا تنتظر يا بني؟.. يا للا بارك لها..**

وتقدَّم عماد وتقدَّمت ندى.. مدَّ عماد يده إلى جيبه، أخرج الوردة.. كانت كما توقَّع قد شحبت وذبلت، لكن رائحتها كانت لا تزال ملحوظة.. ناول ندى الوردة مبتسمًا، فالتقطتها مندهشة، ثم تأملتها وقربتها من أنفها واستنشقت عبيرها، فقال عماد:

- **هذه هديتك.. وردة من مستشفى AUB ذاتها!**

ثم أضاف ضاحكًا:

- **لا يمكنك أن تتخيلي كم قاست هذه الوردة كي تصلك من بيروت إلى القاهرة!**

كان الكل من حولهما يبتسم، ويتابعهما بنظرات مُفعَمة بالتعاطف.. سقطت الدمعة الأولى من عين ندى، فالتقط عماد يديها وضم الوردة بين أصابعهما المتشابكة.. اقترب بوجهه من وجهها حتَّى تلاقت أنفاسهما، وقال لها في صوت خافت - أنا الوحيد الذي سمعته:

- **أريدك أن تسامحيني..**
- **أسامحك على ماذا؟**

أضاف في إصرار وهو يقترب منها بوجهه أكثر:



- **سامحيني فحسب..**

ابتسمت ابتسامة كبيرة أظهرت أسنانها البيضاء اللامعة وقالت:

- **سامحتك.. سامحتك والله..**

ثم أمالت رأسها في دلال، وسألته مشيرة للطرحة:

- **ألن تقول لي مبروك؟ لعلمك كان هذا نذرًا من أجلك.. .**

ولم يقل عماد شيئًا.. فقط ترك العكّاز يسقط، ومد ذراعيه واحتواها بينهما، ناسيًا كل من حوله وما حوله.. حاولت ندى أن تقاومه في البداية، لكنها لم تلبث أن استسلمت له.

تمت بحمد الله



الكاتب

- تخرج في الجامعة الأمريكية بالقاهرة عام 2010، عمل منتجًا في مؤسسة الدوحة للأفلام، ويعمل حاليًا مخرجًا ومنتجًا في شركة لإنتاج الأفلام التسجيلية، ويقوم بكتابة وإخراج أفلام روائية قصيرة وتسجيلية.
- صدر له كتاب «هذه هي أمريكا» عام 2009، وكتاب «من بيروت إلى وادي رم» عن دار نهضة مصر للنشر عام 2011.

احدث إصدارات

الأستاذ

علاء مضباح

- من بيروت إلى وادي رم.
- كل شيء مُباح في بيروت.



كل شيء مباح في بيـــروت

"...وانطلقنا خارج الحرم إلى شارع محمد محمود.. لم يستطع أحد منعنا، خشي ضباط الداخلية استعمال القوة ضدنا... انضممنا للمظاهرة الضخمة التي ملأت ميدان التحرير يومها.. لم يضربنا الجنود ولم نصمت لحظة عن الهتاف والصياح.. تدفق الآلاف من الشباب من طلاب جامعة القاهرة إلى ميدان التحرير والتحمنا جميعًا..

ثم صاح صائح: «السفارة الأمريكية»، فاستدارت الجموع وانطلقنا تجاه السفارة الأمريكية.. أغلقوا شارع قصر العيني أمامنا، فتحركنا صوب مسجد عمر مكرم.. كنا آلافًا مؤلفة، دوت أصوات هتافاتنا كأنها صادرة عن ملايين.. فجأة صدرت الأوامر ولم يعد التقدم ممكنًا.. تدخلت جحافل الأمن المركزي واعترضت طريقنا ثم ضربونا.. بالعصي ضربونا.. أطلقوا الرصاص في الهواء وقذفونا بالقنابل المسيلة للدموع.. لم يفرقوا بين فتى أو فتاة.. بين طالب جامعة القاهرة وطالب الجامعة الأمريكية.. بين شاب متحمس أو أستاذ جامعة محترم.. الكل صار سواء أمام عصي الأمن المركزي.. أصابتني ضربة عصا في وجهي يومها وخارت قواي، جريت نحو ساحة مجمع التحرير وارتميت أرضًا





www.nahdetmisr.com